التعليقات الزكية

على

العقيدة الواسطية

لفضيلة الشيخ العلامة

عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

حفظه الله ورعاه

الجزء الأول

اعتنى به وأشرف عليه

أبو أنس علي بن حسين أبو لوز

دار الوطن للنشر

الرياض - شارع المعذر - ص.ب. ٣٣١٠

هاتف: ٤٧٩٢٠٤٢ - فاكس: ٤٧٦٤٦٥٩

تقديم فضيلة الشيخ العلامة
عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

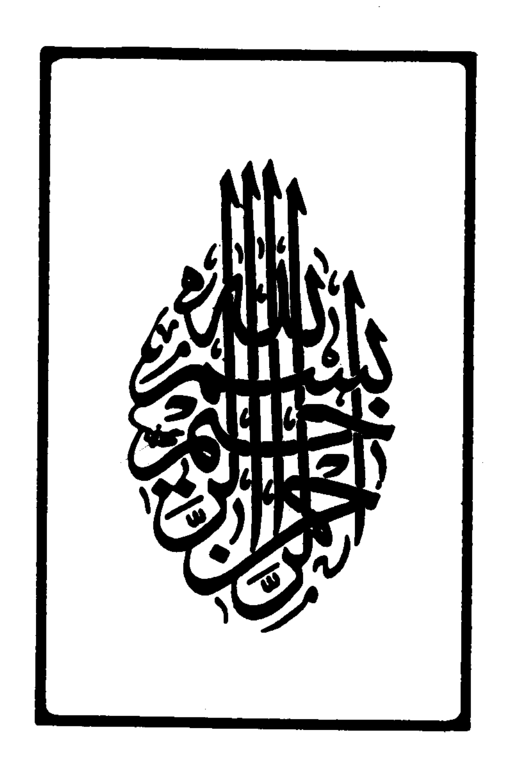
الحمد لله رب العالمين، الملك الحمد المبدئ الموصوف بصفات الكمال، المنزه عن الأشباه والأمثال، أحمده سبحانه وأشكره، وأستعينه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ظهير ولا معين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله السادة الأمين صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فقد كنت شرحت العقيدة الواسطية التي كتبها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى لرجل من أهل واسط، والتي احتوت على عقيدة السلف الصالح بما دل عليه القرآن والحديث، وذلك أن علماء الحنابلة في الأزمنة الماضية لم يشرحوا هذه العقيدة، ولا اللمعة ولا ما كتبه الإمام أحمد رحمه الله تعالى في العقائد، وإنما كان الحنابلة يعتنون بكتب الفقه ويتوسعون فيه إلا القليل منهم كأبي يعلى القاضي والإمام البربهاري والموفق ابن قدامة وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم والسفاريني ثم أئمة الدعوة من علماء نجد رحمهم الله أجمعين.

لكن هذه العقيدة رغم أهميتها لم تحظ بعناية أحد منهم، ولما احتيج لتدريسها في المعاهد العلمية وحلقات المجالس في المساجد تعين أن يعتنى بها بشرحها بعض علماء هذه البلاد كالشيخ عبد العزيز بن رشيد والشيخ زيد بن فياض رحمهما الله تعالى والشيخ عبد العزيز بن سلمان وفقه الله تعالى، ثم إنه كان في حدود سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة وألف للهجرة رغب إلي بعض طلبة العلم أن أشرحها لهم والتزموا بحفظ المتن وتسجيل الشرح فأجبتهم إلى ذلك رغم ما أقوم به من الدروس النظامية في الكلية وإمامة المسجد الجامع الكبير بالنيابة، وقد توسعت في الشرح لرغبتهم في الإيضاح، ولم أتمكن من مراجعة الشروح الأخرى ولا من النقل من كتب المؤلف أو غيره، وإنما اعتمدت في شرحها على ما في الذاكرة من العلوم والفوائد التي تلقيتها عن مشايخي الأجلاء أو مما علق بالذهن من الكتب حال المطالعة والقراءة القديمة وقت الفراغ، ولا شك أن ما اعتمد فيه على الذاكرة قد يكون خطأ أو فيه خلاف أو تقديم وتأخير أو إبدال الكلمة بأخرى أو نحو ذلك، ورغم أنني لم أعتمد فيه على الكتب المؤلفة قبلي فقد رأى أولئك الطلاب أن فيه فائدة أو فوائد وأن من المصلحة الاحتفاظ به ثم نشره، فقاموا بإفراغه ونسخه من الأشرطة وهذبوه وعرضوه علي بعد نسخه فقرأته مع ما أنا فيه من شغل البال وكثرة الأعمال، فأصلحت ما ظهر لي أنه خطأ وحذفت منه ما هو مكرر أو مستغنى عنه، وأذنت بنشره كما هو، عسى أن يكون فيه نفع لمن أراد الله به خيراً، وعسى أن إخوتي ينبهوني على ما وقعت فيه من زيادة أو نقص أو سهو أو غلط أو خطأ في اللفظ أو في المعنى، فإن المؤمن مرآة أخيه المؤمن، والحق أحق أن يتبع، ونسأل الله أن يعفو عنا الخطأ والزلل، وأن يجعل هذا الشرح خالصاً لوجهه الكريم مقرباً للزلفى لديه، والله أعلم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه.

عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين


التعليقات الزكية
على
العقيدة الواسطية
الجزء الأول



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م

تقديم فضيلة الشيخ العلامة
عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

الحمد لله رب العالمين، الملك الحق المبين، الموصوف بصفات الكمال، المنزه عن الأشباه والأمثال؛ أحمده سبحانه وأشكره وأستعينه وأستغفره. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ظهير ولا معين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصادق الأمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد كنت شرحت العقيدة الواسطية التي كتبها شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - لرجل من أهل واسط، والتي احتوت على عقيدة السلف الصالح بما دل عليه القرآن والحديث، وذلك أن علماء الحنابلة في الأزمنة الماضية لم يشرحوا هذه العقيدة؛ بل ولا اللمعة، ولا ما كتبه الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - من العقائد، وإنما كان الحنابلة يعتنون بكتب الفقه ويتوسعون فيه إلا القليل منهم كأبي يعلى القاضي والإمام البربهاري والموفق ابن قدامة وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم والسفاريني ثم أئمة الدعوة من علماء نجد رحم الله الجميع.

لكن هذه العقيدة رغم أهميتها لم تحظ بعناية أحد منهم، فلما احتيج إلى

تدريسها في المعاهد العلمية وحلقات المجالس والمساجد تعين أن يعتنى بها، فشرحها بعض علماء هذه البلاد كالشيخ عبد العزيز بن رشيد والشيخ زيد بن فياض ـ رحمه الله تعالى ـ والشيخ عبد العزيز بن سلمان ـ وفقه الله تعالى ـ.

فلما كان في حدود سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة وألف للهجرة رغب إلي بعض طلبة العلم أن أشرحها لهم والتزموا بحفظ المتن وتسجيل الشرح، فأجبتهم إلى ذلك رغم ما أقوم به من الدروس النظامية في الكلية وإمامة المسجد الجامع الكبير بالنيابة، وقد توسعت في الشرح لرغبتهم في الإيضاح، ولم أتمكن من مراجعة الشروح الأخرى ولا من النقل من كتب المؤلف أو غيرها؛ وإنما اعتمدت في الشرح على ما في الذاكرة من العلوم والفوائد التي تلقيتها عن مشايخي الأجلاء أو على ما علق بالذهن من الكتب حال المطالعة والقراءة القديمة وقت الفراغ.

ولاشك أن ما اعتمد فيه على الذاكرة قد يكون خطأ أو فيه خلاف أو تقديم وتأخير أو إبدال كلمة بأخرى أو نحو ذلك، ورغم أني لم أعتمد فيه على الكتب المؤلفة قبلي فقد رأى أولئك الطلاب أن فيه فائدة أو فوائد، وأن من المصلحة الاحتفاظ به ثم نشره، فقاموا بإفراغه ونسخه من الأشرطة وهذبوه وعرضوه عليّ بعد نسخه، فقرأته مع ما أنا فيه من شغل البال وكثرة الأعمال فأصلحت ما ظهر لي أنه خطأ، وحذفت منه ما هو مكرر أو استغني عنه، وأذنت بنشره كما هو، فعسى أن يكون فيه نفع لمن أراد الله به خيراً، وعسى أن إخوتي ينبهوني على ما وقعت فيه من زيادة أو نقص أو سهو أو غفلة أو غلط في اللفظ أو في المعنى، فإن المؤمن مرآة أخيه المؤمن، والحق أحق أن يتبع،

ونســـأل الله أن يعفو عنا الخطأ والزلل وأن يجعل هذا الشرح خالصًا لوجهه الكريم، مقربًا للزلفى لديه. والله أعلم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه.

عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين

مقدمة المعتني

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء: ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب: ٧٠, ٧١] .

أما بعد :

فإن العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ من الكتب المختصرة في عقيدة أهل السنة والجماعة ، وقد كانت جامعة لأكثر معتقد أهل السنة والجماعة .

وقد أكبَّ العلماء على شرح هذه العقيدة العظيمة ، وبيان معانيها ،

وذلك لأهميتها واعتمادها على النصوص الصريحة والصحيحة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

ومن هذه الشروحات :

١ ـ الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية ، للشيخ زيد بن عبد العزيز بن فياض .

٢ ـ التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية ، للشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد .

٣ ـ التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة ، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي .

٤ ـ مختصر الأسئلة والأجوبة على العقيدة الواسطية ، للشيخ عبد العزيز المحمد السلمان .

٥ ـ مع عقيدة السلف العقيدة الواسطية ، إعداد مصطفى العالم .

٦ ـ التعليقات المفيدة على العقيدة الواسطية ، تعليق وتخريج عبد الله بن عبدالرحمن الشريف .

٧ ـ شرح العقيدة الواسطية ، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين .

٨ ـ شرح العقيدة الواسطية ، للشيخ محمد خليل هرّاس .

٩ ـ شرح العقيدة الواسطية ، للشيخ صالح بن فوزان الفوزان .

والآن بين يديك ـ أخي القارئ ـ شرح العقيدة الواسطية لفضيلة شيخنا العلامة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين ، والمسمى :

« التعليقات الزكية على العقيدة الواسطية » .

وأصل هذا الشرح دروس لفضيلة الشيخ مسجلة في أشرطة تم تفريغها، ثم قمت بتهذيبها وتنقيحها وعزو الآيات وتخريج الأحاديث، وعمل فهرس تفصيلي للموضوعات والمسائل والفوائد.

وبعد إتمام العمل قمت بعرضها على فضيلة الشيخ لمراجعتها وإجازتها ، حتى نتمكن من نشرها مصححة ومنقّحة من قِبل فضيلته .

وبهذه المناسبة فإنني أشكر كل من ساهم معي في إخراج هذا الكتاب . وخاصة أولئك الذين قاموا بنسخ الأشرطة، أسأل الله تعالى أن يوفقهم وأن يكتب لهم الأجر والمثوبة.

كما أخص بالشكر الإخوة في دار الوطن الذين ساعدوني في التهذيب والتخريج فجزاهم الله خير الجزاء.

هذا وأسأل الله تعالى أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم ، طالبًا به الأجر والمثوبة والدرجة العالية ، وأن يثقل به ميزاني يوم ألقاه يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

وأسأله تعالى أن يحسن ختامنا ويجعلنا ممن يُختم لهم بعقيدة صافية على ماكان عليه نبينا محمد ﷺ وأصحابه الكرام من بعده ، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً.

أخوكم

أبو أنس علي بن حسين أبو لوز

يوم الجمعة ، ليلة السبت

١١ / ٧ / ١٤١٤هـ

الرياض - حي الفيحاء

ترجمة موجزة لمؤلف العقيدة الواسطية شيخ الإسلام ابن تيمية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وأصحابه ومن تبعه إلى يوم الدين .

أما بعد :

فهذه ترجمة موجزة ، للعالم الرباني ، سيد الحفاظ ، وبحر العلوم ، ومفتي الأمّة ، شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وأدخله فسيح جناته .

وقد نقلتها من بعض تراجم هذا العالم الجليل ، وأكثر ما نقلت من ترجمة الإمام البزار لشيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه : « الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية » .

علّها أن تكون مفيدة للمستفيدين وقدوة للمقتدين وحجة لمن قرأها وعرفها .

اسمه ونسبه :

هو شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبدالسلام بن أبي القاسم بن الخضر بن تيمية النمري الحرّاني الدمشقي .

مولده ومنشؤه :

ولد شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - في حرّان في عاشر ربيع الأول ،

سنة إحدى وستين وستمائة ، وبقي بها إلى أن بلغ سبع سنين ، ثم انتقل به والده ـ رحمه الله ـ إلى دمشق المحروسة ، فنشأ بها أتم إنشاء وأزكاه وأنبته الله أحسن النبات وأوفاه .

وكانت مخايل النجابة عليه في صغره لائحة ، ودلائل العناية فيه واضحة[١] ، وختم القرآن صغيراً ، ثم اشتغل بحفظ الحديث والفقه والعربية ، حتى برع في ذلك ، مع ملازمة مجالس الذكر وسماع الأحاديث والآثار[٢] .

غزارة علومه :

ولقد كان إذا قُرئ في مجلسه آيات من القرآن العظيم يشرع في تفسيرها ، فينقضي المجلس بجملته ، والدرس برُمّته ، وهو في تفسير بعض آية منها[٣] .

ولقد أملى في تفسير : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] مجلدًا كبيراً .

وقوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[طه: ٥]، نحو خمس وثلاثين كرّاسة . ولقد بلغني[٤] أنه شرع في جمع تفسير لو أتمّه لبلغ خمسين مجلدًا[٥] .

ومن أعجب الأشياء في ذلك ، أنه في محنته الأولى بمصر ، لما أُخذ

---

(١) الفتاوى الكبرى (١/ ٨).

(٢) المرجع السابق (١/ ٩) .

(٣) المرجع السابق (١/ ١٠) .

(٤) أي الإمام البزّار ، والإمام البزار ممن رأى وصحب شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ .

(٥) الفتاوى الكبرى (١/ ١٠) .

وسجن ، وحِيل بينه وبين كتبه ، صنّف عدّة كتب صغاراً وكباراً ، وذكر فيها ما احتاج إلى ذكره من الأحاديث والآثار ، وأقوالٍ العلماء ، وأسماء المحدثين ومؤلفاتهم، وعزا كل شيء من ذلك إلى ناقليه وقائليه بأسمائهم ، وذكر أسماء الكتب التي فيها ، وأي موضع هو منها .

كل ذلك بديهة من حفظه ؛ لأنه لم يكن عنده حينئذ كتاب يطالعه. ونُقِّبَت واختُبِرت واعتُبِرت فلم يوجد فيها خلل ولا تغيُّر، ومن جملتها كتاب : « الصارم المسلول على شاتم الرسول».

وهذا من الفضل الذي خصه الله تعالى به [1] .

مؤلفاته ومصنفاته :

فإنه لا يقدر على إحصائها أحد؛ لأنها كثيرة جداً ،كباراً وصغاراً ، وهي منشورة في البلدان.

فمنها ما يبلغ اثني عشر مجلداً كـ : « تلخيص التلبيس على أساس التقديس » . ومنها ما يبلغ خمس مجلدات كـ : « منهاج الاستقامة والاعتدال» . . . إلخ [2] .

ومنها :

كتاب : « تفسير سورة الإخلاص»، وكتاب : « الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » ، وكتاب : « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب

(١) الفتاوى الكبرى (١/ ١٠/ ١١).
(٢) المرجع السابق (١/ ١١) .

الجحيم »، وكتاب : « الكلم الطيب» ، وكتاب « منهاج الاستقامة». . . إلخ[١] .

وغيرها من الكتب الكثيرة جدًا والتي لا يمكن استقصاؤها بيسر وسهولة .

ذكر تعبده وزهده وورعه وتواضعه وغير ذلك :

أما تعبده :

فإنه قلّ أن سُمع بمثله ؛ لأنه كان قد قطع جل وقته وزمانه فيه ، حتى إنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله تعالى[٢] .

وإذا رأى منكرًا في طريقه أزاله ، أو سمع جنازة سارع إلى الصلاة عليها ، أو تأسف على فواتها ، وربّما ذهب إلى قبر صاحبها بعد فراغه من سماع الحديث ، فصلى عليها[٣] ، وكان في كل أسبوع يعود المرضى .

أما ورعه :

فكان في الغاية التي يُنتهى إليها في الورع ؛ لأن الله تعالى أجراه مدة عمره كلّها عليه . فإنه ما خالط الناس في بيع ولا شراء ولا معاملة ولا تجارة ولا مشاركة ولا زراعة ولا عمارة[٤] .

ولم يكن يقبل جراية ولا صلة لنفسه من سلطان ولا أمير ولا تاجر ، ولا كان مدَّخرًا دينارًا ولا درهمًا ولا متاعًا ولا طعامًا . وإنما كانت بضاعة مدة حياته وميراثه بعد وفاته العلم[٥] .

---

(١) الفتاوى الكبرى (١/ ١١).

(٢) المرجع السابق (١/ ١٧) .

(٣) المرجع السابق (١/ ١٧) .

(٤) المرجع السابق (١/ ٢٠).

(٥) المرجع السابق (١/ ٢٠) .

فانظر بعين الإنصاف إلى ما وُفِّق له هذا الإمام وأُجري عليه ما أُقعد عنه غيره وخذل عن طلبه ، لكن لكل شيء سبب ، وعلامة عدم التوفيق سلب الأسباب . ومن أعظم الأسباب لترك فضول الدنيا ، التخلي عن غير الضروري منها[١] .

أما زهده في الدنيا ومتاعها :

فلقد اتفق كل من رآه ، خصوصًا من أطال ملازمته ، أنه ما رأى مثله في الزهد في الدنيا ، حتى لقد صار ذلك مشهوراً ، بحيث قد استقر في قلب القريب والبعيد من كل من سمع بصفاته على وجهها .

بل لو سئل عاميٌّ من أهل بلد بعيد من الشيخ : من كان أزهد أهل هذا العصر ، وأكملهم في رفض فضول الدنيا ، وأحرصهم على طلب الآخرة ؟ لقال : ما سمعت بمثل ابن تيمية - رحمة الله عليه - ![٢] .

فأين حاله هذه من أحوال بعض المنتسبين إلى العلم وليسوا من أهله، ممن قد أغراه الشيطان بالوقيعة فيه بقوله وفعله؟

أترى ما نظروا ببصائرهم إلى صفاتهم وصفاته ، وسماتهم وسماته ، وتحاسدهم في طلب الدنيا، وفراغه عنها ، وتحاشدهم في الاستكثار منها ، ومبالغته في الهرب منها ، وخدمتهم الأمراء واختلافهم إلى أبوابهم، وذل الأمراء بين يديه . . . ؟ إلى آخر ما ذكر الإمام البزار[٣] .

---

(١) الفتاوى الكبرى (١/ ٢٠) .

(٢) الفتاوى الكبرى (١/ ٢١، ٢٢) .

(٣) الفتاوى الكبرى (١/ ٢٢) .

أما عن تواضعه وإيثاره :

فكان مع شدة تركه للدنيا ورفضه لها ، وفقره فيها ، وتقلُّله منها مؤثرًا بما عساه يجده منها ، قليلاً كان أو كثيرًا ، جليلاً أوحقيرًا ، لا يحتقر القليل فيمنعه ذلك عن التصدق به ، ولا الكثير فيصرفه النظر إليه عن الإسعاف به ، فقد كان يتصدق حتى إذا لم يجد شيئًا نزع بعض ثيابه المحتاج إليه فيصل به الفقير[(١)] .

وحكى غير واحد ما اشتهر به من كثرة الإيثار ، وتفقد المحتاجين والغرباء، ورقيقي الحال من الفقهاء والقراء ، واجتهاده في مصالحهم وصلاتهم ومساعدته لهم[(٢)] .

وأما عن تواضعه :

فما رأيت ولا سمعت[(٣)] بأحدٍ من أهل عصره مثله في ذلك ، كان يتواضع للكبير والصغير ، والجليل والحقير ، والغني الصالح والفقير ، وكان يُدْني الفقير الصالح ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلي ، زيادة على مثله من الأغنياء ، حتى إنه ربّما خدمه بنفسه ؛ وأعانه بحمل حاجته ، جبرًا لقلبه، وتقربًا بذلك إلى ربه[(٤)] .

وكان متوسطًا في لباسه وهيئته ، لا يلبس فاخر الثياب ؛ بحيث يرمق ويمدّ النظر إليه ، ولا أطمارًا ولا غليظة تُشهر حال لابسها ويميّز من عامّة

---

(١) الفتاوى الكبرى (١/ ٢٢).
(٢) الفتاوى الكبرى (١/ ٢٣).
(٣) يعني الإمام البزار .
(٤) الفتاوى الكبرى (١/ ٢٥) .

الناس بصفة خاصة يراه الناس فيها[١] .

ذكر وفاته وكثرة من صلى عليه وشيَّعه :

توفي - رحمه الله تعالى - ليلة الاثنين، العشرين من ذي القعدة الحرام، وذلك من سنة ثمان وعشرين وسبعمائة . وهو على حاله مجاهداً في ذات الله تعالى ، صابراً ، محتسباً ، لم يجبن، ولم يهلع، ولم يضعف ، ولم يتراجع، بل كان إلى حين وفاته مشتغلاً بالله عن جميع ما سواه[٢] ، فغسل وكفن ثم أخْرِجَتْ جنازته، فما هو إلا أن رآها الناس وأكبّوا عليها من كل جانب[٣] .

واتفق جماعة ممن حضر حينئذ وشاهد الناس والمصلين عليه، على أنهم يزيدون على خمسمائة ألف[٤] .

وقال العارفون بالنقل والتاريخ : لم يُسمع بجنازة بمثل هذا الجمع إلا جنازة الإمام أحمد به حنبل - رحمه الله -[٥] .

وصدق الإمام أحمد بن حنبل حين قال[٦] : « قولوا لأهل البدع : بيننا وبينكم الجنائز » .

فالبدعي يموت وربما لا يشعر بموته أحد ، أما المجاهد في سبيل إحياء السنة، فموته يحدث ضجة في العالم .

---

(١) الفتاوى الكبرى (١/ ٢٥) .
(٢) الفتاوى الكبرى (١/ ٣٨) .
(٣) الفتاوى الكبرى (١/ ٣٩) .
(٤) الفتاوى الكبرى (١/ ٣٩) .
(٥) الفتاوى الكبرى (١/ ٤٠) .
(٦) هذه النقولات من كتاب تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية ، في مقدمة المحققين .

قال ابن القيم: سمعت شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية يقول:

« ما يصنع بي أعدائي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري ، أين رحت فهي معي ، لا تفارقني ، أنا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة » .

قال ابن القيم : وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف، وهو مع ذلك أطيب الناس عيشًا ، وأشرحهم صدراً ، وأقواهم قلبًا ، وأسرّهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه. وكان إذا اشتد بنا الخوف ، وساءت بنا الظنون ، وضاقت بنا الأرض، أتيناه . فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب عنّا ذلك كله ، وينقلب انشراحًا ، وقوة ويقينًا وطمأنينة .

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

فجزاه الله أحسن الجزاء عن الإسلام والمسلمين ، وسبحان من أعطاه ما أولاه، ومدّه بحسن التوفيق إلى ما هداه ، وأعانه بالصبر الجميل إلى أن توفاه، ورضي عنه وأرضاه ، ورزقنا وكافة المسلمين الحياة والموت على الكتاب والسنة حتى نلقاه ، والاعتصام بهما في جميع ما نتلقاه[١] .



(١) الفتاوى الكبرى (١/ ٤١).

نبذة مختصرة في تاريخ الفرق والعقائد والمؤلفات في ذلك(*)

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ على فطرة سليمة وعقيدة صافية؛ لأنهم اقتصروا في تلقِّيها على الأصلين : الكتاب والسنة .

فلم يظهر هناك أي مخالفات أو محدثات إلا ما كان من أحد الأعراب اسمه ذو الخويصرة عندما اعترض على النبي ﷺ في تقسيمه بعض الغنائم على أصحابه(١) .

وفي عهد عليّ - رضي الله عنه - خرجت طائفة من الناس وهم الخوارج(٢) وابتدعوا في الدين عدة بدع ، منها وهي أهمها : **التكفير بالكبائر ، واستحلال الدماء والأموال بغير حق .**

(*) هذه النبذة من كلام الشيخ عبد الله بن جبرين ، وقد قالها قبل البدء بشرح الواسطية .

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٦١٠) في المناقب ، باب : « علامات النبوة في الإسلام» . ومسلم برقم (١٠٦٤)-١٤٨ في الزكاة ، باب : « ذكر الخوارج وصفاتهم» . من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، ولفظه ، قال : « بينا نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسمًا أتاه ذو الخويصرة ، وهو رجل من بني تميم ، فقال: يا رسول الله اعدل، قال رسول الله ﷺ : «**ويلك ، ومن يعدل إن لم أعدل ، قد خبت وخسرت إن لم أعدل** » فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله ائذن لي فيه أضرب عنقه ، قال رسول الله ﷺ : «**دعه فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية** » .

(٢) الخوارج : هم كل من خرج عن الطاعة ، وكفر بالذنوب ، واستباح بذلك الدماء والأموال . وأول ما خرجوا في عهد علي رضي الله عنه ، فقتلهم بالنهروان ، وقد ورد بشأنهم أحاديث كثيرة ، بينت أنهم كلاب النار وأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية مع كثرة عبادتهم . انظر التعليقات على متن لمعة الاعتقاد ص (١٨٦ ، ١٨٧) .

ومن بدعهم : الاقتصار على ما جاء في القرآن وردّ ما جاء في السنة ، كالمسح على الخفين ، وما أشبه ذلك .

وقد وردت أحاديث في التحذير منهم ومن مسلكهم كما جاء في الحديث : « **يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية** »[1] ، وفي رواية : « **يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية** »[2] إلى آخر أوصافهم . مما يدل على سوء معتقدهم وانحراف مسلكهم[3] .

* **ثم ظهرت بدعة القدرية**[4] **في آخر عهد الصحابة** - يعني فيما بعد

---

(١) سبق تخريجه ، انظر الصفحة السابقة .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٣٤٤) في الأنبياء ، باب : « قول الله تعالى : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ » . ومسلم برقم (١٠٦٤)-١٤٣ في الزكاة ، باب : « ذكر الخوارج وصفاتهم » . عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) الأحاديث الواردة في الخوارج كثيرة جدًا ، منها الحديث الذي ذكرناه في الهامش السابق الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه . وانظر للفائدة كتاب (إتحاف الجماعة) للشيخ حمود التويجري رحمه الله (١/ ٢٧٤) باب ما جاء في الخوارج ، فقد جمع فيه أكثر الأحاديث التي وردت في الخوارج .

(٤) القدرية : هم المنكرون للقدر ، وهو تقدير الموجودات سابقًا ، أو المنكرون لقدرة الله على أفعال العباد . وأول من خرج منهم معبد الجهني ، ثم غيلان القدري ، ينكرون علم الله بالأشياء قبل وجودها ، يقولون : لا يعلم الأشياء حتى تحدث ، وهؤلاء الذين قال فيهم الشافعي : ناظرهم بالعلم فإن أقروا به خصموا وإن جحدوه كفروا . ثم حدثت فيهم بدعة أشد وهي إنكار قدرة الله على الهداية والإضلال ، وأن الله ليس على كل شيء قدير ، وأنه لا يهدي ولا يضل من يشاء ، وهؤلاء هم القدرية الذين أنكروا القدرة ، وقال فيهم الإمام أحمد : القدر قدرة الله - يعني من اعترف بأن الله على كل شيء قدير فقد خصم القدرية ، خاصموهم بهذه الكلمة ، وقولوا لهم : أليس الله على كل شيء قدير؟ إذًا فكيف يخرج عن قدرته كونه يهدي من يشاء ويضل من يشاء . انظر كتاب الإرشاد شرح لمعة الاعتقاد ص ٣٦٣ للشيخ عبد الله بن جبرين .

السبعين من الهجرة - فنفوا علم الله السابق الأزلي ، وقالوا : إن الأمر أُنُف ؛ يعني : مستأنف ، فزعموا أن الله لايعلم الأشياء قبل وقوعها . وقد ظهروا في العراق ، وكان رئيسهم معبد الجهني(١) وغيلان القدري(٢) .

وقد أنكر عليهم بعض الصحابة هذه البدعة ، كما رُوي عن عبد الله بن عمر وعبادة بن الصامت - رضي الله عنهم - وغيرهم(٣) .

(١ ، ٢) معبد الجهني هو أول من أظهر القول في القدر ، وكان ذلك بعد منتصف القرن الأول تقريبًا ، وقد أخذه معبد عن رجل نصراني اسمه سوسن ، أسلم ثم رجع إلى نصرانيته مرة أخرى ، فكان معبد أول من نشره بين الناس .
وتذكر كتب الفرق أن غيلان الدمشقي الذي ورث القدر عن معبد أنه كان مرجئًا . وقد استدعاه عمر بن عبد العزيز وناظره حتى أعلن توبته ، ووعد بعدم العودة إلى الخوض في القدر ، ولكنه رجع إليه بعد موت عمر بن عبد العزيز فأتى به هشام بن عبد الملك وعقد له مجلسًا فناظره ثم قتله .
وكان قتله عام ١٠٥ هـ . فيكون قد عاش في أواخر القرن الأول . انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة ص ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٧ ، بتصرف .
وقال الأوزاعي : أول من نطق في القدر : رجل من أهل العراق يقال له : سوسن ، كان نصرانيًا ثم تنصر فأخذ عنه معبد الجهني وأخذ غيلان عن معبد . رواه اللالكائي في شرح أصول السنة برقم (١٣٩٨) . والآجري في الشريعة (٢٤٢) . وابن بطة في الإبانة (٢/ ٤١٤ ، ٤١٥) .

(٣) أخرج مسلم في صحيحه (٨ - ١) في الإيمان ، باب : « بيان الإيمان والإسلام والإحسان . . . » عن يحيى بن يعمر ، قال : كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجَّيْن أو معتمرَيْن ، فقلنا : لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عمّا يقول هؤلاء في القدر ، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليَّ ، فقلت : أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ، ويتقفرون العلم ، وذكر من شأنهم ، وأنهم يزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أُنُف ، قال : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم ، وأنهم برآء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر : لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر . . . إلخ الحديث» .

* **ثم ظهرت بدعة الإرجاء**،(١) وكان ذلك في أواخر القرن الأول؛ حيث قالوا: لا تضر مع الإيمان معصية، فما دمت مؤمنًا فلا يضرك ارتكاب أي معصية، وأنت كامل الإيمان.

وسُمُّوا بالمرجئة؛ لأنهم أرجؤوا - أي أخَّرُوا - الأعمال عن الإيمان، حتى قال قائلهم:

فكثِّر ما استَطَعْتَ من المعَاصي ... إذا كان القُدومُ على كريمٍ

وقد أنكر عليهم كثير من التابعين.

* **ثم ظهرت بدعةُ الاعتزال**(٢) - في أوائل القرن الثاني - فزعموا أن الذي يرتكب المعاصي ليس بمؤمن ولا كافر؛ بل هو في منزلة بين المنزلتين، هذا في

---

(١) أول من قال بالإرجاء هو الجهم بن صفوان أبو محرز السمرقندي الذي تنسب إليه فرقة الجهمية الذين اشتهروا بإنكار الصفات والرؤية، وقالوا بخلق القرآن وغير ذلك مما هو معروف. وكان يقول: لا يضر مع الإيمان ذنب، أي إذا كنت مؤمنًا فاعمل ما شئت من الذنوب. والجهم بن صفوان ظهر في ترمذ ثم انتقل إلى بلخ وأقام بها يصلي مع مقاتل بن سليمان في مسجده ويتناظران حتى نفي إلى ترمذ، ثم خرج على السلطان مع الحارث بن شريح فقتله سلم بن أحوز البلخي بأصبهان وقتل بمرو سنة ١٢٨. انظر أصول اعتقاد السنة للالكائي (   ) ولقد عرف عن الجهم بن صفوان هذا أقوال بشعة حتى أنه تمنى أن يحك قول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] من مصاحف المسلمين.

(٢) المعتزلة: هم أتباع واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وهم كثير - لا كثرهم الله - فقد انتشر مذهبهم وطبعت لهم مؤلفات، وممن اعتنق مذهبهم القاضي عبد الجبار صاحب الكتاب المشهور (المغني) وهو من أشهر كتبهم. وممن اعتنق مذهبهم أيضًا الزمخشري صاحب التفسير المشهور بالكشاف فهو معتزلي مبالغ في الاعتزال، وقد بنوا مذهبهم على خمسة أصول: العدل، والتوحيد، وإنفاذ الوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد أكثر العلماء في الرد عليهم وإبطال قواعدهم. انظر كتاب التعليقات ص ١٨٧، ١٨٨، وكتاب الإرشاد ص ٣٦٣، ٣٦٤.

الدنيا ، أما في الآخرة فهو خالد مخلد في النار . والذي تولى ذلك رجل يُقال له واصل بن عطاء[١] ؛ حيث اعتزل مجلس الحسن البصري فسموا بالمعتزلة ، وقد سلك طريقته رجل يقال له عمرو بن عبيد[٢] .

* **ثم ظهرت بدعة نفي الصفات** - في وسط القرن الثاني - فأنكروا صفات الله التي أثبتها لنفسه ، فقالوا : إن الله لا يحب ولا يرحم ، وليس على العرش استوى . . . إلخ .

وكان أول من نُقل عنه ذلك من العرب رجل يُقال له الجعد بن درهم[٣] .

وقد ذكره ابن القيم في النونية في قوله[٤] :

---

(١) واصل بن عطاء البصري، كانت ولادته بالمدينة عام ٨٠ هـ، وتتلمذ على الحسن البصري ثم لما أحدث بدعة المنزلة بين المنزلتين طرده من مجلسه، فاتخذ له مجلسًا خاصًا وانحاز إليه من وافقه على مذهبه، توفي عام ١٣١ هـ، وقد أحدث بدعتين: الأولى: حكمه على مرتكب الكبيرة بأنه في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر. الثانية: زعمه أحد الفريقين المتحاربين من الصحابة فاسق من غير تحديد له، ولهذا فقد طعن في عدالتهم ولم يقبل شهادة أحد منهم، انظر أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ص ٢٨ - ٣٠ .

(٢) عمرو بن عبيد بن باب، الزاهد العابد القدري، كبير المعتزلة وأولهم، أبو عثمان البصري. قال ابن عليّة: أول من تكلّم في الاعتزال واصل الغزّال، فدخل معه عمر بن عبيد فأعجب به، وزوجه أخته. توفي سنة ١٤٤ هـ. وإليه تنسب فرقة العمروية من فرق المعتزلة. انظر منهاج السنة لابن تيمية (١/ ٧٥) وسير أعلام النبلاء (٦/ ١٠٤).

(٣) الجعد بن درهم مولى سويد بن غفلة، أصله من خراسان، سكن دمشق. ضال مبتدع، فلما أظهر القول بخلق القرآن تطلبه بنو أمية فهرب إلى الكوفة فلقي الجهم بن صفوان فتقلد هذا القول عنه، وقد قتله خالد القسري أمير الكوفة بالعراق عام ١٢٤ هـ . انظر اعتقاد أهل السنة (١/ ٢٨).

(٤) انظر الكافية الشافية (نونية ابن القيم) ص ٣٤ الأبيات ٥٠، ٥١ .

ولأجلِ ذا ضَحَّى بجعدٍ خالد الـ قسـريّ يومَ ذبائحِ القربانِ
إذ قال إبراهيم ليس خليله كلا ولا موسى الكليم الداني

لقد أنكر أن الله يحب ، وأنه اتخذ إبراهيم خليلاً ؛ وأنكر أن الله يتكلم ، وأنه كلم موسى تكليمًا ، ولأجل ذلك قتله خالد بن عبد الله القسري(١) في عيد الأضحى عندما خطب بالناس ، قال في آخر الخطبة : « ضحُّوا تقبَّل الله ضحاياكم ، فإني مُضحٍ بالجعد بن درهم » .

قال ابن القيم :

شكر الضحيةَ كلُّ صاحبِ سنةٍ لله درُّك من أخي قربانِ

ثم تقلّد تلك البدعة رجل يقال له الجهم بن صفوان السمرقندي(٢) ، ثم نشرها ودعا إليها فنُسبت إليه ، فيقال : الجهمية نسبة إليه . وقد حُفظَ عنه أقوال بشعة ، فقد أنكر علوَّ الله على خلقه واستواءه على عرشه ؛ حتى إنه تمنى أن يُحكَّ قول الله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] من مصاحف المسلمين .

وكان السلف يسمُّون كل من بالغ في نفي الصفات أو نفي التشبيه جهميًا ؛ لأن عمدة الجهمية أنهم ينكرون إثبات كل صفة في المخلوق لله تعالى ، ويقولون : إن إثباتها تشبيه . ثم قتل الجهم بن صفوان ، وجاءت من بعده المعتزلة فانتحلت بدعته .

(١) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسري من بجيلة ، أبو الهيثم ، ولد سنة ٦٦ هـ . يماني الأصل من أهل دمشق . وهو الذي قتل الجعد بن درهم .
(٢) سبقت ترجمته ص ٢٤ .

ولكن الجهم ابتدع ثلاث بدع ، وهي :

الأولى : بدعة إنكار الصفات :

وقد كفرهم طوائف من المسلمين بإنكار الصفات . يقول ابن القيم[١] :

ولقد تقلَّد كفرهم خمسون في   عشرٍ من العلماء في البلدانِ
واللالكائي الإمامُ حكاه عنـ   ـهم بل حكاه قبلَه الطبراني

الثانية : بدعة الجبر :

وهو زعمه أن العبد مجبور على المعاصي ومقسور، ليس له اختيار ، وأنه بمنزلة من يُقذف به في الماء وهو موثق ، حتى يقول قائلهم :

ألقاه في البحرِ مكتوفًا وقال له   إياكَ إياك أن تبتلَّ بالماءِ ! !

ويقولون : إن حركته كشجرة تحركها الرياح ليس له اختيار[٢] .

فالعصاة عندهم معذورون ؛ لأنهم مجبرون . وهذه بدعة شنيعة تبطل الشرع ، ومعناها أن ليس لله حجة على العباد ، وأنه لو عذب العصاة لكان ظالماً لهم .

الثالثة : بدعة الإرجاء :

وهي توسعته في الذنوب وقوله : إنه لايضر مع التوحيد ذنب ،

وهذه البدع الثلاث التي ابتدعها الجهم تفرقت :

---

(١) انظر الكافية الشافية (النونية لابن القيم) ص٧٢ الأبيات ٦٣٣ ، ٦٣٤ .

(٢) يقول ابن القيم في النونية (ص ٣٤) :

والعبد عندهم فليس بفاعل   بل فعله كتحرك الرَّجَفَان
وهبوب ريح أو تحرّك نائم   وتحرك الأشجار للميلان

* فبدعة الإرجاء تقلَّدها طائفة المرجئة.

* وبدعة الجبر تقلدها طائفة الجبرية .

* وبدعة نفي الصفات تقلدها المعتزلة .

وهذه الأخيرة - أي بدعة الاعتزال - هي التي تمكنت وانتشرت .

■ ولما كان القرن الثالث أو أواخر القرن الثاني الهجري اهتم السلف - رحمهم الله - بالرد على جميع الفرق المبتدعة.

وقد ظهرت كتب ومقالات في الرد على هؤلاء المبتدعة :

* وأقدم من ذُكر أنه كتب في الرد على نفاة الصفات ابن الماجشون ، أحد علماء المدينة في آخر القرن الثاني ؛ فقد كتب ورقتين أو ثلاثاً في الرد عليهم ، وقد نقلها برمتها شيخ الإسلام ابن تيمية في الحموية ، ونقلها الإمام ابن القيم في كتابه « اجتماع الجيوش الإسلامية » ونقلها أيضًا الذهبي في العلو.

ثم كُتِبَتْ رسائل كثيرة في العقائد لبعض الأئمة ؛ منها رسالتان للإمام عثمان بنِ سعيد الدارمي :

الأولى: كتاب « الرد على الجهمية» يذكر فيه صفات الله تعالى مع سرد الأدلة من الكتاب والسنة على كل صفة .

الثانية : رسالة بعنوان : « رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد».

وبشر بن غياث المريسي ؛ كان خلفًا للجهم بن صفوان ، فتبنى بدعته ودعا إليها ، وكان ذلك في آخر القرن الثاني .

وكان قد اعتضد ببعض الولاة الذين ساعدوه على نشر بدعته ، وقد تتلمذ له - أي بشر المريسي - فقيه من فقهاء الحنفية يقال له محمد بن شجاع

الثلجي[١] ؛ حيث كان يدرس عليه بالخفاء ، فصار تلميذًا خاصاً للمريسي ، وتبنى عقيدته وكتبها في رسالة سماها : « هذه عقيدة بشر المريسي » ، ولم يصرح باسمه ، ولكنه عرف وكشف بعد ذلك .

والحاصل أن الإمام الدارمي قد رد على بشر المريسي وعلى تلميذه ابن الثلجي ، وبالغ في إبطال ما جاء به ذلك الخبيث من الشبه ، وذكر الأدلة على ذلك ، ومذهب أهل السنة في كل مسألة .

وممن ألف في ذلك الإمام أحمد فإن له عدة رسائل في العقيدة ، منها رسالة عنوانها : « الردّ على الجهمية فيما شكّت فيه من متشابه القرآن » . وقد طبعت مرارًا ، وقد حققها عبد الرحمن عميرة . وقد ذكر فيها شيئًا من عقائد الجهمية وأقوالهم ، وسبب تشكك الجهم وانحرافه ، وسبب انتحاله لهذه العقيدة .

كذلك له أيضًا كتابات كثيرة في العقائد تجدها في تراجم تلاميذه في المجلد الأول من طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى والذي خصه بتراجم لتلاميذ الإمام أحمد .

وكان ابن أبي يعلى ـ رحمه الله ـ إذا ترجم لأحد تلاميذ الإمام أحمد قال : روى عنه مسائل أو رسالة عنوانها كذا في العقيدة أو غيرها ، ثم يرويها بالإسناد إليه ثم يسردها أحيانًا .

وهذا يدلّ على أن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ كانت له رسائل يكتبها لبعض

(١) **قال الشيخ ابن جبرين** : ومن العجيب أن الثلجي هذا مقدس عند الحنفية ، وهو لا يُعْرَفُ عنه شيء . وقد كتب له بعض المتأخرين مثل : زاهد الكوثري المصري ترجمة مطولة بالغ في الثناء عليه ورفع من قدره .

الناس الذين يطلبونها منه ، حيث يأتيه أحدهم - وقد يكون من تلاميذه - فيقول له : إن بلادنا قد كثرت فيها البدع والمبتدعة وأظهروا معتقداتهم ، فاكتب لي عقيدة أتشبث بها . فيمليها عليه وهو يكتب ، فيأخذها ويحتفظ بها ، ثم يرويها ، ويقول في مقدمتها : هذه عقيدة أملاها عليّ الإمام أحمد أو كتبها لي .

وقد تتبعها الإمام ابن أبي يعلى بالرغم من بعد المسافة التي بينهم ، ولكنه رواها بأسانيد وأثبتها في تراجمهم ، فالحاصل أن فيها ما يدل على ثبوت ما يعتقده ، وأنه أوصى تلاميذه بما يعتقده مما يتعلق بالصفات ، ومما يتعلق بالقرآن وأدلة ذلك .

* وممن ألف في ذلك - أيضًا - عبد الله ابن الإمام أحمد ، فقد ألف كتابًا سماه « السنّة » ذكر فيه الأحاديث المرفوعة والآثار المروية عن الصحابة وعن السلف فيما يتعلق بالصفات والرد على المبتدعة في ذلك ؛ كالجهمية ونحوهم .

* وممن ألف في ذلك الإمام البخاري - رحمه الله - في كتابه : « خلق أفعال العباد » .

و هكذا ردوا عليهم في مؤلفاتهم العلمية كصحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود وغيرها ؛ فقد ذكروا فيها كتبًا في ذلك ككتاب التوحيد أو الإيمان أو السنة ونحو ذلك .

وبعد ظهور هذه المؤلفات والردود في العقيدة في أواخر القرن الثاني ، وفي القرن الثالث ثارت ثائرة المبتدعة ، ومنهم المعتزلة ، وحاولوا نشر بدعهم ، فتغلغلوا في الدولة العباسية بسبب قربهم من بعض الخلفاء وولايتهم الوزارة

والتربية لبعض أبناء الملوك مثل الخليفة المأمون؛ حتى قرّب بعض أكابرهم وهو أحمد بن أبي دؤاد ، فأقنع المأمون بعقيدة المعتزلة ، فزين له القول بأن القرآن مخلوق وإنكار الصفات وإنكار العلو وما أشبه ذلك .

فلما تابعهم المأمون على عقيدتهم ، قالوا له: لابد وأن تبثّ هذه العقيدة في الناس ، وأن تلزم الناس بها ، وأن تفتن من قال بخلافها، فوافق على ذلك، ومن هنا بدأت الفتنة وعظمت المصيبة ؛ حيث امتُحن الأئمة في آخر حياة المأمون، وفي خلافة المعتصم وخلافة الواثق.

ففي زمن هؤلاء الخلفاء الثلاثة قويت بدعة إنكار الصفات وتمكنت ، وصار أهل السنة مستضعفين ؛ بل صاروا في غاية من الاحتقار والإهانة ، وعزّ المتمسك بتلك العقيدة ؛ حيث نُفِّر من عقيدتهم حتى إنهم يستخفون بقولهم لكثرة من هو ضدهم ، وحصل لهم من البلاء ما الله به عليم . وحصلت في ذلك الوقت محنة الإمام أحمد ، وهي معروفة ومشهورة.

وكان هناك من المعتزلة من لهم مكانة مرموقة ومنزلة عالية ومذهب قوي في الاعتزال ، وكان لهم مؤلفات وكتابات كلها على طريقتهم ونحلتهم ، ومن أبرز من ألف في ذلك القاضي عبد الجبار الهمذاني المعتزلي ، فقد ألف عدة كتب في عقيدتهم ، منها ـ وهو أشهرها ـ كتاب : « المغني»، ومع الأسف فإنه لقي رواجًا في هذه الأزمنة ، قد وُجدت منه نسخ متفرقة أكثرها في البلاد اليمنية . ثم ظهر من اعتنى به وحققه وطبعه طباعة جيدة في بلاد سوريا.

وله كتاب آخر اسمه : « متشابه القرآن» . وقد حمل في هذين الكتابين على أهل السنة وهاجم فيه المعتقد الصحيح ، وهذا الكتاب وهو : « متشابه القرآن» قد حققه رجل من أهل سوريا اسمه : الدكتور عدنان محمد زرزور ،

وقد طبع في مجلدين .

والظاهر أن زرزور هذا على عقيدة القاضي عبد الجبار . وذلك يظهر من خلال تحقيقه للكتاب وتعليقاته عليه وتأييده لتأويلاته ، ثم إنه اختصره في مؤلف سمّاه أيضًا « متشابه القرآن» ، وطبعه في مجلد صغير ، وذكر فيه تأويل آيات الصفات وسماها متشابهًا وخاصة الآيات التي فيها إثبات الصفات . وحمل على أهل السنة ، وحمل على ابن تيمية ، وذكر من كتبه نقولات شنع بها عليه ، وذكر أنه مشبه ، وأنه مجسم وأنه كذا وكذا إلخ ، مما يدل على أن لكلٍّ قوم وارثًا .

وحمل هذا الرجل أيضًا على كتاب السنة لعبد الله ابن الإمام أحمد ، وكذلك على كتاب التوحيد لابن خزيمة رحمه الله، وابن خزيمة من أجلاء العلماء ، صاحب كتاب الصحيح ، ومن أهل القرن الثالث والرابع .

وقد شنع زرزور على هذا الكتاب ـ أي كتاب التوحيد لابن خزيمة ـ حتى قال : إن بعضهم سماه : كتاب الشرك أو كتاب التشكيك ، وتمنى أن يحرق ، وماذا يحتوي عليه كتاب التوحيد لابن خزيمة ؟!!

إن هذا الكتاب يقتصر على الأحاديث يرويها بالأسانيد وعهدتها على نقّالها ، ويحتوي على آيات قرآنية وأحاديث نبوية ، فهؤلاء المبتدعة يلومون ابن خزيمة على تصنيفه هذا الكتاب ، ويقولون : لماذا يكثر من الأدلة في إثبات الصفات ؟! فإذا ذكر صفة اليد مثلاً أتى بعشرة أدلة أو عشرين دليلاً لإثبات صفة اليد .

فلو لم يذكر إلا دليلاً واحدًا لأمكننا التأويل ، ولكن يصعب تأويل عشرين دليلاً .

لذا شنعوا على هذا الكتاب وسموه : كتاب الشرك أو التشكيك .

والحاصل أنه استمر الأمر على هذه الحال إلى آخر خلافة الواثق .

فلما كان الخليفة الرابع وهو المتوكل ، فهداه الله وفرّج به عن أهل السنة ، وأظهرهم به على مخالفيهم ، فنصر السنة وقرَّب أهلها ، وأذن لهم بإظهار عقيدتهم في دروسهم وفي كتبهم .

فعند ذلك قمع الله المبتدعة وأذلّهم ، وفرق كلمتهم ، ومن ثم بادر أهل السنة بالكتابة في العقائد، فألفوا المؤلفات الكثيرة في ذلك ، منها المختصرة والمطولة ، وقد ذكر جانبًا منها شيخ الإسلام ابن تيمية في «الحموية» ، وقد أشرنا إلى بعضها فيما تقدَّم ،ومن ذلك : كتاب «السنة» للخلال ، و«السنة» لابن أبي عاصم ،و«اعتقاد أهل السنة» للالكائي ، و«الشريعة» للآجري ، و«التوحيد» لابن خزيمة ، و«التوحيد» لابن مندة ، و«الإيمان» له ، ولأبي بكر ابن أبي شيبة ، ولابن عبيد القاسم بن سلام وهي مطبوعة .

ومن ذلك كتاب « الأسماء والصفات » للبيهقي وهو مطبوع أيضًا، ولكن حققه الكوثري وأفسده ؛ حيث تأول كل ما فيه وسلّط عليه التأويلات التي أبطلته ، كما أن المبتدعة لما فسّروا القرآن سلّطوا عليه أنواع التأويلات .

وكتب أيضًا في ذلك الطحاوي عقيدته المشهورة ولم يصرح فيها بالمذهب الصحيح في إثبات صفة الاستواء والعلو الحقيقي والصفات الفعلية على قول سلف الأمّة الذي تؤيده الأدلة الصريحة؛ لأنه كان في زمن قد كثر فيه المنكرون للصفات .

وإن كان صرح ببقية الصفات ، وعلى كُلٍ فهو قد دخل عليه شيء من شبهات أهل الكلام ، فلأجل ذلك تعاطى شيئًا من بدعهم واستعمل شيئًا من

عباراتهم ، والله يعفو عنه ، وعقيدته صالحة لكن لما لم تكن صريحة شرحها أتباع المعتقد الأشعري على طريقتهم ، وشرحها أهل السنة على عقيدتهم ، وشرحها المعتزلة على عقيدتهم ، وكل منهم يقول إنه على عقيدتنا .

ومن المبتدعة الذين أنكروا بعض الصفات وتأولوها الأشاعرة ، فقد كتبوا في العقائد ولهم مؤلفات كثيرة نظمًا ونثرًا ، ومن ذلك عقيدة اسمها العقيدة السنوسية ، والعقائد النسفية ، والجوهرة ، وهي مطبوعة في مجموع المتون ولها عدة شروح نثرًا على طريقة الأشاعرة .

وأيضًا هناك منظومة اسمها : الخريدة على عقيدتهم . ومنظومة أخرى اسمها الشيبانية وهي أقرب إلى السنة وإن كان فيها بعض التأويلات : وأولها :

سأحمد ربي طاعةً وتفردًا ... وأنظم عقدًا في الشريعة أوحدًا

وأشهد أن الله لا ربَّ غيره ... تعزز قدمًا بالبقاء وتفردا

إلى أن يقول مما هو مستنكر عليه ، وإن كان له احتمال صحيح :

فلا جهة تحوي الإله ولا له ... مكان تعالى عنهما وتمجدا

إذ الكون مخلوق وربي خالق ... لقد كان قبل الكون ربًا وسيدا

ولا حل في شيء تعالى ولم يزل ... غنيًا حميدًا دائم العز سرمدا

فالأشاعرة كتبوا عقائد كثيرة منها ست أو سبع عقائد مطبوعة في أول مجموع الفتاوى ، وبه نحو من اثنين وستين متنًا وشروحها مشهورة عندهم .

فعليك أيها المسلم الموحّد بمؤلفات أهل السنة وكتبهم وخاصة كتب السلف المتقدمين وبعض كتب المتأخرين مثل : لمعة الاعتقاد لأبي محمد بن قدامة المقدسي ، صاحب المغني ، وله كتب في إثبات العلو وغيره ، وقبله

القاضي أبو يعلى كتب في الصفات وإبطال التأويلات .

ثم جاء شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ والذي ظهر ـ رحمه الله ـ في وقت قلّ فيه واستُغرب من هو على منهج أهل السنة والجماعة ، فضلاً عن وجود من يجهر بذلك ، فألهمه الله الحق وصدع به ، وتصدى لمن خالف ذلك ، وأظهر الأدلة الواضحة التي تدل على ما ذهب إليه . وكتب في ذلك مؤلفات كثيرة مختصرة ومبسوطة .

فلما كتب هذه العقيدة نوظر فيها من قبل الأشاعرة ، وأحضروا هذه النسخة ، وطلبوا منه الحضور ، ثم قُرئت عليه في عدة مجالس ، ثم حاسبوه عن كل كلمة قالها وناظروه : فبيَّن لهم أنه الصواب بالأدلة الشرعية فحجَّهم وبين لهم البيان الواضح .

وكتب مناظرته أيضًا ـ وهي مطبوعة ـ وكان ابن تيمية رحمه الله قد أمهلهم ثلاث سنوات على أن يأتوا بكلمة واحدة في هذه العقيدة تخالف ما كان عليه اعتقاد السلف الصالح فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً .

ثم كتب عقيدته التي هي أوسع منها ، وهي العقيدة الحموية لأهل حماة ، وقد كتبها في أواخر القرن السادس الهجري في حدود سنة ستمائة وثمان وتسعين . ولما كتبها أيضًا حصل له بسببها أذى وافتتن ـ رحمه الله ـ فحبس لأجلها ونوظر ولكن لم يقدروا أن يردوا عليه ، ثم اشتهرت وانتشرت فكفَّرَه أهل مصر ، وقالوا إنه كافر مشبه . . . وأنه . . . وأنه ، إلخ . ووشى به علماء السوء والسلطة إلى السلطان آنذاك ، فاستدعاه السلطان لمناظرة علمائه .

فلما وصل إلى مصر حضر عند قاضي كبير يقال له ابن مخلوف ، حنفي المذهب ، وتصدى لمناظرته رجل من علماء الشافعية يقال له ابن عدوان .

فلما مثَلا بين يدي ابن مخلوف ، قال ابن عدوان : أنا أدعي على ابن تيمية هذا أنه يقول إن الله على العرش بذاته ، وأنه يقول إن الله ينزل نزولاً حقيقيًا إلى السماء الدنيا ، وأنه يقول : إن الله يتكلم بحرف وصوت .

عند ذلك قال له ابن مخلوف : ما تقول يا فقيه ؟ - يخاطب ابن تيمية - فابتدأ ابن تيمية بالحمد لله والثناء على الله فقطعوا عليه حمده ، وقالوا له : ما أتينا بك لتخطب .

عند ذلك قال : فمن يكون الحكم؟! ، فقال : ابن مخلوف : أنا ؟ فقال شيخ الإسلام : كيف تقضي عليَّ ؟ وأنت من جملة الخصوم . فغضب وكتب للسلطان بسجنه ، فأدخل السجن ، ومكث فيه عدة سنين ، وكان هؤلاء يترددون عليه بين الآونة والأخرى فيناظرونه ، ولكن تكون له الغلبة عليهم في كل المرات .

والحاصل أنه بعد ذلك اشتهرت كتبه وخاصة هذا الكتاب المسمى : بـ «العقيدة الواسطية» ورفع الله ذكره وكثر أتباعه على الحق .



معنى العقيدة وسبب تسميتها بالواسطية

العقيدة : مأخوذة من العقد ، ومنه عقد الحبل ، وسميت بذلك لأنها مما يجب أن يُعقد عليه القلب .

فالعقائد : هي ما يُعقد عليه القلب ، ولا يتردد فيه ولا يشك في صحته ، كأنه عُقد عليها ، حتى لايمكن تغييرها ولا حلها ولا إخراجها .

وهذا سبب تسمية هذا النوع من العلم بالعقائد .

وسميت بالواسطية : لأن الذي سألها أو طلب كتابتها من الشيخ رجل من أهل واسط ؛ جاء إليه في أحد مواسم الحج وهو جالس في المسجد بعد صلاة العصر ، فشكا إليه انتشار الفرق والأهواء والعقائد ، وقال له : اكتب لي عقيدة تكون عمدة لي ، فكتب له هذه العقيدة ، وهو جالس في مجلسه بعد العصر .

ولما كتبها نُسخت في مجلسه أيضًا ، أو نسخها وأبقى عند شيخ الإسلام الأصل .

والحاصل أنه كتبها من حفظه ولم يُراجع أية كتاب ، وأملاها في مجلس واحد .

❁ ❁ ❁

مقدمة شيخ الإسلام ابن تيمية

قال شيخ الإسلام وعمدة الأنام ، الإمام العالم الرباني الزاهد أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



ابتدأ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ كتابه بالبسملة شأنه شأن جميع المؤلفين .

فقد افتتح بها الصحابة كتاب الله ، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل ، ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة كُتِبَتْ في أوّلها ، أو أنها بعض آية من كل سورة ، أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها ، أو أنها إنما كتبت للفصل لا أنها آية على أقوال للعلماء سلفًا وخلفًا[١] .

والأرجح : أنها للفصل بين السور كما في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما : «أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه : ﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ »[٢] .

ومن قال بأنها آية من الفاتحة رأى الجهر بها في الصلاة ، والذين لم يروا ذلك فقد أسرّوا بها .

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٦) .

(٢) أخرجه أبو داود برقم(٧٨٨) في الصلاة ، باب : « من جهر بها » . وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٦٤) والمشكاة (٢٢١٨) .

. . . .

والذي ثبت عن الخلفاء الأربعة أنهم كانوا يُسِرُّون بالبسملة ، وكذلك طوائف من سلف التابعين والخلف ، وهو أيضًا مذهب أبي حنيفة والثوري وابن حنبل[١] .

ويُسنّ للعبد أن يقول : باسم الله عند الأكل والشرب ، ولبس الثوب ، وعند دخول المسجد والخروج منه ، وعند الركوب ، وعند أول الوضوء ، وعند الذبيحة ، والبعض أوجبها عند الذبيحة ونحو ذلك ، للأحاديث الواردة في هذه الأمور وغيرها .

قوله : (**بسم**) : الباء للاستعانة وهي متعلقة بفعل محذوف يلزم تقديره متأخرًا ليفيد :

١ ـ الحصر .

٢ ـ التبرك والتيمن والاستعانة ونحوها .

والاسم في اللغة : ما دل على مسمى .

وفي الاصطلاح : ما دل على معنى في نفسه ولم يقترن بزمان .

قوله : (الله) : علم على الرب تبارك وتعالى ، أي اسم للرب ، ولا يسمى به غيره . ويقال : إنه الاسم الأعظم ؛ لأنه يوصف بجميع الصفات . ومعناه : ذوالألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ، وهو مشتق من أله يأله ألوهة بمعنى عبد يعبد عبادة . فالله إله بمعنى مألوه أي معبود .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (١/ ١٧).

. . . .

وقد استدل بعضهم على كونه مشتقًا بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] أي أنه هو المألوه في السماوات والأرض ، وهذا أرجح ما قيل فيه .

والمألوه أي المعبود ، فهو سبحانه المعبود في السماوات والأرض .

قوله : (**الرحمن**) : مشتق من الرحمة وهو على وزن فعلان ، ومعناه : ذو الرحمة الواسعة ، وهو اسم من أسماء الله تعالى ، فلا يطلق على غيره .

قوله : (**الرحيم**) : على وزن فعيل ، وهو دال على الفعل ، ومعناه : ذو الرحمة الواصلة ، ويطلق على الله عز وجل وعلى غيره منكراً .

فقوله : (**الرحمن الرحيم**) اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ، والرحمن أشد مبالغة من الرحيم .

وهما اسمان كريمان من أسمائه الحسنى دالان على اتصافه تعالى بالرحمة على ما يليق بجلاله .

والرحمن ذو الرحمة العامة لجميع المخلوقات ، والرحيم ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

❁ ❁ ❁

[الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ ؛ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا]


الشرح

■ قوله : (الحمد لله) :

ابتدأها بالحمد اقتداءً بالكتاب العزيز ، وعملاً بالحديث المشهور : « **كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه بالحمد لله - أو : بالحمد - فهو أقطع** »(١) وفي رواية ضعيفة : « **ببسم الله**»(٢)؛ ولأن النبي ﷺ كان يبدأ بالبسملة في خطبه ومكاتباته ومراسلاته(٣)، وهكذا أهل العلم من السابقين واللاحقين .

والحمد لغة : الثناء باللسان على الجميل الاختياري على وجه التعظيم والتبجيل .

واصطلاحًا : هو ذكر محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله ؛ ولا شك أن المحاسن في حق الله تعالى هي الصفات العُلى والأسماء الحسنى والنعم الكثيرة .

وبعضهم يُعرِّف الحمد بأنه : فعلٌ ينبئُ عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعمًا

(١ ، ٢) أخرجه ابن ماجه برقم (١٨٩٤) في النكاح ، باب : « خطبة النكاح »، وأحمد في المسند (٢/ ٢٥٩)، وابن حبان (١٩٩٣) - موارد)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٩٤) و(٤٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال الألباني في الإرواء رقم (٣) : الحديث ضعيف لاضطراب الرواة، عن الزهري، وكل من رواه منه موصولاً ضعيف، أو السند إليه ضعيف، والصحيح عنه مرسلاً . وانظر الإرواء رقم (١ ، ٢)، وأبو داود برقم (٤٨٤٠) في الأدب ، باب : « الهدي في الكلام » ، وانظر السلسلة الضعيفة برقم (٩٠٢).

(٣) ومن ذلك ما كتبه الرسول ﷺ إلى هرقل عظيم الروم فقال ﷺ : «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم**. . .إلخ» . أخرجه البخاري برقم (٧) في بدء الوحي، باب(٦)، ومسلم برقم (١٧٧٣) في الجهاد والسير، باب : كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام .

. . . .

على الحامد وغيره . فقوله : « فعل» مثل قولك : أحمد الله ، هذا فعل « ينبئ» يعني يخبر عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعمًا على الحامد وغيره .

والله تعالى يُحمد على كل شيء ؛ يحمد على أسمائه الحسنى ، ويحمد على صفاته العلى ، و يحمد على عطائه ، كما يحمد على ابتلائه بالخير أو بالشر . فيحمد سبحانه بكل حال وعلى كل حال ؛ ولذلك يقولون : الحمد لله على كل حال ، ونعوذ به من حال أهل النار .

لكن الغالب أنهم عندما يحمدون الله تعالى يذكرون بعد الحمد شيئًا من الصفات التي هي صفات كمال .

■ قوله : ‌(**الذي أرسل رسوله**) :

وهذا من أعظم صفات الكمال لله تعالى ، وهو : إرسال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ومن أشرفهم وأعظمهم نبينا محمد ﷺ ؛ ولذلك قال ـ رحمه الله ـ : **الحمد لله الذي أرسل رسوله** يعني محمداً ﷺ . فحمده لكونه أرسل هذا الرسول .

والرسول لغة : من بعث برسالة .

واصطلاحاً : إنسان ذكَر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه . فإن أوحي إليه ولم يؤمر بتبليغه فهو نبي ، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً .

■ قوله : (**بالهدى**) :

الهدى لغة : الدلالة والبيان .

وهو ينقسم إلى قسمين :

أ ـ هدى دلالة وبيان : وهذا يقدر عليه الرسل وغيرهم من أتباعهم . قال

. . . .

تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى: ٥٢] . وقال ﷺ : « **لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم** »[1] .

ب ـ هدى توفيق وإلهام : وهذا لا يقدر عليه إلا الله ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾[القصص: ٥٦] .

والمعنى أن الشريعة التي جاء بها الرسول محمد ﷺ وبلّغها ، فيها الهدى والدلالة إلى الرشاد ، وفيها دين الحق .

■ قوله : (**ودين الحق**) :

الدين : هو ما يدان ويلتزم به ، والمراد هنا جميع ما شرعه الله من الأحكام الاعتقادية أو القولية أو الفعلية .

■ قوله : (**ليظهره على الدين كله**) :

يعني يُعليه ويعلي دينه وينصره على جميع الأديان من يهودية أو نصرانية أو غيرها ، يعليه بالحجة والبيان والجهاد حتى يظهر على مخالفيه من أهل الأرض ، ولا شك أن المسلمين قاموا بهذا الأمر ، وهو الجهاد ، فجاهدوا في الله حق جهاده ، حتى انتشر هذا الدين في مشارق الأرض ومغاربها .

■ قوله : (**وكفى بالله شهيدًا**) :

يعني كفى بشهادة الله سبحانه وتعالى إثباتاً على صدق نبيه محمد ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٠٠٩) في الجهاد ، باب : «فضل من أسلم على يديه رجل» ، ومسلم برقم (٢٤٠٦) في فضائل الصحابة . باب : « من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه» .

. . . .

وصدق ما جاء به . وإلا لو كان هذا النبي كاذبًا على الله في دعواه وفي نبوته وفي رسالته لعجل له بالعقوبة ، ولكن أيده ونصره على أعدائه ، وما ذاك إلا دليل قاطع على صدق هذا النبي ﷺ .

والمؤلف رحمه الله تعالى أخذ هذه الجملة من الآية التي في آخر سورة الفتح وهي قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا** ﴾ [الفتح : ٢٨] .

والحاصل : هذا هو سبب الحمد ؛ وهو إرسال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ بالهدى ودين الحق ؛ يعني بالعلم النافع والعمل الصالح ، وإظهار دينه ﷺ على جميع الأديان .



[وَأَشْهَدُ أن لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا] .


الشرح

بعد أن حمد الله وأثنى عليه جاء بالشهادتين . وقد رُوي في بعض الأحاديث : « **كل خطبة ليس فيها تشهّد فهي كاليد الجذماء**»[1] أي المقطوعة والمشلولة . ولكنه حديث ضعيف .

■ قوله : (**وأشهد أن لا إله إلا الله**) :

هذه الشهادة الأولى وهي المقدمة ، وهي متضمِّنة للشهادة الثانية المتضمنة للعبادة كلها ؛ فشهادة أن لا إله إلاالله تقتضي إفراد وتخصيص الله بالألوهية .

والألوهية مأخوذة من التألُّه وهو التعبد ؛ يعني التحبُّب والتودُّد إليه سبحانه ، ويدخل في ذلك كل أنواع التعبد .

والعبادة هي كما قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : « غاية الحب مع غاية الذل» ولهذا قال ـ رحمه الله تعالى ـ في نونيَّته :

وعبادةُ الرحمنِ غايَةُ حبِّه ... مع ذلِّ عابدِهِ هما قطبانِ

أي : ركنان أساسيان .

وهي : « اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوالِ والأعمالِ

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٨٤١) في الأدب ، باب : « في الخطبة» والترمذي برقم (١١٠٦) في النكاح، باب: «ما جاء في خطبة النكاح». وأحمد في مسنده (٢/ ١١٤٣). و ابن حبان برقم (٥٧٩)، (١٩٩٤). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. وانظر السلسلة الصحيحة للألباني برقم (١٦٩).

. . . .

الظاهرة والباطنَة » كما عرَّفها شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ بذلك (١) .

فيدخل فيها قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح ، فعندما تشهد لله سبحانه وتعالى بتوحُّده وتفرده بالألوهية والعبادة فكأنك تعترف بأنه يجب عليك أن تُؤلِّهه .

كيف تشهد أن لا إله إلا هو ولا تَؤلِّهُهُ سبحانه ؟!

كيف تُقرُّ بأنه إلهك ولا تَألِّهُهُ ؟!

فالتألُّهَ هو التذلُّل والتعبد ؛ أي الطاعة والاتباع والامتثال مع المحبة والخوف والتعظيم . أو باختصار : هو غاية الحب مع غاية الذل .

فإن قولك : أشهد أن لا إله إلا الله : أي أقرّ واعترف أنه لا معبود بحق إلا الله .

وقد اشتملت هذه الكلمة على نفي وإثبات ، فالنفي (لا إله) والإثبات (إلا الله) .

■ قوله : **(وحده لا شريك له)** :

تأكيد لذلك الإقرار **(وحده)** تأكيد للإثبات (إلا الله) . **(لا شريك له)** تأكيد للنفي (لا إله) .

فهو سبحانه لا شريك له في عبوديَّته ، كما أنه لا شريك له في ملكه وفي أسمائه الحسنى وصفاته العلى .

■ قوله : **(إقرارًا به وتوحيدًا)** : أي اعترافًا باللسان بأنه لامعبود بحق سواه . **(توحيدًا)** : أي إفراداً وإخلاصًا له بذلك سبحانه وتعالى في كل عبادة قولية أو فعلية أو اعتقادية .

---

(١) العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٨ .

. . . .

تنبيهات :

التنبيه الأول :

إن المقصود من هذه الكلمة معرفة معناها لا مجرد التلفظ بها ؛ فأما من أتى بحروفها ولم يعمل بها فإنها لا تنفعه يوم القيامة، ولا تكون سببًا لنجاته من النار والعياذ بالله .

فالغاية من قولنا : « لا إله إلا الله» هي أن نتَّخذه إلهًا ومعبودًا ولا نؤلِّه غيره، والتأله كما تقدم هو التحبب والتودد إليه سبحانه ؛ فلابد لمن يعمل بلا إله إلا الله أن يحب الله من كل قلبه أعظم محبة ، ولابد له أيضًا أن يتذلل لله وأن يتواضع له غاية التواضع، وأن يعظِّمه غاية التعظيم ، ويرجوه غاية الرجاء، ويخافه أشد الخوف، ويخشع ويخضع له سبحانه .

فإذا كان كذلك فإنه يكون قد حقق العبادة ولابد مع ذلك أن يخلع تألُّهَ غير الله من قلبه؛ فلا يذل لغيره ، ولا يخضع لغيره ، ولا يخاف سواه ، ولا يرجو إلا إياه ، ولا يحب غيره كمحبته ، ونحو ذلك . ومن كان كذلك فإنه يكون من أهل لا إله إلا الله .

وأما الذين يقولونها بألسنتهم ثم يقعون في خلافها وفيما ينقضها فإنها لا تنفعهم؛ لأنهم جهلاء بمدلولها ، فهم يقولونها وهم معتقدون أن من تلفظ بها فقد عصم ماله ودمه وحسابه على الله ،ولكنهم ما عرفوا أن النبي ﷺ لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال[1] ، بل ولامعرفة معناها مع لفظها ، بل

---

(١) ثبت عن النبي ﷺ عدة أحاديث في الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، وفي بعض الألفاظ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة. وفي بعضها : من قال : لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، وفي بعضها : من وحّد الله.

. . . .

ولا الإقرار بذلك ، بل أضاف إلى ذلك الكفر بما يُعبد من دون الله [(١)] .

التنبيه الثاني :

إن كثيرًا من الناس يفسّرون «لا إله إلا الله» بأنه لا خالق إلا الله ، أو لا رازق إلا إياه ، أو نحو ذلك ، أو يقولون إن معناها : لا نعبد إلا الله ولا نصلي إلا له . . . إلخ .

لكنهم لا يدرون ما معنى العبادة التي خلقوا من أجلها فيصرفونها لغير الله ولا يشعرون بذلك ؛ فإن كل طواعية لمخلوق وذلٍّ له وخضوع له هو عبادة له في الحقيقة . فمن صرفها لقبر ميت ، أو لقبر وليّ ، تذلل له ، وخضع ودعاه ، وناداه وهتف باسمه ، وذبح له - مثلاً - ، فإنها عبادة له في الحقيقة ، وإن لم يعترف بذلك .

فهذا ما عبد الله حق عبادته ، بل أشرك به سبحانه ؛ فلا يكون من أهل كلمة لا إله إلا الله الذين تُعصم دماؤهم وأموالهم .

التنبيه الثالث :

ليعلم أن لهذه الكلمة العظيمة شروطًا سبعة لابد من معرفتها :

أولها : **العلم المنافي للجهل** : والدليل قوله تعالى : ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ [محمد : ١٩] . والذين يقولونها ولا يعلمون معناها قد يقعون في

(١) يشير الشيخ وفقه الله إلى حديث طارق أشيم الأشجعي الذي رواه مسلم برقم (٢٣) قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**من قال : لا إله إلا الله ، وكفر بما يعبد من دون الله ، حَرُمَ ماله ودمه ، وحسابه على الله**» .

. . . .

خلافها أوفي ما يناقضها ، فلابدّ من العلم بمعناها .

الثاني : **اليقين المنافي للشك** : لأن المنافقين قد يقولونها لكنهم لا يوقنون بمضمونها، بل يشكون في ذلك . قال ﷺ : «**أشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة**»[١] . وقال ﷺ : «**من لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة**»[٢] .

الثالث : **الإخلاص المنافي للشرك** : لأن بعضًا من الناس قد يقولونها ولكنهم لا يخلصون دينهم لله، بل يصرفون بعضه لغير الله كاليهود مثلاً . قال تعالى : ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾[البينة : ٥] وقال ﷺ حينما سئل : من أسعد الناس بشفاعتك ، فقال عليه الصلاة والسلام : «**من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه أو نفسه**»[٣] .

الرابع : **الصدق المنافي للكذب** : لأن هناك من يقولها بلسانه ولكن قلبه مكذب بها ، فلا يكون صادقًا في تلفظه بها . قال ﷺ : « **ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار**»[٤] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧)-٤٤ في الإيمان . باب : « الدليل أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا» . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم برقم (٣١) -٥٢ في الإيمان . باب : « الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا» . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري برقم (٩٩) كتاب العلم . باب : « الحرص على الحديث» . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه البخاري واللفظ له برقم (١٢٨) في العلم . باب : «من خصَّ بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا» . ومسلم برقم (٣٢) -٥٣ في الإيمان . باب : « الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا» . عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

. . . .

الخامس: المحبة المنافية للكره والبغض: فلابد أن يكون قائلها محبًا لله غاية المحبة ، ومحبًا كذلك لعبادة الله .

السادس: الانقياد المنافي للتردد أو التكبر : فلابد أن يكون قائلها مُقبلاً على عبادة الله بكل قلبه .

السابع: القبول المنافي للرد: فيجب على من قالها أن يتقبّل كل ما جاء عن الله على ألسنة الرسل فلا يرد شيئًا من لوازمها ومقتضياتها .

التنبيه الرابع :

قال شارح العقيدة الطحاوية[1] : « وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد ، وشهدت به ملائكته وأنبياؤه ورسله : قال تعالى : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [آل عمران : ١٨] .

فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد ، والردّ على جميع طوائف الضلال ، فتضمنت أجلّ شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها ، من أجلِّ شاهدٍ ، بأجلّ مشهود به .

وعبارات السلف في «شهد» تدور على الحكم والقضاء ، والإعلام والبيان ، والإخبار ، وهذه الأقوال كلها لا تنافي بينها ، فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره ، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه ، فلها أربع مراتب :

فأول مراتبها: علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته .

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ، صفحة : ٤٣ ، ٤٤ ـ تحقيق الدكتور : عبد الله التركي .

. . . .

وثانيها : تكلمّه بذلك ، وإن لم يُعْلم به غيره ، بل يتكلم بها مع نفسه ، ويذكرها وينطق بها ، أو يكتبها .

وثالثها : أن يعلم غيره بها بما يشهد به ، ويخبره به ، ويبينه له .

ورابعها : أن يلزمه بمضمونها ويأمره به » . ا . هـ



[وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا مَزِيدًا] .



■ قوله : «وأشهد أن محمداً» :

هذه هي الشهادة الثانية وهي الإقرار والاعتراف بأن محمداً ﷺ مرسل من عند الله تعالى . فهو المُرْسَل والله المُرْسِلُ ، وقد أرسله سبحانه برسالة وأمره بتبليغها للناس كافة ألا وهي الإسلام والشريعة التي جاء بها وهي هذا الدين العظيم وما يتضمنه من الأوامر والنواهي .

■ قوله : (عبده ورسوله) :

شهادة له بالعبودية والرسالة، وقدّم العبودية لأنها صفة مدح في حقه ﷺ ، فهي من أشرف مقامات العبد مع الله، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد وصفه بها في أشرف مقاماته ﷺ في سورة الإسراء، قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء: ١] .

ثم جاء ذكر « الرسالة» في قوله: (ورسوله) والرسول هو الذي يحمل الرسالة من المرْسِل إلى المُرْسَلِ إليه والمُرسِل هو الله والمُرْسَل إليه هم جميع الناس ، فالله سبحانه وتعالى قد أرسل مع نبينا محمد ﷺ رسالة وأمره بتبليغها لجميع الثقلين الجن والإنس، وهي هذا الدين الذي يدعو الناس إلى أن يعبدوا الله وحده ويطيعوه .

والرسول عند أهل العلم من أوحي إليه بشرع وأمرَ بتبليغه ، ونبينا محمد ﷺ نبي رسول ، فأول ما أنزل عليه قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

. . . .

إلى قوله: ﴿**عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق: ٥] فكان بها نبيًا عليه الصلاة والسلام. ولما نزلت عليه هذه الآيات: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ**﴾ [المدثر: ١، ٢] كان رسولاً مأموراً بالإنذار عليه الصلاة والسلام.

▪ قوله: (**صلى الله عليه**):

الصلاة من الله ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى، كما ذكر ذلك أبو العالية حيث قال رحمه الله: «صلاة الله على نبيه ثناؤه عليه في الملأ الأعلى» رواه البخاري[1]، وهذا هو المعنى الصحيح لذلك.

والله سبحانه وتعالى يثني على عباده الذين يحبهم في ملأ من الملائكة وهم الملأ الأعلى. كما في الحديث القدسي: «**وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**»[2].

وقال بعضهم: إن الصلاة من الله على رسوله معناها الرحمة واستدلوا على ذلك بقوله تعالى في قول الملائكة في آل إبراهيم: ﴿**رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ**﴾ [هود: ٧٣] ولكن هذا القول ضعيف.

والرسول عليه الصلاة والسلام أخذ من هذه الآية قوله في التشهد الأخير: «**اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد**»[3]، فهو ﷺ يشير إلى هذه الآية.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٦٠) في الدعوات. باب: «هل يصلى على غير النبي ﷺ»، ومسلم برقم (٤٠٧) في الصلاة. باب: «الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد».

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧٤٠٥) في التوحيد. باب: «قول الله تعالى: ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ**﴾» [آل عمران: ٢٨]، ومسلم برقم (٢٦٧٥) ٢١ في الذكر والدعاء. باب: «الحث على ذكر الله تعالى»، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) هذه إحدى صيغ الصلاة على النبي ﷺ وقد أخرجها البخاري برقم (٣٣٧٠) عن كعب بن عجرة رضي الله عنه.

. . . .

يعني كما ترحمت عليهم . ولكن الأقرب هو ما ذكره أبو العالية رحمه الله: أن صلاة الله على نبيه ثناؤه عليه في الملأ الأعلى .

أما الصلاة من الملائكة فهي الاستغفار .

وأما الصلاة من الآدمي فهي الدعاء .

■ قوله : (وعلى آله) :

آل النبي ﷺ هم أهل بيته من المؤمنين كزوجاته وبناته ، كما ورد ذلك مفسرًا في حديث أبي حميد الساعدي - رضي الله عنه - في صفة التشهد الأخير أنهم قالوا : كيف نصلي عليك يا رسول الله ؟ فقال : «**قولوا : اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم**»[1] .

فهذا يدل على أن آل النبي ﷺ هم أزواجه وذريته يعني المؤمنين منهم ، وهذا هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية .

وذهب أكثر العلماء إلى أن معنى الآل هم الأتباع ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿**أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾ [غافر : ٤٦] يعني أتباع فرعون .

واستدلوا أيضًا بماروي عن النبي ﷺ أنه قال : « **سلمان منا آل البيت**»[2] مع كونه فارسيًا .

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٦٠) في الدعوات . باب : «هل يصلى على غير النبي ﷺ» ، ومسلم برقم (٤٠٧) في الصلاة . باب : « الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد» .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٩٨) وقال الذهبي في التلخيص : سنده ضعيف . وضعفه الألباني وهو في ضعيف الجامع رقم (٣٢٧٢) .

. . . .

ولذلك قال بعض الشعراء :

آل النبي هم أتباعُ ملته ... من كان من عجمٍ منهم ومن عربِ
لو لم يكن آله إلا قرابته ... صلى المصلِّي على الطاغي أبي لهبِ

وقال أحدهم :

ألا إنما التقوى هي العزُّ والكرم ... وحبُّك للدنيا هو الذُّل والسقم
وليس على عبد تقيٍّ نقيصةٌ ... إذا حقَّقَ التقوى وإن حاك أو حجم

يعني أن الرفعة عند الله ليست بالحب ولا بالنسب ولا بالقرابة من الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولكنها تكون بالتقوى والاتباع .

وكذا قال بعضهم :

لعمرك ما الإنسانُ إلا بدينه ... فلا تترك التقوى اتكالاً على النسبِ
فقد رفع الإسلامُ سلمانَ فارسٍ ... وقد وضع الشركُ الشقيَّ أبا لهبِ

فالحاصل أن آل النبي عليه الصلاة والسلام في الأصل هم أهل بيته وأقاربه من المؤمنين ، وهذا هو القول الصحيح ، ويدخل فيه أيضًا أتباعه على دينه إلى يوم القيامة .

■ قوله : **(وصحبه وسلم)** :

أي أصحابه ، وهم الذين أدركوا النبي ﷺ وآمنوا به واتبعوه وماتوا على ذلك . وقوله : «**وسلم**» : التسليم يعني من الآفات والشرور ونحوها أي أننا ندعو الله تعالى أن يصلي على نبينا محمد ﷺ ، أي يثني عليه في الملأ الأعلى

. . . .

كما تقدم ، وكذلك يسلم عليه ، أي يسلمه ويبرئه من الآفات والعيوب والشرور ونحوها . وهذا هو الأرجح والله أعلم .

وقيل : إنه اسم من أسماء الله تعالى .

■ قوله : (**تسليماً مزيداً**) :

هذا مصدر مؤكد لما قبله أي تسليمًا زائدًا على الصلاة .

❁ ❁ ❁

الفرقة الناجية :

[أَمَّا بَعْدُ ، فَهَذَا اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ؛ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ] .



■ قوله : (أما بعد) :

هي كلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر . و يؤتى بها في الغالب بعد مقدمة الخطب ونحوها .

■ قوله : (فهذا) :

إشارة إلى الشيء الذي تصوره في ذهنه وعزم على إلقائه يعني على قاضي واسط وعلى طلابه ، ثم على كتابته .

■ قوله : (اعتقاد) :

هو ما يعقد عليه الشخص ويدين به ، والاعتقاد في اللغة مشتق من العقد الذي هو إثبات الشيء وإحكامه وتقويته ، أما في الاصطلاح : فهو التصميم الجازم الذي ينشأ عن التصديق الجازم الذي لا يقبل الشك .

■ قوله : (الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة) :

وصفهم بثلاث صفات هي :

الأولى : أنهم ناجون .

والثانية : أنهم منصورون إلى قيام الساعة .

والثالثة : أنهم أهل السنة والجماعة .

. . . .

الفرقة : بكسر الفاء يعني الطائفة من الناس ، وذلك إشارة إلى قلتهم بين الناس ، وأن الذين حولهم منحرفون عن ذلك .

فإن أهل السنة في كل زمان هم الأقلون ، ولذلك سُمُّوا فِرْقَة وقد أخبر النبي ﷺ بذلك في الحديث المشهور : « **لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تعالى وهم كذلك** »(١) .

الناجية أي : من بين الفرق الهالكة الذين ذكرهم النبي ﷺ في قوله : « **وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : الجماعة** »(٢) . وفي رواية : « **من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي** »(٣) ، والحديث له روايات أخرى ، وهو حديث حسن صحيح .

وسميت ناجية ؛ لأنها تنجو من الشرك والبدع والمعاصي في الدنيا ، وتنجو في الآخرة من العذاب .

المنصورة إلى قيام الساعة أي : المؤيدة على من خالفها بالحجة والبيان إلى أن تقوم الساعة ، أي ساعة موتهم . وسميت هذه الطائفة منصورة لأنهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى كما أخبر بذلك النبي ﷺ (٤) .

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩٢٠) في الإمارة . باب : قوله ﷺ : « **لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين** . . » عن ثوبان رضي الله عنه .

(٢ ، ٣ ، ٤) سبق تخريجه .

. . . .

أهل السنة: السنة لغة: الطريقة أو السيرة.

واصطلاحًا لها عدة تفسيرات: **الأول**: هي أحاديث الرسول ﷺ.

و **الثاني**: الأعمال المستحبة أو التي يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها، والمقصود بها هنا هي الطريقة المحمدية التي قال فيها عليه الصلاة والسلام في بيان الفرقة الناجية: « **من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي** »[(١)] .

الجماعة أي: المجتمعون على الحق، ولو كانوا قليلاً بالنسبة إلى غيرهم، ولو كثر أعداؤهم وخصومهم. هؤلاء هم أهل السنة.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في النونية [(٢)] :

هَذَا وسَادسُ عشرها إجماعُ أهـ ... ـلِ الحقِّ أعني شيعة الرضوان
منْ كُلِّ صَاحب سنة شَهِدَتْ لَهُ ... أهْلُ الحديث وعَسْكَرُ القرآن
لا عبرة بمخَالفَ لهم ولو ... كانوا عَديد الشاء والبعران

فقد يوجد من يخالفهم في كثير من الأزمنة، ولكن لا عبرة بهم. وكما قال ابن مسعود رضي الله عنه: « الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك، فإنك أنت الجماعة حينئذ » .

ولهذا لم تفترق هذه الفرقة كما افترق أهل البدع، فأهل البدع كالجهمية متفرقون، والمعتزلة متفرقون، وغيرهم ممن ليس على الحق متفرقون. أما أهل السنة والجماعة فهم دائمًا مجتمعون حتى وإن حصل بينهم خلاف فإنه خلاف لا يؤثر ولا يضر؛ بل يعذر بعضهم بعضًا حيث إنه خلاف بالدليل،

---

(١) سبق تخريجه ص٥٩.

(٢) انظر الكافية الشافية لابن القيم (النونية) ص ١١٩. الأبيات رقم (١٣٢٨، ١٣٢٩، ١٣٣٠).

. . . .

ولا يضلل بعضهم بعضًا ، فتتسع صدورهم لهذا الخلاف .

فأهل السنة والجماعة حقًا هم الذين اعتقدوا واعتمدوا على ما جاءهم عن الله وعن رسوله، وتقبلوه بدون تردد ، ولم يغيروا ولم يبدلوا شيئًا من ذلك ، ولم يبتدعوا ، ولم يجعلوا مرجعهم الأول والأخير هو العقل ، بل جعلوا ما جاء في الكتاب والسنة هو الحكم وهو المرجع وردوا ما خالفه .

ويدخل في أهل السنة والجماعة : الصحابة ، فإنهم أئمة أهل السنة والجماعة ، فإنه لم تظهر فيهم ولا بينهم بدعة .

ويدخل فيهم ـ أيضًا ـ : جلُّ التابعين وهم تلاميذ الصحابة إلا من انحرف منهم ، كالخوارج الذين قاتلهم علي رضي الله عنه ، وهم كلابُ أهل النار[1] ، وكالقدرية مجوس هذه الأمة ، والجهمية وإن كانوا قلة في ذلك الوقت .

ويدخل فيهم أيضًا : جل أتباع التابعين ، فإن أتباع التابعين ـ غالبًا ـ كلهم متمسك بالكتاب والسنة .

وقد كانوا في القرن الثاني ، وأدرك قليل منهم القرن الثالث .

ويدخل فيهم أيضًا : الأئمة الأربعة ؛ الإمام أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد . وهؤلاء كلهم داخلون في مسمى أهل السنة والجماعة ، بل هم أئمة السنة .

ويدخل فيهم أيضًا الأئمة المقتدى بهم ، وهم علماء الأمة ، الذين اشتهرت كتبهم وتلقاها المسلمون بالقبول ، كالإمام البخاري صاحب الصحيح ، والإمام مسلم صاحب الصحيح ، والإمام أبي داود صاحب السنن ،

---

(١) لحديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «الخوارج هم كلاب النار» . أخرجه ابن ماجه برقم (١٧٣) ، وأحمد في المسند (٤/ ٣٥٥) ، والطبراني في الكبير (٨/ ٣٢٤) ، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٣٨) . وانظر المشكاة للألباني (٣٥٥٤) ، والسنة لابن أبي عاصم (٩٠٤) و (٩٠٥) .

. . . .

والإمام الترمذي صاحب السنن ، والإمام النسائي صاحب السنن ، والإمام ابن ماجه صاحب السنن ، وغيرهم كثير من أصحاب الكتب المعروفة ، وتلاميذهم ومشائخهم ، كل هؤلاء من أهل السنة .

قولهم : **السلف أسلم، والخلف أعلم وأحكم**:

ثم بعد ذلك في أكثر القرن الثالث وما بعده ، خبت أصوات السنة وضعفت ، وانتشرت البدع ، وظهر المبتدعة ، وراجت أسواقهم ، فظهرت مقالة خبيثة وانتشرت بين الناس وهو قولهم : **طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم** .

ويقصدون بطريقة السلف : الإيمان بآيات وأحاديث الصفات على ما جاءت عليه ، بدون التعرض لتكييفها ولا تمثيلها ولا تأويلها .

ويريدون بطريقة الخلف الخوض في معانيها وتحريفها (ويسمونه تأويلاً) .

فزعموا أن الخلف أولوها حتى حملوها على محامل مستساغة - في نظرهم - ، وأن السلف سكتوا عن الخوض في معانيها وقرءوها كما جاءت وأبقوها على ما هي عليه .

فيقولون : السلف أسلم ؛ حيث إنهم ما تكلموا بل فوضوا علم ذلك إلى الله، والخلف أعلم وأحكم ؛ حيث أوتوا من العلم ما أزالوا به الشبهة وردوا على المخالف .

والجواب عن ذلك بأن يقال :

إن طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم، فإن السلف ليس كما تظنون أيها المتأخرون يقرءون ألفاظًا جوفاء ليس لها معاني ، بل السلف يقرءونها ويعلمون معانيها ، ويعتقدون مدلولها ، إلا أنهم لا يشبهون الله بخلقه ، ولا

. . . .

يعطلون أسماءه وصفاته ، ولا يقولون : إن ظاهر هذه الأسماء والصفات كفر ، وإنها تقتضي التشبيه ، بل يعرفون أنها دالة على صفات حقيقة ، إلا أنها ليس كصفات المخلوق ، بل هي صفات تليق بالخالق جل وعلا .

فقد شبه هؤلاء المتأخرون السلف الصالح بالأميين الذين قال الله فيهم : ﴿ **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ** ﴾ [البقرة : ٧٨]. يعني إلا تلاوة ، والسلف ليسوا كذلك ، بل عندهم معرفة وفهم وإدراك للحقائق ، ولهذا فإنهم ـ رحمهم الله ـ قرءوا النصوص التي جاءت ، وفهموا معناها ، وبينوها للناس أحسن بيان .

ومن قرأ كتب السلف وأئمة أهل السنة والجماعة عرف ذلك . ولنضرب على ذلك مثلين :

أحدهما : الإمام أبو عمرو عبد الرحمن الأوزاعي وهو عالم جليل من أهل الشام ممن أدرك التابعين . يقول ـ رحمه الله ـ : كنا والتابعون متوافرون نقول بأن الله فوق عرشه ، ونؤمن بما جاءت به الآيات من الصفات .

فهذا دليل على أن أئمة السلف يؤمنون بمدلول هذه الآيات من العلو والفوقية، ونحوها .

والثاني : الإمام أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك العالم الجليل ـ من أهل خراسان ـ قيل له : بماذا نعرف ربنا ؟ فقال رحمه الله : نعرفه بأنه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه كما يليق به ، ولا نقول كما تقول الجهمية .

وهذا دليل آخر على أن السلف كانوا يؤمنون بمدلول هذه الآيات ، وكذلك ما وقع من بعض الأئمة ، لما أتي بمبتدع بل زنديق كان قد عرف بالزندقة ، ثم

. . . .

أظهر التوبة ـ بعد ذلك ـ لما جاء به ليستتيبه .

قال له : أتشهد أن الله على عرشه بائن من خلقه ، فقال ذلك الزنديق : أشهد أن الله على عرشه ، ولا أدري ما بائن من خلقه ، فقال : ردوه إلى السجن، فإنه لم يتب . وأشباه ذلك كثير .

فمن هذا نعرف أن طريقة السلف أعلم وأحكم ، فإنهم يقرءون النصوص ويؤمنون بمعناها ، إلا أنهم ينفون عنها التحريف والتشبيه .

أما الخلف الذين يزعمون أنهم أعلم وأحكم ، فهؤلاء أهل الكلام الذين كثر في مسائل الدين اضطرابهم . أولئك المتكلمون الذين أخذوا أو ورثوا علم الكلام عن اليونان وعن الفلاسفة ، وأخذوا عن أهل الكتاب ونحوهم ، ثم دسوا ذلك في الإسلام ، ثم تقعروا وأطالوا البحث في ذلك ، فكانت نهايتهم الشك والحيرة والاضطراب ، ولهذا قال بعضهم : أكثر الناس شكاً عند الموت أهل الكلام [1] ؛ لأنه يموت أحدهم وهو على غير عقيدة .

روي أن أحدهم دخل عليه بعض العامة وهو على فراش الموت ، فقال : لذلك العاصي : ما تعتقد ؟ فقال : أعتقد أن الله ربي ، وأنه على عرشه ، وأنه بائن من خلقه ، وأنه كذا وكذا .

عند ذلك قال له ذلك المتكلم : هنيئًا لك ، لكني والله ما أدري ما أعتقد؟! وأخذ يكرر ويردد قوله : ما أدري ما أعتقد حتى غشي عليه ومات وهو لا يدري ماذا يعتقد ، ومثله ما نقل عن الجويني صاحب « الورقات» ، أنه قال :

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتوى الحموية الكبرى ص ١٥ .

. . . .

لقد خضت البحر الخضم ، وتركت أهل الإسلام وعلومهم ، وخضت في الذي نهوني عنه ، والآن إن لم تدركني رحمة ربي فالويل لي ، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي[1] . وفي رواية : وها أنا أموت على عقيدة عجائز نساء نيسابور . لأنه من أهل نيسابور في إيران .

ومثلهم أبو حامد الغزالي المشهور صاحب كتاب إحياء علوم الدين ، هذا العالم كان في أول أمره مشتغلاً بالفلسفة وعلم الكلام ، حتى تمكن ذلك العلم منه ، وفي أواخر حياته أراد التخلص منه فصعب عليه ذلك ، مع أنه ردَّ على الفلاسفة في كتاب مطبوع بعنوان (تهافت الفلاسفة) ، ولكنه خاض في علم الفلسفة فبقي في قلبه شيء من آثار تلك العلوم التي خاض فيها . ثم ندم فيما بعد على اشتغاله بتلك العلوم ، وقد ذكروا أنه ـ رحمه الله ـ مـــات ، وصحيح البخاري على صدره ، ونرجو من الله تعالى أن يتوب عليه .

ومثله أيضًا الفخر الرازي صاحب التفسير الكبير المشهور ، وله أيضًا كتاب في العقيدة اسمه « تأسيس التقديس » الذي رد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب اسمه « نقض التأسيس » .

فهذا العالم الكبير المشهور كان قد تبحر وتقعر في علم الكلام ، وبحث فيه وخاض غماره ، حتى وقع فيما وقع فيه من قبله .

---

(١) أورده شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتوى الحموية الكبرى ص ١٥ .

. . . .

يقول : « لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تروي غليلاً ، ولا تشفي عليلاً ، ورأيتَ أقرب الطرق هي طريقة القرآن ، اقرأ في الإثبات : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ [طه : ٥] ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** ﴾ [القصص : ٨٨]، واقرأ في النفي : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى : ١١] ، ﴿ **وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا** ﴾ [طه : ١١٠] ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي » ثم قال :

نهاية إقدام العقول عقالُ ... وأكثر سَعْيِ العالمين ضلالُ

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طولَ عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا[١]

فعرفنا بذلك أن هؤلاء الذين يزعمون أن طريقة السلف أسلم وطريقتهم أعلم وأحكم ، أنهم هم أهل الحيرة والشك ، وأهل الريب والتردد ، فطريقة السلف هي الجامعة للأوصاف كلها ، فهي الأسلم والأعلم والأحكم .

والسلف رحمهم الله هم الذين ورثوا العلم ، وورثوا العمل ، وورثوا العقائد الصحيحة عن الصحابة والتابعين ، فكانت عقائدهم سليمة صافية كما جاءت في الكتاب والسنة .

وليس العجب ممن هلك كيف هلك ، وإنما العجب ممن نجا كيف نجا .

---

(١) أورده شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتوى الحموية الكبرى ص ١٥ .

. . . .

فعرفنا بذلك أن طريقة السلف هي التمسك بالوحيين ، والسير على منهاجهما سواءً في القول أو في العمل .

ثم طريقتهم بلا شك هي المثمرة ، فإنك متى عرفت الله تعالى بأسمائه وصفاته ، كانت النتيجة من ذلك أنك تطيعه ، وأنك تعبده ، ومتى عرفت الرسل ووظائفهم ، كان نتيجة هذه المعرفة هي أنك تتبعهم وتسير على نهجهم، ومتى عرفت القرآن وحرمته ، وأنه منزل من لدن حكيم حميد ، كان نتيجة ذلك أنك تتلوه حق تلاوته ، وتصدق ما جاء فيه من الأخبار السابقة واللاحقة وأحكامه .

فطريقة السلف هي المثمرة لسعادة الدارين ، أما طريقة هؤلاء فإنها تضعف تصديقهم بالأمور الغيبية ، فيقل انتفاعهم بالقرآن والسنة ، فتقل أعمالهم وامتثالهم لأوامر الله ؛ لأن الأعمال تعتمد على العقيدة ، فإذا كانت العقيدة راسخةً في القلوب ، أثر ذلك في الجوارح ، فعملت بطاعة الله، ومتى رأيت من يعصي الله ويجاهر بذلك ، فإن ذلك يدل على ضعف عقيدته ، وأنه ما عرف الله حق معرفته بآياته ومخلوقاته ، ما عرف عظمة من يعصيه ، ما عرف الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وكماله وجلاله وكبريائه وعظمته ، ما عرف واعتقد أن الله يثيب الطائع ويعذب العاصي . أو أنه عرف ذلك ولكنه لم يستحضره، وذلك لضعف عقيدته ولضعف إيمانه .

فعرفنا بذلك أهمية معرفة العقيدة الصحيحة السلفية ، عقيدة السلف الصالح، وأن أصحاب هذه العقيدة هم أهل السنة والجماعة ، وهم الفرقة

. . . .

الناجية والطائفة المنصورة الفائزة بسعادة الدارين ، الناجية من العذاب يوم القيامة ، والمنصورة في الدنيا قبل الآخرة. نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم ، وأن يحشرنا في زمرتهم، إنه ولي ذلك والقادر عليه .



أركان الإيمان الستة

[وَهُوَ الإِيمَانُ باللَّهِ ، وَمَلائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ ، وَالإِيمَانُ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ] .



■ قوله: (وهو الإيمان بالله، وملائكته ...):

بعدما ذكر المصنف رحمه الله هذه المقدمة الموجزة، شرع في ذكر أركان الإيمان على وجه الإجمال، فذكر الأركان الستة المشهورة والتي ذكرها الله في القرآن في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

هذه خمسة أركان، والسادس ذكره الله في قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقد ذكرها النبي ﷺ في سنته في حديث جبريل المشهور عندما سأله عليه السلام عن الإيمان، فقال رسول الله ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»(١) .

---

(١) حديث جبريل أخرجه مسلم مطولاً من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه برقم (٨) في الإيمان، باب: «بيان الإيمان والإسلام والإحسان...» وهو متفق عليه بنحوه مختصراً من حديث أبي هريرة. أخرجه البخاري برقم (٥٠)، ومسلم برقم (٩).

. . . .

الركن الأول : الإيمان بالله :

الإيمان: لغة : هو التصديق الجازم .

وشرعًا : هو قول باللسان، واعتقاد بالجنان ، وعمل بالجوارح والأركان .

وحقيقة الإيمان بالله هو بأن تعتقد اعتقاداً جازمًا بوجود الله تعالى ، وبأنه هو المتفرد بالربوبية والألوهية والأسماء الحسنى والصفات العلى ، ليس كمثله شيء سبحانه وتعالى ، فتؤمن بأن الله سبحانه وتعالى موجود ، وأنه هو المتفرد بالخلق والرزق والملك والتدبير ، وأنه هو المنعم الحقيقي سبحانه وتعالى .

ثم كذلك : تعتقد اعتقاداً جازمًا بأن الله هو الإله الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، فهو المستحق للعبادة وحده لاشريك له ، ولا يجوز صرف نوع من أنواع العبادات لغيره فلا تصح العبادة إلا له جل وعلا .

ثم كذلك تعتقد اعتقادًا جازمًا بأن الله تعالى هو المتفرد بالأسماء الحسنى التي سمى بها نفسه في كتابه ، أو سماه بها رسوله ﷺ في سنته وأنه كذلك متفرد بالصفات العلى التي وصف بها نفسه في كتابه ،أو وصفه بها رسوله في سنته، وأن هذه الأسماء والصفات على حقيقتها . وبهذه الأمور يكون العبد قد حقق الإيمان المطلوب .

الركن الثاني : الإيمان بالملائكة :

أي أن تعتقد اعتقادًا جازمًا بوجود الملائكة بأسمائهم وأعمالهم التي وصفهم الله بها في كتابه ، ووصفهم بها رسوله ﷺ في سنته .

. . . .

ومن أكبر أوصافهم : ما ميزوا به من القوة الشديدة . وقد ذكر الله بعض الملائكة بأسمائهم في القرآن الكريم ، منهم جبريل وميكال في قوله تعالى : ﴿ **مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة : ٩٨] . وذكر مالكًا عليه السلام خازن النار في قوله تعالى : ﴿ **وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ** . . . ﴾ [الزخرف : ٧٧] .

وذكر النبي ﷺ في سنته بعض الملائكة بأسمائهم منهم جبريل وميكال وإسرافيل في قوله ﷺ في دعاء الاستفتاح في قيام الليل : « **اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل** »[١] الحديث .

ومنكر ونكير ذكرهما ﷺ في حديث عذاب القبر في قوله ﷺ : « **فيأتيه منكر ونكير** »[٢] .

وأما ملك الموت الموكل بقبض أرواح العباد فلم يثبت عن النبي ﷺ بسند صحيح ولا حسن أن اسمه عزرائيل .

وأما عن أعمال الملائكة ووظائفهم فهي كثيرة جداً ، فما من حركة عظيمة في السماء ولا في الأرض ـ كحركات الأفلاك والشمس والقمر والسحاب والنبات ـ

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٧٧٠) في صلاة المسافرين . باب : «الدعاء في صلاة الليل وقيامه» . عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها .

(٢) أخرجه الترمذي برقم (١٠٧١) في الجنائز ، باب : «ما جاء في عذاب القبر» . وابن أبي عاصم في السنة (٨٦٤) . عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال الترمذي : حديث حسن غريب . وصححه الحاكم (٧٨٠) . وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٩١) : إسناده جيد ، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم . وفي ابن إسحاق وهو العامري القرشي مولاهم كلام لايضر . وقال في تحفة الطحاوية (٥٢٨) : إسناده حسن . وفيه رد على من أنكر من المعاصرين تسمية الملكين بـ : «المنكر» و«النكير» . وانظر المشكاة (١٣٠) .

. . . .

إلا وتصدر من الملائكة بأمر الله تعالى ، ونذكر بعضهم على وجه الاختصار ، فمنهم :

١ ـ جبريل أو جبرائيل عليه السلام : وهو الموكل بالوحي من الله تعالى إلى رسله عليهم الصلاة والسلام ، قال تعالى : ﴿ **نزل به الروح الأمين (١٩٣) على قلبك لتكون من المنذرين** ﴾ [الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤] .

٢ ـ ومنهم مكيائيل أو ميكال عليه السلام : وهو الموكل بالقطر ـ المطر ـ من السماء ، فقد سأل النبي ﷺ جبريل ، فقال له : « **على أي شيء ميكائيل ؟ قال : على النبات والقطر** »[1] أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس .

٣ ـ ومنهم إسرافيل ـ عليه السلام ـ : وهو الموكل بالنفخ في الصور ، ينفخ فيه ثلاث نفخات . قال رسول الله ﷺ : « **كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له ؟** »[2] رواه أحمد والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري .

٤ ـ ملك الموت وأعوانه ـ عليهم السلام ـ وهو الموكل بقبض الأرواح ، قال تعالى : ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم** ﴾[السجدة : ١١] الآية .

٥ ـ ومنهم الملائكة المعقبات : وهم الموكلون بحفظ العبد في جميع

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٣٧٩ ، ٣٨٠) رقم (١٢٠٦١) ، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤٣٢ ، ٤٣٣) ، وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٢) ، وقال : فيه محمد بن أبي ليلى وقد وثقه جماعة ولكنه سيئ الحفظ ، وبقية رجاله ثقات .

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٣١) في صفة القيامة . باب : «ما جاء في شأن الصور» . وأحمد في المسند (٣/ ٧) وقال الترمذي : حسن .

. . . .

الأحوال قال تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١] الآية .

٦ ـ ومنهم الكرام الكاتبون : وهم الموكلون بحفظ وكتابة عمل العبد من خير أو شر ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢] وقال: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٧ ، ١٨].

٧ ـ ومنهم منكر ونكير : وهم الموكلون بفتنة القبر .

٨ ـ ومنهم خزنة الجنة : ومقدمهم رضوان عليه السلام : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣ ، ٢٤].

٩ ـ ومنهم خزنة جهنم : ومقدمهم مالك عليه السلام . قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ ... ﴾ [غافر: ٤٩] الآية .

وقال تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر: ٣٠].

١٠ ـ ومنهم حملة العرش: وهم الذين يحملون العرش بأمر الله تعالى . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ... ﴾ [غافر: ٧] الآية .

. . . .

وقـال: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

١١ ـ ومنهم ملك الجبـال: وهو الملك الموكل بالجبـال الذي ورد في الحديث المشهور في دعوة النبي ﷺ لأهل الطائف فقال ملك الجبال للنبي ﷺ: «**إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ؟**»[1].

١٢ ـ ومنهم الملائكة السياحون، الذين يتتبعون مجالس الذكر فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنـادوا: «**هلموا إلى حاجتكم...**»[2] كما في الحديث. وفي قول النبي ﷺ في الحديث المشهور: «**وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ... إلى قوله: وحفتهم الملائكة**»[3]. الحديث رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

وغيرهم من الملائكة الكرام ـ عليهم السلام ـ ممن لم يطلعنا الله ولا رسوله ﷺ على وظائفهم، فيجب علينا أن نؤمن بهم على وجه الإجمال، ونؤمن بمن ذكرنا أسماءهم على وجه التفصيل.

(١) رواه البخاري برقم (٣٢٣١) في بدء الخلق، باب: «إذا قال أحدكم آمين...». ومسلم برقم (١٧٩٥) في الجهاد والسير، باب: «ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين» عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه البخاري برقم (٦٤٠٨) في الدعوات، باب: «فضل ذكر الله عز وجل». ومسلم برقم (٢٦٨٩) في الذكر، باب: «فضل مجالس الذكر». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٩) في الذكر والدعاء، باب: «فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر».

. . . .

وجميعهم: ﴿**عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧] ﴿**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿**لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦].

الركن الثالث: الإيمان بالكتب:

يعني الإيمان بكتب الله التي أنزلها على رسله. والكتب: جمع كتاب، وهو يدل على معنى الجمع والضم ومنه سميت الكتيبة بذلك.

والمراد بها هنا: الكتب التي أنزلها الله على رسله ليبلغوها للناس، وقد تكلم الله بها حقيقة، فيجب الإيمان بما سمى الله منها على وجه التفصيل، وهي صحف إبراهيم والتوراة والإنجيل والزبور والقرآن.

ويجب الإيمان بما لم يسم الله منها على وجه الإجمال.

وكذلك يجب الإيمان بالرسل الذين أنزلت معهم هذه الكتب، وهم كالتالي:

١ - **إبراهيم** - عليه الصلاة والسلام - وقد أنزلت عليه الصحف العشر الأولى.

٢ - **موسى** - عليه الصلاة والسلام - وقد أنزلت عليه التوراة.

٣ - **عيسى** - عليه الصلاة والسلام - وقد أنزل عليه الإنجيل.

. . . .

---

٤ ـ **داود** ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد أنزل عليه الزبور .

٥ ـ **محمد** ﷺ وقد أنزل عليه القرآن الكريم .

الركن الرابع : الإيمان بالرسل :

أي الإيمان بأن الله تعالى أرسل رسلاً إلى الناس وأنزل معهم الشرائع ، وفرض طاعتهم والتصديق بما جاءوا به من الحق ، وأنزل عليهم الكتب وهي من كلامه سبحانه وتعالى .

فيجب الإيمان بهم على وجه الإجمال ، والإيمان بمن سمى الله منهم على وجه التفصيل ، وقد ذكر الله تعالى منهم في القرآن الكريم خمسة وعشرين فردًا ، وورد في السنة أن عدد الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر ، وأن عدد الأنبياء يزيد على العشرين ألفًا ، كما ورد ذلك في حديث(١) .

ويجب الإيمان بأن كل نبي ورسول كان يبعث إلى قومه خاصة ، وأن نبينا محمدًا ﷺ بعث إلى الناس عامة ، لقوله ﷺ : «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**»(٢) . وقال تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ [الأعراف : ١٥٨] الآية . وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ**

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٧٨ ، ١٧٩) ، وهو من رواية عبيد بن الخشخاش عن أبي ذر . قال البخاري : ولم يذكر سماعًا من أبي ذر .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٣٥) في التيمم، باب: «١» . ومسلم برقم (٥٢١) في المساجد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

. . . .

إلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨].

ويجب الإيمان بأنه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين لقوله تعالى: ﴿ **وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وغيرها من الآيات، ولقوله ﷺ: « **أنا خاتم النبيين** »[١] ، وفي لفظ: « **جئت فختمت الأنبياء** »[٢] .

وكما نؤمن بأنه خاتم النبيين فإننا نؤمن بأن شريعته خاتمة الشرائع، وأن دينه خاتم الأديان، وبه نسخت جميع الأديان، ولا يقبل الله من أحد دينًا إلا هو، قال تعالى: ﴿ **وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣]، وقال: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وكذا القرآن الكريم، فإن الله أنزله مهيمنًا على الكتب السابقة، قال تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** ﴾ [المائدة: ٤٨]. الآية.

ويجب الإيمان بأن الأنبياء والمرسلين ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ كغيرهم من سائر البشر، يعتريهم ما يعتري البشر من الأمراض والشهوات،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٥٣٥) في المناقب، باب: «خاتم النبيين». ومسلم برقم (٢٢٨٦) [٢٢] في الفضائل، باب: «ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين» عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٢٨٧) في الفضائل. عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

. . . .

وأنهم يتزوجون، ويأكلون الطعام ، ويمشون في الأسواق ، وأنهم لا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

وغير ذلك من الأمور المعروفة .

الركن الخامس : الإيمان بالبعث :

البعث في اللغة: هو الإثارة والتحريك .

وفي الاصطلاح : هو إخراج الناس من قبورهم أحياء يوم القيامة للقضاء والجزاء .

ولم يقل المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ : (الإيمان باليوم الآخر)، كما ورد في الحديث ، وذلك ـ والله أعلم ـ لأن اليوم الآخر قد يقر به بعض الناس مع عدم إقراره بالبعث الحقيقي للأجساد بعد الموت ، كبعض الفلاسفة ؛ حيث إنهم يؤمنون باليوم الآخر ، ولكنهم لا يقرون بالبعث الحقيقي الذي هو بعث الأجساد وحشرها ونشرها ، لأنهم يزعمون أن البعث والجزاء والحساب يكون على الأرواح فحسب ، وأن الأجساد لا تبعث مرة أخرى ؛ لأنها قد بليت .

فيجب الإيمان والتصديق الجازم بأن الله يبعث الناس من قبورهم أحياءً يوم القيامة ، ليجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، أو يعفو عنه سبحانه وتعالى ،وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى .

. . . .

الركن السادس : الإيمان بالقدر خيره وشره :

القدر : لغة : هو الإحاطة بمقادير الأمور .

واصطلاحًا : هو علم الله تعالى بمقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها ثم إيجادها .

فيجب الإقرار والتصديق الجازم بعلم الله الأزلي الشامل لكل ما كان ويكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون .

فهو سبحانه العليم الذي شمل علمه الغيب والشهادة ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض .

وهو الحكيم الذي يحكم الأمور ويتقنها ، ويضع الأمور في مواضعها ، قال تعالى : ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً** ﴾ [الفرقان : ٢] .

وسيأتينا الكلام مفصلاً عن القدر وعن مراتب القدرعند قول المؤلف رحمه الله تعالى : (وتؤمن الفرقة الناجية ـ أهل السنة والجماعة ـ بالقدر خيره وشره ، والإيمان بالقدر على درجتين . . .) إلى آخر كلامه رحمه الله .

فهذه الأركان الستة ـ وهي أركان الإيمان ـ من الأمور الغيبية التي يجب على المؤمن أن يعتقد وجودها ، ويقرّ بها إقرارًا كاملاً ، ومن أنكرها أو أنكر واحدًا منها فهو كافر بالله العظيم ، قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ**

. . . .

وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ [النساء: ١٣٦].

والبحث في ذلك معرفة وتفصيلاً يسمى بعلم العقائد، فمنه ما يتعلق بالتوحيد بأنواعه الثلاثة، ومنه ما يتعلق بالشرك وأنواعه الثلاثة، ومنه البحث فيما يتعلق باليوم الآخر وتفاصيله؛ لأنه من الأمور الغيبية، ومنه البحث في أخبار الأمم السابقة، يعني معرفة ما أخبر الله به وأخبر به رسله عن الأمم السابقة، ودعوة رسلهم لهم وما حلّ بهم من العذاب لعصيانهم وتكذيبهم.

فهذه الأمور مما لا يعلمها إلا الله، فإذا جاءت في الكتاب والسنة فيجب علينا التصديق بها، فصارت من العقائد الغيبية. وكذلك معرفة أركان الإيمان الستة التي مضى الكلام عليها، وهكذا كلام العلماء - رحمهم الله - في القرآن، وأنه كلام الله . . . إلخ. كل ذلك داخل في العقائد، وقد سمي بعلم العقائد؛ لأنه مما يعقد عليه القلب، فيثبت فيه ولا يتزعزع؛ لأن العقد هو الشد والإحكام والربط.

ثم ركز الأئمة في تصانيفهم في العقائد على الصفات - صفات الله سبحانه - وذلك لكثرة الخلاف فيها، وإن كان قد حصل الخلاف في غيرها مما ذكرناه أو لم نذكره، فوقع الخلاف في البعث بعد الموت مع الفلاسفة، ووقع الخلاف في الأسماء والصفات مع المعتزلة والجهمية والأشاعرة ونحوهم. وسيأتينا تفصيل ذلك فيما يلي.

❁ ❁ ❁

مذهب أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته إجمالاً

[وَمِنَ الإِيمَان بِاللَّهِ الإِيمَـانُ بِمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَـهُ رَسُـولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيـفٍ وَلا تَعْطِيـلٍ ، وَمِنْ غَيْـرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ ،بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾] [الشورى: ١١].



■ قوله: (ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه، وبما وصفه رسوله محمد ﷺ):

هذا الكلام يتعلق بمسألة الإيمان بالصفات ، فإن منهج أهل السنة في ذلك أنهم يثبتون من الصفات ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه ، وما أثبته له رسوله ﷺ في سنته ، بخلاف الذين جحدوا صفات الله تعالى؛ كالجهمية وغيرهم من المبتدعة ، فجحدوا أن الله سميعٌ ، وأنه بصير ، وأنه عليم ، وأنه متكلم ، وأنه. . . إلخ .

فقالوا : سميع بلا سمع ، عليم بلا علم ، بصير بلا بصر . . . إلخ .

ووصفوه بالعدم المحض، فرد عليهم أهل السنة والجماعة ، وقالوا لهم : إنكم لم تؤمنوا بإله معبود موصوف بصفات الكمال ، بل آمنتم بإله معدوم ليس له صفات ، والواجب عليكم أن تثبتوا ما أثبته لنفسه من الصفات العلى، وتنزهوه سبحانه عن النقص .

فإن صفات الله تعالى مصدرها الكتاب والسنة، فإن الله تعالى أعلم

. . . .

بنفسه، ورسولُه ﷺ أعلم بمن أرسله، وهو الله تعالى فلا يثبت له من الصفات إلا ما أثبتها لنفسه .

وإذا آمنا بالصفات فيجب علينا الإيمان بمدلولها ، فإذا آمنا بأن الله سميع عليم ، حَمَلَنَا ذلك على أن نخافه ولا نعصيه ، لأنه يسمع ويعلم مانقول ونعمل .

وإذا آمنا بأن الله بكل شيء عليم ، حملنا ذلك على أن نطيعه ونعبده حق عبادته ، ولا نفرط في ذلك ؛ لأنه عالم بكل تصرفاتنا وأحوالنا سبحانه . قال تعالى : ﴿ **وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ** ﴾[ق: ١٦] فيكون المؤمن خائفًا من محاسبة الله له على ما يجول في نفسه ، وما توسوس به نفسه .

وإذا آمنا بأن الله بصير، حملنا ذلك على خشيته في السر والعلانية، في الغيب والشهادة ؛ لأنه يرانا على كل حال ، فكيف نعصيه مع علمنا باطلاعه علينا ، وأنه يرانا سبحانه . قال تعالى : ﴿ **الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ** ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩].

وإذا آمنا بأن الله على كل شيء قدير، حملنا ذلك على أن نخافه أشد الخوف، لأننا نعلم أنه قادر على أن يعذبنا ، وقادر على أن يبطش بنا ، فهو - سبحانه - قادر على أن ينتقم ممن عصاه ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

وهكذا آثار هذه الصفات نؤمن بها ، ونتجنب طريق الذين يحرفونها

. . . .

ويلحدون فيها ، ويكيفون أو يشبهون ، أو يعطلون أو نحو ذلك .

■ قوله : **(من غير تحريف ولا تعطيل)** :

التحريف : هو تغيير اللفظ عن ظاهره ومدلوله ، وهو على قسمين :

الأول : تغيير اللفظ عن ظاهره مثل قوله تعالى : ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾ [طه : ٥] . قالوا : إن معنى « استوى» أي استولى ، فزادوا حرفًا ، وكقوله تعالى : ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ**...﴾ [الفجر : ٢٢] الآية ، قالوا : معناها وجاء أمر ربك فزادوا كلمة . فهذا كله من التحريف الذي ما أنزل الله تعالى به من سلطان .

النوع الثاني : تحريف المعنى وهو صرفه عن حقيقته ، كقول بعض المبتدعة : إن معنى الرحمة : إرادة الإنعام ، أو قولهم : إن اليد معناها النعمة والقدرة .

وهم يسمون كل ذلك تأويلاً ، ويعرفون التأويل بأنه : صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح بدليل يقترن به ، ولكنه في الحقيقة تحريف ، ويدخل في قوله تعالى : ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ**﴾ [النساء : ٤٦] ويكون فاعله قد شابه اليهود في تحريفهم للتوراة ، فيعرض نفسه لغضب الله تعالى ، ولكنه لا يكفر إلا إذا جحد أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة . فأهل السنة يتجنبون هذا التحريف الذي سماه أهله تأويلاً .

. . . .

والتعطيل : هو الإخلاء ، فكأنهم ـ المعطلة ـ أخلوا الله تعالى من أسمائه الحسنى أو من مدلولها ، حيث أثبتوا الأسماء ونفوا ما تضمنته من الصفات ، فقالوا : إنه سبحانه : سميع ، ولكن بدون سمع ، وبصير بلابصر ، وعليم بلا علم ، فكأنهم بفعلهم ذلك نفوا الأسماء والصفات جميعًا .

وأما أهل السنة فإنهم يثبتون لله تعالى جميع الأسماء الحسنى والصفات العلى ، التي أثبتها الله لنفسه في كتابه وأثبتها رسوله ﷺ في سنته على حقيقتها كما يليق بالله تعالى .

■ قوله : (**ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**) :

التكييف : هو جعل كيفية للشيء ، فقد جعل المكيفون لصفات الله تعالى كيفية محددة معلومة ، ويقولون : إنهم علموا كيفية الصفات التي أخبرهم عنها سبحانه في كتابه .

وأهل السنة لا ينفون وجود كيفية لصفات الله تعالى ، ولكنهم ينفون العلم بالكيفية ؛ لأن الله تعالى لم يطلعنا عليها .

وكذلك فإن أهل السنة ينكرون على من سأل عن الكيفية مجرد سؤال ، ولذلك ورد عن الإمام مالك رحمه الله أنه سُئل عن كيفية الاستواء ، فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول . . . إلخ ، وأمر بذلك السائل فأخرج من مجلسه .

والتمثيل : هو إثبات مماثلة الله للمخلوقين بشيء من صفاته ، وقد رد الله

. . . .

تعالى عليهم بقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] .

فقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ فيه رد على الممثلة الذين يمثلون صفات الله بصفات خلقه . وقوله : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ رد على المعطلة النفاة ، الذين نفوا صفات الله تعالى .

والمقصود أن إثبات أهل السنة للصفات على حقيقتها لا يقتضي التشبيه ولا التمثيل ولا التكييف ولا التعطيل ، لأنهم أثبتوا ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ووصفوا الله تعالى بأنه لا سمي له ، ولا شبيه له ، ولا ند له ، ولا يقاس بخلقه ، ووصفوه بأنه أصدق قيلاً ، وأحسن حديثًا من خلقه ، وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وكذلك فإن نفي أهل السنة عن الله تعالى مشابهة المخلوقين لا يعني تعطيل أسماء الله وصفاته كما فعله المعطلة ؛ لأن الله تعالى أعلم بنفسه وأعلم بغيره ، فإذا وصف نفسه فهو أعلم بما وصفها به، وكذلك رسوله ﷺ هو أصدق الناس ، والله تعالى الذي أرسله هو أعلم به ، فقد اختاره واصطفاه من عباده لتبليغ رسالته .

والحاصل أن القاعدة الجامعة لمذهب أهل السنة ؛ هي أنهم يثبتون أسماء الله وصفاته على حقيقتها كما يريد الله تعالى ، من غير وقوع في التحريف أو التعطيل أو التكييف أو التمثيل .

وكذلك فإنهم كما يثبتون الأسماء والصفات، فإنهم يثبتون مدلولها

. . . .

وأثرها على العبد ، فإذا أثبتنا أن الله تعالى سميع ، فلابد من إثبات صفة السمع له سبحانه ، وإذا أثبتنا له جل وعلا هذه الصفة ، فإنه يجب علينا أن لا ننطق ولا نتكلم إلا بخير ، لعلمنا واعتقادنا بأن الله سميع ، وكذلك فإننا ندعوه تعالى بهذا الاسم بإخلاص وصدق ويقين ، وكذلك إذا آمنا بأن الله رحيم يرحم عباده ، فإننا نرجو رحمته وندعوه بذلك ، وإذا آمنا بأن الله قدير ذو قدرة عظيمة ، فإننا نجتنب ونبتعد عن معاصيه، لأنه قادر سبحانه على أن يبطش بنا ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالى . وإذا آمنا بأنه سبحانه يغضب إذا انتهكت محارمه ، فإن ذلك يجعلنا حذرين من أسباب غضبه التي أخبر عنها وحذرنا منها ، وهي في الجملة معصية أمره ، والإصرار على ذلك . وهكذا إذا آمنا بأنه يلعن من يشاء من أهل معصيته ثم يعذبه عذابًا عظيمًا ، كقوله : ﴿ **وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٩٣] ، ﴿ **وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾ [الفتح: ٦] .

إذا آمنا بذلك، دفعنا إيماننا إلى الابتعاد عن أسباب اللعن وأسباب العذاب، وإذا آمنا بأن الله يرضى عن عباده المؤمنين كقوله : ﴿ **رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ** ﴾ [البينة: ٨] دفعنا ذلك إلى عمل الصالحات ابتغاء مرضاة الله ، ودعائه سبحانه بأن يرضى عنا بأن يقول الواحد منا في دعائه : اللهم إني أسألك رضاك والجنة ، وأعوذ بك من سخطك والنار ، وما أشبه ذلك .

. . . .

وهكذا في بقية الصفات يجب علينا أن نثبت آثارها في العباد ، وبذلك تتضح أهمية العقيدة ، وأهمية دراسة الأسماء والصفات ، وذلك لما تتركه من أثر بليغ على من درسها وتأمل في معانيها .



[فَلا يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلا يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ ، وَلاَ يُكَيِّفُونَ وَلا يُمَثِّلُون صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ] .



الشرح

هذا الكلام هو خلاصة مذهب أهل السنة في أسماء الله وصفاته .

■ قوله : **(فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه)** :

أي أنهم لا ينفون عن الله سبحانه وتعالى ما وصف به نفسه في كتابه الكريم ، أو ما وصفه به رسوله ﷺ في سنته المطهرة من الصفات العلى ، كما فعل ذلك المعطلة ، بل يثبتون له ما أثبته لنفسه ، وأثبته له رسوله ﷺ من الصفات ، ولكن كما يريد سبحانه ، وكما يليق بكماله وجلاله .

■ قوله : **(ولا يحرفون الكلم عن مواضعه)** :

أي كما أنهم لا ينفون الصفات بالكلية ، فإنهم كذلك لا يلجأون إلى تغيير كلام الله تعالى وإمالته عن موضعه ومعناه الصحيح ، بل يثبتونه ، وذلك بإمرار النصوص وإثباتها على ظاهرها، وإمرار الصفات كما وردت ، من غير تغيير لها أو لمعانيها كما قال غيرهم - مثلاً - في قوله تعالى : ﴿ **وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا** ﴾ [الفجر : ٢٢] يقولون : إن معناها : «وجاء أمر ربك» ، وفي قوله تعالى : ﴿ **وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** ﴾ [النساء : ١٦٤] قالوا المعنى أن موسى هو الذي كلم الله ، فجعلوا « موسى» هو الفاعل ، ولفظ الجلالة «الله» هو

. . . .

المفعول به . وقال بعضهم : بل المعنى أن الله تكلم في الشجرة ، فتكلمت الشجرة مع موسى ونحو ذلك . وكقولهم في قوله تعالى : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] قالوا: قوته ونعمته .

وغير ذلك من الآيات والصفات التي حرفها هؤلاء .

وأما أهل السنة فإنهم يثبتون جميع الصفات ويمرونها كما جاءت ، فيقولون في قوله تعالى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] : هو مجيء الله سبحانه وتعالى بذاته للفصل بين العباد ، وهو مجيء حقيقي ، ولكنه يليق بكماله وجلاله .

ويقولون في قوله : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]: إن الله تعالى هو الذي كلم موسى، وأن هذا الكلام بحرف وصوت مسموع ، ولكن كما يليق بكماله وجلاله .

ويقولون في قوله تعالى : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]: إن لله تعالى يداً حقيقية تليق بكماله وجلاله ، لا تشبه أيدي المخلوقين ، ولا يعلم كيفيتها إلا الله عز وجل .

■ وقوله: (**ولا يلحدون في أسماء الله وآياته**) :

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ : والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها . اهـ[1] .

---

(١) بدائع الفوائد ص١٦٩ .

. . . .

ثم ذكر أنواع الإلحاد في أسماء الله تعالى ، فقال ما ملخصه :

أحدها : أن يسمي الأصنام بها ، كتسميتهم اللات من الإله ، والعزى من العزيز .

الثاني : تسميته بما لا يليق بجلاله ، كتسمية النصارى له أبًا .

الثالث : وصفه تعالى بالنقائص ، كقول اليهود عنه : إنه فقير - تعالى الله عن قولهم - .

الرابع : تعطيل الأسماء عن معانيها ، وجحد حقائقها ، كقول الجهمية : سميع بلا سمع ، عليم بلا علم ، وبصير بلا بصر . . . إلخ .

الخامس : تشبيه صفاته بصفات خلقه ، كقولهم : إن يد الله كأيدينا ، وسمعه كسمعنا ، ونحو ذلك .

وأما **الإلحاد في الآيات** : فهو الميل بها عن المعنى المراد ، يعني عن مقصود الله تعالى بها .

فأهل السنة بريئون من الإلحاد في أسماء الله تعالى ، ومن الإلحاد في آياته سبحانه .

▪ قوله : (**ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه**) :

قد تقدم الكلام على ذلك مفصلاً .

. . . .

والخلاصة أنهم ينفون علم كيفية الصفات عن المخلوقين ، وكذلك فإنهم يمنعون من السؤال بكيف عن صفات الله تعالى ، ولا يمثلون ولا يشبهون صفات الله تعالى بصفات خلقه ، فلا يقولون مثلاً : إن يد الله تشبه أيدينا ، أو تشبه يد فلان أو فلان . . . إلخ .



[لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لا سَمِيَّ لَهُ وَلا كُفْؤَ لَهُ وَلا نِدَّ لَهُ ، وَلا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وأَصْدَقُ قِيــــلاً ، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ].


الشرح

بعدما ذكر المصنف رحمه الله منهج أهل السنة في الأسماء والصفات ، وأنهم يثبتون لله تعالى الأسماء الحسنى والصفات العلى على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى ، إثباتًا بلا تشبيه ولا تمثيل ، وينفون عنه النقائص والعيوب ، نفيًا بلا تحريف ولا تعطيل ، علل ذلك المنهج المتوازن بالثناء على الله تعالى ، وأنه ليس كمثله شيء في أسمائه وصفاته .

■ قوله : (لأنه سبحانه لا سمي له) :

أي لأنه سبحانه وتعالى لا نظير يساميه. قال تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] .

■ قوله : (ولا كفؤ له) :

أي لا مكافئ ومماثل له سبحانه في أسمائه التي بلغت الغاية في الحسن ، وصفاته التي بلغت الغاية في العلو والسمو ، قال تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] .

■ قوله : (ولا ند له) :

أي لا شبيه له سبحانه وتعالى . قال تعالى : ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] .

. . . .

ومعنى السمي والكفؤ والند متقارب ، وهو المثيل والنظير .

■ قوله : **(ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى)** :

أي أنه سبحانه لا يقاس بخلقه قياسًا يقتضي المساواة بينه وبينهم ؛ لا في ذاته ، ولا في أسمائه ، ولا في صفاته ؛ لأنه قياس مع الفارق العظيم بينه وبينهم ، فهو الإله الحق وما سواه عبد له .

وهو الخالق وغيره مخلوق ، وهو المتسمي بالأسماء الحسنى ، المتصف بالصفات العلى ، فلا يجوز قياسه على خلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] .

■ قوله : **(فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره)** :

أي أنه سبحانه وتعالى أعلم بذاته وبأسمائه وبصفاته وبأفعاله ، وكذلك فهو أعلم بخلقه ؛ لأنه هو الذي خلقهم وصورهم ورباهم بنعمه ، فكيف لا يكون الأعلم بهم؟! ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] وهو ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[طه: ١١٠] ، فعلم الله تعالى شامل وكامل لذاته سبحانه ولخلقه .

فهو أعلم بمراده من أسمائه الحسنى وصفاته العلى التي ذكرها في كتابه الكريم ، وذكرها رسوله محمد ﷺ في سنته المطهرة .

فكأن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ يقول للمبتدعة : إذا كنتم تعلمون ذلك ،

. . . .

فلماذا تتقدمون بين يديه ، وتحرفون الكلم عن مواضعه ، وتلحدون في أسمائه وآياته ، وتمثلون وتشبهون صفاته بصفات خلقه ؟! .

■ قوله : (وأصدق قيلاً) :

أي وهو كذلك سبحانه أصدق من تكلم ، وليس بحاجة إلى أن يتكلم بغير الواقع - سبحانه وتعالى - قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ [النساء : ١٢٢] .

■ قوله : (وأحسن حديثًا من خلقه) :

أي أن كلامه سبحانه - كذلك - أحسن كلام ، وكلامه بلا شك ولا ريب أحسن من كلام خلقه ؛ لأنه هو الذي خلقهم وهو الذي أنطقهم : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ [البلد : ٨ ، ٩] .

فكلامه أحسن كلام ، وأوضح كلام ، وأبين كلام ، فيجب علينا أن نصدقه سبحانه تصديقًا تامًا فيما يخبر به عن نفسه أو عن خلقه ، فهو سبحانه ذو العلم التام الكامل الشامل بنفسه وبخلقه ، وهو أصدق قيلاً وأحسن حديثًا .

فمن وقع في تحريف أو تعطيل أو تشبيه أو تمثيل في أسماء الله تعالى وصفاته ، فإنه لم يقدر الله حق قدره ، ولم يعظمه حق تعظيمه ، ولم يتيقن أن الله أعلم بنفسه من خلقه ، وأنه أصدق قيلاً ، وأحسن حديثًا من خلقه ، والعياذ بالله من ذلك .

❁ ❁ ❁

[ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مُصَدَّقُونَ . بِخِلافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لا يَعْلَمُونَ]



■ قوله: (ثم رسله صادقون مصدقون):

أي أنه سبحانه هو أعلم برسله الذين أرسلهم إلى خلقه لتبليغ رسالته، ووظيفتهم هي تبليغ رسالته إلى خلقه، وقد اختارهم واصطفاهم على من سواهم من خلقه لاتصافهم بالصدق، وهم مصدّقون: أي يجب على أممهم تصديقهم وقبول أخبارهم والتصديق بها، ومن لم يصدقهم فهو كافر بالله العظيم، وكذلك فإن الله صدَّق الرسل وأيدهم. قال تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

وفي نسخة من الكتاب: (صادقون مَصْدوقون) فيكون المعنى: أنهم مصدوقون من قبل الله تعالى ومن قبل الوحي - جبريل عليه السلام - فكل ما أوحي إليهم فهو حق وصدق.

والحاصل: أنه يجب التصديق برسل الله وما جاءوا به من الشريعة ومن الأخبار على وجه العموم، ولا يجوز قبول بعض أخبارهم دون بعض، فإن من فعل ذلك فإنه لم يؤمن بالله ورسله حق الإيمان، بل يكون ممن آمن ببعض

. . . .

وكفر ببعض ؛ لأنه قبل بعض الشريعة دون بعض ، وقد كفَّر الله تعالى من فعل ذلك ، فقال سبحانه : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ** ... ﴾ إلى قوله : ﴿ **أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا** ﴾ [النساء: ١٥٠ ، ١٥١] الآية .

فالذي يقبل بعض الشريعة دون بعض فهذا من الكافرين حقًا ، كمن يقبل أحكام الشريعة فيما يتعلق بالعبادات ، ولا يقبل ما يتعلق بالأموال - مثلاً - فكذلك المبتدعة يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، فإنهم يقبلون ما يتعلق بالأحكام والأوامر والنواهي ، ويردون ما يتعلق بالأسماء والصفات ، فلابد من قبول ما جاءت به الرسل ؛ لأنهم الصادقون المصَدَّقُون .

▪ قوله : (**بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون**) :

فإن هناك كثيراً من المبتدعة يتخرصون في صفات الله ، ويقولون على الله بلا علم ، فهؤلاء في مرتبة المشركين ؛ لأن الله تعالى قرنهم بأهل الشرك ، ورتب ذلك ، فقال تعالى : ﴿ **وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٣٣] ، وينطبق هذا على نفاة الصفات الذين يقولون: لا يجوز أن يوصف الله بأنه يعلم ، ولا بأنه يقدر ، ولا بأنه يرحم ، ولابأنه ينزل في الثلث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا ، ولا بأنه مستو على العرش ، ولا بأنه قريب من عباده ، وغير ذلك من الصفات الذاتية والصفات الفعلية .

. . . .

فهؤلاء هم الذين يقولون على الله ما لا يعلمون ، بخلاف الرسل الصادقين المصدوقين ، الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ، فإنهم قد بلغوا ما أنزل إليهم من ربهم ، وبينوه أبلغ بيان ، وأوضحوا ذلك للثقلين .



[وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢] ، فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ ، وسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ لِسَلامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالعَيْبِ].



استدل - رحمه الله - على كلامه السابق بهذه الآيات .

■ قوله : (**ولهذا قال** : ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ**...﴾) :

فإن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية وهي قوله سبحانه : ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ قد نزه نفسه عما يصفه به الذين ينفون الصفات عن الله تعالى ، الذين يقولون بأن الله لا يوصف بأن له يداً ، ولا يوصف بأنه يسمع ويرى ، ولا يوصف بأنه ينزل كما يشاء ، ولا يوصف بأنه مستوٍ على عرشه ، ولا بكذا وكذا . هؤلاء الذين يقولون ذلك ، هم الذين نزه الله تعالى نفسه عنهم وعن مقالاتهم وبدعهم ، فقال : ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿**وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ**﴾ سلم على المرسلين لسلامة ما قالوا من النقص والعيب ، فإن ما جاء به المرسلون هو الحق الذي لا مرية فيه . فمن أجل ذلك سلم عليهم ، لسلامة ما جاءوا به من الشريعة أن يكون فيه كذب أو نقص أو خلل أو عيب ، لأنهم - كما تقدم - صادقون مصدقون ، فيجب قبول ما جاءوا به والإذعان له .

. . . .

ثم قال تعالى : ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فأثنى على نفسه سبحانه وهو أهل للثناء ، لأنه هو رب العالمين الذي رباهم بنعمه ، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [النحل : ١٨] ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

❁ ❁ ❁

[وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيمَا وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ . فَلا عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ المُرْسَلُونَ ، فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ] .



■ قوله: (وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات):

الله سبحانه وتعالى قد سمى نفسه بأسماء حسنى، ووصف نفسه بصفات عُلى في كتابه الكريم، وقد جمع في ذلك بين النفي والإثبات، ولكن النفي - في الغالب - مجمل، وهو نفي كل ما يضاد كمال الله وجلاله. والإثبات - في الغالب - مفصَّل متوسع فيه.

فمثال النفي المجمل: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، وقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ومثال النفي المفصل: قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]، وقوله: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، و قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ

. . . .

شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ﴾ [الإسراء: ١١١]، وقوله تعالى: ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] لإثبات كمال قيوميته . وقوله: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠] لإثبات كمال علمه وإحاطته . ونحو ذلك .

والحاصل أن النفي المجمل أو المفصل لا فائدة منه إلا إذا أثبتنا ضده من الكمال.

كذلك الإثبات ، كقوله: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] هذا فيه إثبات الاستواء لله على ما يليق بجلاله ، وقوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤] فيه إثبات المعية العامة كما يشاء سبحانه ، وقوله: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣١] فيه إثبات العلم . وقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فيه إثبات القدرة . وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٢٠] فيه إثبات السمع والبصر ، وهكذا فقد جمع بين النفي والإثبات .

■ قوله: **(فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون، فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين ...)**:

ومتى كان كذلك فلا عدول ولا ميل لأهل السنة والجماعة عما جاءت به المرسلون ؛ لأنهم إذا عدلوا فإنهم سيسلكون سُبل الشياطين على كل سبيل

. . . .

منها شيطان .

والنبي ﷺ عندما قرأ قوله تعالى : ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً** ﴾ [الأنعام: ١٥٣] خطَّ خطًا ثم قال : « **هذا سبيل الله** » ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله ، وقال : « **هذه سبل وطرق، على كل طريق منها شيطان يدعو إليها** »[(١)] .

فالصراط المستقيم الذي قال الله عنه : ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ** ﴾ [الأنعام: ١٥٣] هو طريق الأنبياء ، ومنهم إمامهم نبينا محمد ﷺ ، وطريق الصحابة وسلف الأمة ، وطريق الأئمة وأتباعه ﷺ إلى يوم الدين ، هذا هو الطريق الحق ، وهو الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه ، وهو الموصل إلى الجنة ، وهو صراط المنعم عليهم الذين ذكرهم الله في سورة النساء في قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا** ﴾ [النساء: ٦٩] ، فقد أخبر سبحانه بأن من أطاع الله طاعة تامة كاملة ، وأطاع الرسول ﷺ ، فإنه مع هؤلاء الذين أنعم الله عليهم أتم نعمة وأكبر نعمة ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، فقد هداهم سبحانه إلى الطريق الذي يرضيه عنهم ووفقهم لسلوكه . **فالنبيون** : هم الذين بعثهم الله لإصلاح أعمال الخلق

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٤٣٥ ، ٤٦٥) ، وابن ماجه برقم (١١) في المقدمة ، عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه . وحسن الألباني إسناده كما في تعليقه على أحاديث المشكاة رقم (١٦٦) هامش رقم (٢) . وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٤١٤٢) : إسناده صحيح .

. . . .

ودلالتهم على الصراط المستقيم . **والصديقون** : هم الذين صدقوا المرسلين ، ولم يترددوا في ذلك ، فكانوا غاية في الصدق والتصديق .

والشهداء : هم الذين وفقهم الله تعالى لإعلاء كلمته، والاستشهاد في سبيله . **والصالحون** : هم أهل الصلاح الظاهر والباطن، الذين أصلحوا أقوالهم وقلوبهم وأعمالهم ، فكل هؤلاء من المنعم عليهم .

وكذا كل من أطاع الله وأطاع الرسول ﷺ إلى يوم القيامة فإنه مع هؤلاء ، فهم أحق الناس بالرسول ﷺ ؛ لأنهم اتبعوه حق الاتباع في جميع أمورهم ، فلم يكن اتباعهم إياه في بعض الشريعة دون بعض ، أو آمنوا ببعض الكتاب دون بعض، أو تابعوه في العقيدة دون العمل ، أو في العمل دون العقيدة، بل اتبعوه في العقيدة والعمل والأخلاق والسلوك وكل شيء ، فلذلك صاروا من الذين أنعم الله عليهم ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم .

❊ ❊ ❊

القسم الأول

الاستدلال على إثبات أسماء الله وصفاته من القرآن الكريم

١ ـ الجمع بين النفي والإثبات من القرآن الكريم :

[وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ سُورَةِ الإِخْلاصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ؛ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾] [الإخلاص: ١ ـ ٤] .



الشرح

■ قوله : (**وقد دخل في هذه الجملة ما وصف الله به نفسه ... إلخ**) :

يشير شيخ الإسلام بذلك أن من صفات الله التي نؤمن بها ما تضمنته سورة الإخلاص ، وهي : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ فإنها اشتملت على النفي والإثبات .

ففي قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ إثبات للإلهية ، وإثبات للأحدية .

وفي قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ إثبات الصمدية .

فهذا في الإثبات .

وفي قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ نفي الولد والوالد عن الله تعالى .

وفي قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ نفي للكفؤ ، وهو المكافئ .

فهذا في النفي .

. . . .

فالحاصل أنها اشتملت على نفي وإثبات .

فالصفة الأولى: صفة الإلهية، ومعنى الإلهية : هي الاستحقاق للتأله ، ومعنى أنك تألهه أي تحبه وتخضع له ، وذلك يؤخذ من اسم الله ؛ لأنه في الأصل الإله.

ولفظ الجلالة « الله » بمعنى : ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ، أي المستحق لأن يألهوه ، أي يعبدوه .

الصفة الثانية : صفة الأحدية ، فكونه أحدًا بمعنى واحد . أي هو الإله الواحد ، فلا تجعلوا معه آلهة أخرى .

أي لا تألهوا في قلوبكم أحدًا غيره ، أي لا تحبوا غيره كحبه، وتتقربوا إليه كتقربكم إلى الله ونحو ذلك ، بل الله سبحانه هو إلهكم وحده ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** ﴾ [البقرة: ١٦٣] أي هو المتفرد بالإلهية، وكقوله : ﴿ **وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ** ﴾ [المائدة: ٧٣]

الصفة الثالثة: صفة الصمدية . **والصمد** : معناه الذي تصمد إليه القلوب ، أو السيد الذي انتهى في سؤدده ، فهو من أسماء الله تعالى التي تقتضي معاني ، فنعتقد أن من أسماء الله الصمد ، وأنه الذي تصمد إليه القلوب ، وأنه السيد الذي انتهى في سؤدده ، فهذا في الإثبات .

وأما النفي : فنعتقد أن الله لم يلد ولم يولد : أي لم يكن له والد ولا

. . . .

ولد، وقد أكثر الله من نفي الولد ؛ لأن المشركين جعلوا له ولدًا .

كما في قوله تعالى : ﴿ وجعلوا الْملائكة الّذين هُمْ عباد الرّحْمن إناثًا ﴾ [الزخرف: ١٩]، وكما قال : ﴿ أَلرِبّك الْبناتُ ولهُمُ الْبنُون ﴾ [الصافات: ١٤٩].

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جئْتُمْ شيْئًا إدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يتفطَّرْنَ منْهُ وتنشقُّ الأَرْضُ وتخرُّ الْجبالُ هدًّا (٩٠) أن دعوْا للرَّحْمنِ ولَدًا (٩١) وما ينبغي للرَّحْمنِ أن يَتَّخذَ ولَدًا (٩٢) إن كُلُّ من في السَّموَاتِ وَالأَرْضِ إلاَّ آتي الرَّحْمنِ عبْدًا ﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٣] .

فسبب نفي الله الولد عن نفسه هو أن المشركين جعلوا له ولدًا ، والله تعالى منزه عن ذلك ، وهكذا النصارى قالوا: المسيح ابن الله . واليهود قالوا: عزيرٌ ابن الله في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠] .

وقد حكى الله عن الجن أنهم قالوا: ﴿ما اتخَّذَ صاحبةً ولا ولَدًا ﴾ [الجن: ٣] ، وقال: ﴿أَنَّىٰ يكُونُ لهُ ولدٌ ولَمْ تكُن لَّهُ صاحبةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] يعني زوجة ، فذلك كله تنزيه لله تعالى ؛ لأن الولد غالبًا يشبه أباه ، والله تعالى يقول : ﴿ ليْس كمثْله شيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] ؛ ولأن الولد يقوم مقام أبيه ، ويعينه في ملكه ، والله تعالى لا يحتاج إلى ذلك ؛ لكمال قيوميته ، فهو المتفرد بذلك جل وعلا .

وأما قوله: ﴿ ولَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] فهو يدل على أنه القديم الأول

. . . .

الذي لم يسبق بعدم ، فليس له والد ولا ولد .

وأما قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ٤] فإن الكفو : معناه المكافئ ، والمساوي ، والند ، والنظير ، والمثيل .

فالمعنى : أنه ليس لله تعالى مثيل ، ولا شريك ، ولا نظير أيًا كان ذلك من الكفو ، فهذا في النفي .

فإذا قرأت هذه السورة ؛ فيجب عليك أن تعتقد عدة أمور :

الأول: ألوهية الله : يعني أنه هو الإله الحق الذي يجب أن يفرد بالألوهية .

ثانياً: وحدانيته وتفرده بالألوهية ، وأنواع العبادة .

ثالثًا: سؤدده وصمديته ، وهذه الثلاثة في الإثبات .

رابعًا: أن تنزهه عن الولد والوالد .

خامسًا : أن تنزهه عن الكفؤ يعني المكافئ والمساوي ، وهذان الأمران في النفي ، فتجمع بين الإثبات والنفي .

فهذه السورة سورة عظيمة ، حتى أخبر النبي ﷺ بأنها تعدل ثلث القرآن[1] ، يعني في الفضل ؛ لأن فضلها كفضل ثلث القرآن ، وسميت

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٠١٣) في فضائل القرآن، باب: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ من حديث أبي سعيد الخدري. ومسلم رقم (٨١١) كتاب صلاة المسافرين، من حديث أبي الدرداء. ورقم (٨١٢) من حديث أبي هريرة باب: « فضل قراءة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾».

. . . .

سورة الإخلاص؛ لأنها أخلصت في إثبات الصفات لله تعالى ، أو لأن من يؤمن بها ويعتقد بما دلت عليه يكون من المخلصين .



[وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ حَيثُ يَقُولُ : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ـ أي لا يُكرِثُهُ ولا يُثقِلُهُ ـ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، أي لا يُكرِثُهُ ولا يُثْقِلُهُ ، ولِهَذَا كَانَ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ] .



■ قوله: (وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتابه حيث يقول: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ... ﴾):

هذه الآية العظيمة من جوامع الكلم التي جمع الله فيها ـ أيضًا ـ بين النفي والإثبات ، وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام بأن « **من قرأ آية الكرسي في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح** »[1] وما ذاك إلا لاشتمالها على جملة من صفات الله في تنزيهه وتقديسه .

* ففي قوله: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ إثبات الألوهية له سبحانه ، ونفيها عما سواه ، يعني لا تصلح الألوهية إلا له ، ولا يستحقها أحد سواه . والإله هو

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٠١٠) في فضائل القرآن، باب: «فضل سورة البقرة». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

الذي تألهه القلوب يعني : تعظمه وتحبه ، وذلك لا يكون إلا لله وحده ، فلا يصح أن يكون غيره مألوهًا ، أي مبجلاً معظمًا كتعظيم الله، ومحبوبًا كمحبة الله أيًا كان ذلك ؛ لأن ما سواه سبحانه مخلوق ، ولو كان عظيمًا أو وجيهًا عند الله ، كأن يكون نبيًا أو رسولاً ، أو ملكًا مقربًا ، أو وليًا، أو غير ذلك .

* وفي قوله : ﴿ **الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ : **الحي** : يعني المتصف بأكمل أنواع الحياة ، فإن حياة الإنسان وحياة البهائم حياة ناقصة؛ لأنها مسبوقة بعدم ، ويطرأ عليها الانتهاء والانقطاع ، وكذلك فإن الإنسان في حياته يحتاج إلى النوم ، ويعتريه الإغماء والغشية والغفوة ، ويعتريه الموت . فهي حياة ناقصة من جميع الوجوه ، بخلاف حياة الرب تعالى ، فهي حياة كاملة دائمة ، لم يسبقها عدم ولا يعتريها عجز ولا نقص ، فهو الحي بكامل الحياة سبحانه ، كذلك القيوم : وهو القائم بنفسه المقيم لغيره من خلقه ، فهو القائم على عباده على كل نفس بما كسبت ، وهو القائم برزقهم وتربيتهم ، وهو المراقب لهم والمطلع على أحوالهم ، الذي لا يخفى عليه خافية من أمرهم . فهذا في الإثبات .

* وفي قوله : ﴿ **لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ** ﴾ : **السِّنَةُ** : النعاس . والنوم : معروف .

وقد ورد في الحديث : « **إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام** »[1] الحديث .

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٧٩) في الإيمان، باب: « في قوله عليه السلام: « **إن الله لا ينام...** »» عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

. . . .

وذلك لأنه يراقب خلقه بالليل والنهار ، والنوم شبه الموت ، فلأجل ذلك نزه الله تعالى نفسه عن النوم حتى لا يحصل اختلال في الكون ؛ لأنه هو الذي يمسك جميع مخلوقاته العظيمة ، ولو اختلت لم يمسكها غيره ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [فاطر: ٤١] لو زالت واختل نظامها ما أمسكها أحد غيره .

ويقول تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج: ٦٥] فهو الذي يمسك هذه المخلوقات بقوته وقدرته ، فلا تعتريه غفلة ولا نوم . ويقول تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٧]. فقوله: ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] هو من باب النفي .

* وفي قوله: ﴿ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: له الخلق كلهم الذين هم في العالم العلوي ـ السموات ـ والذين في العالم السفلي ـ الأراضين ـ ملكًا وخلقًا واستعبادًا ، وهو خلقهم له وحده ، فهم عبيده ، يعني : معبَّدون له لا لغيره ، فهو المالك لهم ملكًا وخلقًا واستعباداً . فهذا من باب الإثبات .

* وفي قوله : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه .

والشفاعة: هي التوسط ، والوساطة مأخوذة من الشفع : أي لا يقدر

. . . .

النبي المرسل ، ولا الملك المقرب ، ولا الولي أن يشفع عند الله لأحد من الناس إلا إذا أذن الله له ، وقال له: اشفع ، فلا يشفع إلا لمن رضي الله عن عمله ، وهم أهل التوحيد ، كما قال تعالى : ﴿ولا يشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وهذا من باب النفي .

* وفي قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]: في هذا إثبات صفة العلم وهي من صفات الكمال؛ لأن الله تعالى موصوف بصفات الكمال ،فهو سبحانه العليم ، ومن علمه أنه يعلم خبر ما قبلنا وما بعدنا وما بين أيدينا : يعني ما سيحدث قدامنا في الزمن الحاضر والمستقبل من أمور الدنيا وغيرها ، ويعلم ما خلفنا ، يعني: ما يكون من أمور الدنيا في المستقبل ، فهو سبحانه يعلم ما كان قبل خلقنا إلى مالا نهاية له ، كذلك ما كان بعدنا إلى ما لا نهاية فالله سبحانه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، فهو سبحانه يعلم ما كان وما يكون ومالم يكن لو كان كيف يكون. فهذا من باب الإثبات .

* وفي قوله: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]: أي أن جميع المخلوقين لا يعلمون من العلم إلا ما أعلمهم إياه ، فلا يستطيعون أن يعلموا شيئًا إلا إذا أعلمهم به وأطلعهم عليه سبحانه، ولا يستطيعون علم شيء زائدٍ عما أعلمهم به سبحانه وتعالى .

وعلم الغيب لا يعلمه إلا الله، كما في قوله تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ

. . . .

عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] . فهذا من باب النفي .

* وفي قوله : ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾ : **الكرسي** : هو موضع قدمي الرب سبحانه كما يشاء . أو هو كالمرقاة بين يدي العرش ، هكذا فسره السلف وهو مخلوق من مخلوقات الله تعالى العظيمة ، وهو دون العرش ، فأخبر الله تعالى أنه اتسع فشمل السموات والأرض ، فهذا يدل على عظمة هذا الكرسي فخالقه أعظم سبحانه وتعالى . فرغم سعة السموات والأرض ، فالكرسي أكبر منها وأعظم ، وقد ورد أن الكرسي « **كالحلقة الملقاة في فلاة بالنسبة إلى العرش** »[1] وإذا كانت هذه عظمة الكرسي فالعرش أعظم منه ، والكرسي أعظم من السموات والأرض بل ورد في الحديث قوله : « **ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة** »[1] .

والترس : هو المجن الذي يجعل على الرأس . وإذا كانت هذه عظمة الكرسي ، فكيف تكون عظمة العرش؟! وإذا كانت هذه عظمة العرش ، فكيف تكون عظمة رب العرش ؟! وإذا كانت هذه عظمة رب العرش ، فكيف يستطيع أن يصفه الواصفون على حقيقته ؟! أم كيف يعصيه هذا الإنسان الضعيف الذي لا يملك لنفسه ضرًا ولانفعًا ، ولا ملكًا ولا موتًا ، ولا حياة ولانشورًا ؟! فهذا معنى قوله : ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب العرش رقم (٥٨) ، والذهبي في العلو رقم (١٠٥) ، وهو في السلسلة الصحيحة للألباني رقم (١٠٩) .

. . . .

وهذا من باب الإثبات .

* وفي قوله : ﴿ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ : فسر الشيخ يؤوده : بمعنى يكرثه ويثقله ، أي لا يشق عليه حفظ المخلوقات بأسرها ، وعلى رأسها السماوات والأرض وما فيهن وما بينهما ، فهو سبحانه يحفظها وليس في حفظها مشقة عليه ولا إعياء ولا تعب ، فلا يكلفه ذلك ولا يثقله ولا يشق عليه ، بل هو سهل عليه ، ويسير عليه سبحانه، وهذا من باب النفي .

* وفي قوله : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ : ختم هذه الآية العظيمة، بإثبات صفتي العلو والعظمة ، فإنه سبحانه عليّ على جميع خلقه، عظيم، بلغ في العظمة غايتها ، فله العلو المطلق سبحانه وتعالى .

ومنه علو الذات ، فهو مستوٍ على عرشه بائن من خلقه . قال تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥].

وعلو القهر ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام: ١٨].

وعلو القدر ؛ لأنه أرفع قدراً من كل ما سواه ولأنه القادر على كل شيء سبحانه ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٢٠] فهذا من باب الإثبات.

فعلينا أن نعتقد ونؤمن بهذه الصفات التي مرت علينا في هذه الآية

. . . .

العظيمة . فإذا قرأت هذه الآية ، فيجب عليك أن تستحضر ما فيها من الصفات العظيمة، فيكون ذلك زيادة في يقينك ، ومتى زاد يقين العبد زادت أعماله وحسنت .

والحاصل من هذه الآية أن الله تعالى قد جمع في أسمائه وصفاته بين النفي والإثبات ، نفي النقائص والعيوب، وإثبات ضدها من الكمال .

ثم ذكر شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن من قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح ، كما ورد ذلك في الحديث الصحيح[١]، فهذا يدل على عظم هذه الآية وفضلها ؛ بل هي أعظم آية في كتاب الله ، كما ورد ذلك في حديث أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ حينما سأله النبي ﷺ عن أعظم آية في كتاب الله ، فقال أبي : ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ فوضع النبي ﷺ يده على كتفه ، وقال : « **لِيَهْنِكَ العلمُ أبا المنذر** » رواه مسلم[٢] . والله أعلم .

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٠١٠) في فضائل القرآن، باب : «فضل سورة البقرة» عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم برقم (٨١٠) في صلاة المسافرين ، باب : «فضل سورة الكهف وآية الكرسي» عن أبي بن كعب رضي الله عنه .

٢ ـ الجمعُ بَيْنَ عُلُوِّهِ وَقُرْبِهِ وأزَلِيَّتِهِ وأَبَدِيَّتِه :

[وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والْبَاطِنُ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] وقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿وتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذي لا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] **الآية**].

الشرح

■ قوله : (**وقوله سبحانه : ﴿هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والْبَاطِنُ...﴾**) :

هذه الآيات التي ذكرها المؤلف ـ رحمه الله ـ فيها إثبات صفة العلم ونحوه، وإثبات بعض الأسماء الأخرى الدالة على بعض الصفات .

* **فالآية الأولى** : وهي قوله تعالى : ﴿هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والْبَاطِنُ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيها إثبات هذه الأسماء ، وقد فسرها النبي ﷺ ؛ حيث كان يقول في دعاء الاستفتاح في آخر الليل : « **اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر** » رواه مسلم[1] .

ينبغي علينا أن نعرف أولاً أن كل اسم من أسماء الله سبحانه له ثلاث دلالات :

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧١٣) في الذكر والدعاء، باب: «ما يقول عند النوم وأخذ المضجع». عن البراء بن عازب رضي الله عنه .

. . . .

---

١ ـ دلالة على ذات الرب تعالى بالمطابقة .

٢ ـ دلالة على الصفة المشتقة بالتضمن .

٣ـ دلالة على بقية الصفات بالالتزام .

فالأول : ينطبق على الرب تعالى لا يصح لغيره . وكذلك **الآخر** : لا يسمى به إلا الله تعالى ، وكذلك **الظاهر والباطن** ، فهذه الأسماء لا تنطبق إلا على الذات الربانية .

كذلك هذه الأسماء تدل على الصفات المشتقة منها :

فالأول: يدل على القدم والأزلية .

والآخر : يدل على البقاء والأبدية .

والظاهر : يدل على صفة العلو .

والباطن : يدل على صفة القرب والمعية .

وكل أسماء الله يشتق منها صفات ، فمثلاً : العليم : يؤخذ منه صفة العلم، والعزيز : يدل على صفة العزة، والرحيم : يدل على صفة الرحمة، والغفور: يشتق منه صفة المغفرة ، والتواب : يشتق منه صفة قبول التوبة من عباده المؤمنين ، والقهار : يؤخذ منه صفة القهر ، وهكذا . . .

قال تعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧]، هذه الآية

. . . .

يؤخذ منها اسمان من أسماء الله : العزيز : وهو دال على صفة العزة ، والرحيم : وهو دال على صفة الرحمة .

وكقوله : ﴿ **لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [آل عمران: ٦]، و﴿ **وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [يونس: ١٠٧] ونحو ذلك من الأسماء الحسنى ، فكل اسم منها دال على صفة .

* **الآية الثانية** : وهي قوله سبحانه : ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ** ﴾ [الفرقان: ٥٨] الآية : فهذه الآية فيها ما تقدم أن كل اسم من أسماء الله تعالى يتضمن صفة مشتقة منه ، ففي قوله جل وعلا : ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ** ﴾ ذكرٌ لاسم من أسماء الله تعالى وهو « الحي » والذي يتضمن صفة الحياة الكاملةَ لله سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله وعظمته ، فحياته سبحانه ليست كحياة مخلوقاته ، فإن حياة سائر المخلوقات ناقصة ، ومعرضة للزوال في أي وقت من الأوقات ، إذا شاء الله سبحانه الذي خلقها .

وأما حياته سبحانه فهي حياة أزلية كاملة لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه . وقد أكد ذلك بقوله : ﴿ **الَّذِي لا يَمُوتُ** ﴾ ، يعني الذي لا يطرأ عليه الموت ، وهو انقطاع الحياة ، بل حياته أزلية أبدية باقية .

❁ ❁ ❁

٣ ـ إِثْبَاتُ صِفَةِ العِلْم :

[وَقَوْلُهُ : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٩] ، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨] ، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [الحديد: ٤] ، ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] ، وَقَوْلـه : ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١] وقوله : ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]] .



■ قوله: (وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ...):

هذه الآيات دالة على صفة العلم ، وهي إدراك جميع المعلومات ، وقد دلت عليها آيات أخرى كثيرة ، كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥] . ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني: ما سبقهم، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يعني: ما بعدهم إلى آخر الدنيا . فأثبت في هذه الآية العلم الأزلي له سبحانه .

وكذلك قوله : ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

. . . .

ففيها سعة علمه سبحانه وتعالى وشموله لهما .

* **الآية الأولى**: وهي قوله: ﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ في هذه الآية إثبات اسمين من أسماء الله الحسنى، وقدتكرر في القرآن ذكر هذين الاسمين فيذكرهما الله تعالى على وجه التمدح كغيرهما من الأسماء الحسنى ويعتقد أهل السنة أن كل اسم من الأسماء التي سمى الله تعالى نفسه فإنه يدل على إثبات صفة أو صفات، فالعليم يدل على صفة العلم العام، فهو صفة مبالغة، وكثيراً ما يختم الله به الآيات التي تشتمل على التخويف، ويصف نفسه أنه بكل شيء عليم، واسم الحكيم دليل على إثبات صفة الحكمة، والحكمة وضع الأشياء مواضعها اللائقة بها، أي إن أحكامه وأوامره وزواجره كلها في غاية الحكمة والمصلحة .

* **الآية الثانية**: وهي قوله سبحانه : ﴿**وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**﴾ [الأنعام: ٧٣] ففيها إثبات اسمين من أسماء الله دالين على صفتين ، وهما : الحكمة والخبرة، وكلا الصفتين لهما تعلق كبير بصفة العلم .

الحكيم: هو المتقن للأشياء ، الذي يضع الأمور في مواضعها ، أو هو الحاكم في أقواله وأفعاله ، وفي حكمه الكوني القدري ، وفي حكمه الشرعي الديني .

والخبير: أي ذو الخبرة ، وهي العلم التام الكامل بالأشياء ، ظاهرها وباطنها ، مع الإحاطة بذلك ، فالخبير أخص من العليم ، وهو دال على صفة العلم الكامل لله سبحانه وتعالى .

* **الآية الثالثة** : قوله سبحانه : ﴿**يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا**

. . . .

وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [الحديد: ٤] الآية .

ففيها إثبات صفة العلم التام الكامل من جميع الوجوه لله سبحانه وتعالى ، فقد أخبر سبحانه أن من تمام علمه أنه يعلم كل ما يدخل في الأرض من أموات ، ومن بذور ومعادن ونحوها ، ويعلم كل ما يخرج من الأرض من نباتات وأشجار وأزهار ونحو ذلك ، وكل ما ينزل من السماء من مطر وملائكة ونحوها ، وكل ما يعرج ويصعد إلى السماء من الملائكة والأعمال وأرواح العباد ونحوها ، فهذا يدل على كمال علمه سبحانه وشموله وإحاطته بجميع المعلومات .

* **الآية الرابعة** : وهي قوله سبحانه : ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [الأنعام: ٥٩] هذه الآية فيها إثباتُ صفة العلم .

قوله سبحانه : ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ**﴾ ، **مفاتح الغيب** : هي الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلا الله . ومفاتح الغيب هي التي ذكرها الله تعالى في قوله : ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [لقمان: ٣٤] كما ورد في الحديث الذي رواه البخاري عن عبد الله بن

. . . .

عمر أن النبي ﷺ قال: «**مفاتح الغيب خمس، لا يعلمهن إلا الله**»[1] ثم قرأ هذه الآية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ...**﴾ [لقمان: ٣٤] الآية.

* **الآية الخامسة**: وهي قوله سبحانه: ﴿**وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ**﴾ [فاطر: ١٢] فهذه الآية كذلك فيها إثبات صفة العلم، فقد أخبر الله تعالى فيها أنه لا يقع من حمل إلا بعلمه، ولا وضع ولا إسقاط، ولا موت ولا حياة إلا بعلمه، فهو سبحانه عالم بكل شيء، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

* **الآية السادسة**: وهي قوله سبحانه: ﴿**لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ [الطلاق: ١٢] فيها إثبات صفتي القدرة والعلم، وفيها التأكيد على إحاطة علم الله تعالى بكل شيء من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة، والأمور الظاهرة والباطنة، فدل ذلك على أنه سبحانه مطلع على كل شيء في السموات والأرض، فيجب علينا أن نؤمن بذلك وأن نعبده حق عبادته سبحانه وتعالى.

فهذه الآيات فيها إثبات صفة العلم الكامل التام لله سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله وعظمته، وقد وردت آيات أخرى كثيرة تدل على هذه الصفة العظيمة، وقد جمعها واستقصاها كثير من العلماء، ومن جملتهم: الإمام الدارمي صاحب كتاب «الرد على الجهمية»، فإنه كان في هذا الكتاب إذا ذكر

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٧٨) في التفسير [سورة لقمان]، باب: «إن الله عنده علم الساعة» وأخرجه البخاري أيضًا برقم (١٠٣٩) في الاستسقاء بنحوه.

. . . .

صفة استوفى كل ما يتعلق بها من الآيات والأحاديث حسب وسعه، وذلك لأن الجهمية كانوا ينكرون صفة العلم لله تعالى ، فرد عليهم وأثبتها وأتى بأدلة صريحة من الكتاب والسنة عليها، وكذلك المعتزلة الذين هم ورثة الجهمية كانوا ينكرون صفة العلم، بل ينكرون كل الصفات، فيثبتون الأسماء وينكرون دلالتها على الصفات، ويزعمون أنها مترادفة يعني لا تدل على معان أصلاً، فعندهم لا فرق بين الرحيم والقهار، ولا فرق بين العزيز والغفور.

قالوا: إنما هي مجرد أعلام فحسب ، كما لو سمي إنسان باسم واحد أو بخمسة أسماء ، فلا تدل على صفات ، ومعلوم أن الإنسان قد يسمى بأسماء حسنة من باب التفاؤل ، ولكن لا يلزم من ذلك أن تكون منطبقة عليه بما تدل عليه، فليس كل من سمي صالحًا يكون من أهل الصلاح ، وليس كل من سمي سعيداً يكون من أهل السعادة ، وليس كل من سمي زاهداً يكون من أهل الزهد ، أو سالمًا يكون من أهل السلامة، لكن ذلك يقع من باب التفاؤل.

فهؤلاء المبتدعة يقولون : إن أسماء الله تعالى كذلك ، فلا تدل على الصفات ، ويُصَرحون بالنفي ، فيقولون : عليم بلا علم ، رحيم بلا رحمة ، عزيز بلا عزة ، سميع بلا سمع ، بصير بلا بصر وهكذا ، يعني: إنما هي أسماء مجردة .

وليس الأمر كذلك ؛ لأنه لو كان كذلك ما ختمت الآيات بالأسماء التي تناسبها ، فإن الرب تعالى يختم كثيراً من الآيات ببعض أسمائه بما يلائم ما

. . . .

دلت عليه، فآية تقسيم الصدقات ، وهي قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ...﴾ [التوبة: ٦٠] الآية. ختمها سبحانه وتعالى بذكر اسمين من أسمائه الحسنى وهما: عليم حكيم يدلان على صفتين وهما: صفة العلم وصفة الحكمة، والعلم معروف ، والحكمة هي : وضع الأشياء في مواضعها الصحيحة.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا﴾ [البقرة: ٢٢٦]أي رجعوا عن الحلف ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فدل على أنه أراد مغفرة ما سبق ورحمته ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٧] أتى بسميع عليم هنا ؛ لأن الله يسمع ما يقولونه من الطلاق ، ولم يقل : فإن الله غفور رحيم بعد قوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ فإن هذا لا يناسب المغفرة والرحمة ، فدل ذلك على أن معاني هذه الأسماء مقصودة .

فالعلم صفة من صفات الله ، وهو عام يدخل فيه ما كان وما يكون في أمور الماضي والحاضر والمستقبل ، فهو سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، ولذلك فإن من عقيدة أهل السنة أنهم يقولون: إن كلام الله من علمه ، وعلمه صفة من صفاته ، ولهذا فإنه ليس بمخلوق كما زعمت المعتزلة ونحوهم، بل إن كلامه جل وعلا من علمه الذي هو صفة من صفاته .

ومعلوم أن نفي العلم يستلزم إثبات ضده، وضده الجهل، وهما

. . . .

متلازمان، فإذا أثبتنا أحدهما نفينا الآخر.

فإذا قيل : إن الله ليس بعالم ، كان المخلوق الذي يعلم ولو قليلاً من العلم أكمل منه جل وعلا، فإن صفة العلم صفة كمال، ونفيها صفة نقص ، فدلالة هذه الآيات واضحة ؛ حيث إن منها ما ورد بالاسم كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[الحجرات: ١٣] ، وقوله: ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [التحريم: ٢] ومنها ما ورد بالمعنى كقوله: ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقوله: ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾ [البقرة: ٢٣٥] يعني في الماضي ، فدل على أنه سبحانه علم ما قد مضى . ومنها ما ورد بصيغة الحاضر يعني المضارع كقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ [المنافقون: ١] ونحوها، في آيات كثيرة، فإذا قال الله يعلم فمعناه : أنه يعلم في الحال وفي الاستقبال، فإذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [النحل: ١٩] فمعناه أنه لا يخفى عليه من أموركم شيء .

فورودها بهذه العبارات يدل على أنها مقصودة المعنى ، وأن العلم ضد الجهل، وأنه يدخل فيه العلم بالحوادث والأشياء الماضية والحاضرة والمستقبل.

فعرفنا أن أهل السنة يثبتون صفة العلم بالعقل والنقل ، وعرفنا أن الذين أنكروها كالمعتزلة وتكلفوا في تأويل وتحريف الأدلة على ما يريدون هم منحرفون عن الصراط المستقيم ، حتى إنهم يصرون على ذلك، ولكنهم في

. . . .

بعض الأحيان يثبتون العلم ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فإنهم - يعني المعتزلة الذين ينكرون العلم - أولوا الكرسي بالعلم ، فقالوا: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ يعني وسع علمه ، وإن كان هذا من التحريف .

كذلك الأشاعرة والماتريدية : أثبتوا صفة العلم وبعض الصفات ، ولكنهم أنكروا كثيراً من الصفات الفعلية ، فوقعوا في المتناقضات. ثم من عقيدة أهل السنة : أن علم الله قديم ، وأنه يعلم ما يتجدد وما يحدث في وقته قبل أن يحدث .

وخالفهم في ذلك القدرية ، فقالوا: إنه سبحانه لا يعلم عن الأشياء إلا بعد وقوعها ، يعني بعدما تحدث ، وفي أمثالهم نزل قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢].

يعني أنهم ظنوا أن الله لا يعلم أعمالهم إذا استخفوا بها وعملوها سراً ، وقد نزلت هذه الآية في أناس من المشركين ، ولكنها تنطبق على هؤلاء الذين يقولون : إن الله لا يعلم ما سيحدث في المستقبل ، أو أنه يعلم الكليات ولايعلم الجزئيات ، أو أنه لا يعلم بأعمال العباد حتى يحدثوها، يعني أنه لا يعلم أعمالك حتى تعملها من خير أو شر ؛ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. بل الله تعالى يعلم الجزئيات ، كما يعلم الكليات ؛ لأنه سبحانه عليم بكل

. . . .

شيء ، بل يعلم ما توسوس به النفوس كما قال سبحانه : ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [ق: ١٦] . وقال : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧] . وقوله : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ [الأعلى: ٧].

فكل ذلك دليل على إثبات هذه الصفة وهي صفة العلم ، وأنها كسائر صفات الكمال ، فيجب إثباتها لله على ما يليق بجلاله وعظمته ، وإذا أثبتناها قلنا : علم الله كسائر صفاته الحسنى ، نؤمن بها ، ولا نكيفها ، ولا نمثلها ، فلا نقول مثلاً : إن علمه سبحانه كعلم المخلوق الذي هو إدراك المحسوسات فقط ، أو نحو ذلك لا ، إنما هو علم خاص بالله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته ، ولا يشبهه في ذلك أحد من خلقه ، فعلمه سبحانه علم كامل تام شامل ، لا يلحقه نقص أو قصور بوجه من الوجوه ، فيجب علينا أن لا نعمل إلا ما يرضيه سبحانه ، وأن نجتنب الأعمال والأقوال التي تسخطه سبحانه وتعالى ؛ لأنه مطلع علينا ، لا تخفى عليه خافية من أمرنا سبحانه وتعالى .

❀ ❀ ❀

٤ ـ إِثْبَاتُ صِفَةِ الرِّزْقِ وَالقُوَّةِ وَالمَتَانَةِ :

[وَقَوْلُهُ : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٨]] .



■ قوله: (وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾) :

هذه الآية تتضمن إثبات ثلاث صفات من صفات الله سبحانه ، ألا وهي: صفة الرزق المتتابع، وصفة القوة ، وصفة المتانة . فيجب علينا الإيمان بهذه الصفات وإثباتها لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته .

فنثبت أن الله هو الرزاق وحده لا غير : فإنه سبحانه هو الذي ابتدأ بالنعم قبل استحقاقها ، أو مع عدم استحقاقنا لها ، وهذا لأنه سبحانه أكرم الأكرمين وأجود الأجودين وأرحم الراحمين ، فيجب علينا شكره على ذلك بالقلب واللسان والجوارح.

وكذا صفة القوة : فإنه سبحانه هو المتصف بصفة القوة الكاملة الشاملة المطلقة ، التي لا يماثله ولا يشابهه فيها أحد من خلقه سبحانه ، بل هو الذي وهب خلقه القوة ، فهو سبحانه ذو القوة ، أي صاحب القوة الشديدة .

وكذا صفة المتانة: وهي الشدة ، يجب إثباتها لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته .

❁ ❁ ❁

٥ ـ إِثْبَاتُ صِفَتِيِّ السَّمْعِ والبصر :

[وَقَوْلُه : ﴿ لَيْس كَمثْله شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ نعمًّا يعظُكُم به إِنَّ اللَّهَ كَانَ سميعًا بصيرًا ﴾ [النساء : ٥٨]] .

الشرح

■ قوله : (وقوله : ﴿ ليس كمثله شيءٌ وهو السميعُ البصير ﴾ . . .) :

هذه الآيات فيها إثبات صفتي السمع والبصر ، وقد ذكر الله سبحانه هذا الوصف بعدة تعبيرات ، فمنها بالزمن الماضي كقوله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ﴾ [المجادلة : ١] وبالمضارع كقوله : ﴿ واللَّه يسمع ﴾ [المجادلة : ١]، وكذلك بالاسم كقوله : ﴿ إنه هو السَّميعُ ﴾ [الأنفال : ٦١]. فهذه الصفات نثبتها لله سبحانه على ما يليق بجلاله وعظمته ، ثم نقول : إن لذلك الإثبات فائدة ، وهي أن العبد إذا اعتقد أن ربه يسمع كل شيء ، لا تخفى عليه خافية ، فيسمع حركاته وسكناته ، حمله ذلك الاعتقاد على المراقبة لله سبحانه في جميع الأحوال وفي جميع الأمكنة والأزمنة ، فيقول : كيف أنطق بكذا وهو يسمعني ؟! وكيف أتكلم بما يسخطه وهو يسمعني ولا تخفى عليه خافية من أمري ؟

فإذا اعتقد ذلك بحق أدى به إلى شدة المراقبة لربه ومعبوده سبحانه وتعالى، فحينئذ تجده حافظًا للسانه ، حافظًا لجوارحه عن كل ما يسخط الله

. . . .

سبحانه ، خائفًا من ربه ؛ لأنه لا تخفى عليه منه خافية ﴿**الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ** (٢١٨) **وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩].

وكذلك صفة البصر ، نثبت لله تعالى هذه الصفة كما يشاء ، وكما يليق به ، وأنه يبصر ويرى كما في قوله تعالى : ﴿**إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ**﴾ [طه: ٤٦] . وفائدة هذا الإثبات أيضًا : أن العبد لا يعمل المعصية لا في الجهر ولا في السر ، فلا يستخفي بمعصية مهما كانت ، وفي أي مكان كان ، ولو في الظلام الدامس ، ولو في أبعد مكان ؛ لأنه يعلم علم اليقين أن الله يراه ، وأنه لا يخفى عليه في أي مكان كان .

وزيادة على ذلك : أن الله قد وكل به من يحفظه من الملائكة ، ووكل به ـ من يحفظ أعماله ـ من الكرام الكاتبين . وزيادة على ذلك : أن الله ينطق جوارحه في يوم القيامة بما عملت : ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم**﴾[النور: ٢٤] ، ﴿**شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [فصلت: ٢٠]، ولو حاسبهم الله بما يعلمه عنهم لكانت له الحجة عليهم ، وذلك لأنه لا يظلم أحدًا ، ولا يظلم مثقال ذرة ، ولكن من باب إقامة الحجة، ومن باب قطع المعذرة أن يقال له: هل ظلمك الكتبة ؟ هؤلاء الكتبة الحافظون الكرام قد دونوا عليك كل شيء من أعمالك ، فلا يستطيع العبد الإنكار . كذلك أيضًا يقال له : هذه جوارحك قد نطقت وشهدت عليك ، فهل جوارحك تكذب عليك ؟ فلا يستطيع جوابًا، وذلك لأنه يختم

. . . .

على أفواههم في ذلك اليوم ـ يوم القيامة ـ ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥]. وهنالك عندما يرون هول الموقف ماذا يحدث؟ لا يكتمون الله حديثًا . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٤٢] يسول إليهم في أول الأمر، فينكرون كما حكى الله عنهم في قوله : ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣] ، قال تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنعام: ٢٥]، ولكن يعترفون بعد ذلك عندما يرون كثرة البينات وتضافرها .

فالحاصل : أن من عقيدة أهل السنة : إثبات هاتين الصفتين لله على ما يليق بجلاله وعظمته ، فيثبتون أن الله تعالى يسمع كل شيء ، ويبصر كل شيء ، وأن سمعه يدرك الأصوات كلها، وأن بصره يدرك جميع المرئيات، وأنه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماوات ، وأن كل دقيق أو جليل فإنه يسمعه سبحانه ، فهو يسمع دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، يرى كل شيء ويسمع كل شيء، ولا يخفى عليه خافية ، وسع كل شيء علمًا .



٦ ـ إثبات صفتي المشيئة والإرادة :

[وقوله : ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾ [الكهف: ٣٩]، وقوله : ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقوله: ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد﴾[المائدة: ١] ، وقوله: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء﴾ [الأنعام: ١٢٥]].



■ قوله: (وقوله: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله...﴾) :

هذه الآيات تدل على إثبات صفتي المشيئة والإرادة . فقد وصف الله تعالى نفسه بأنه يشاء ، وبأنه يريد كما في هذه الآيات : قوله: ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾، وقوله: ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾ ، وقوله: ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾ ، والمشيئة والإرادة متقاربتان، إلا أن الإرادة تنقسم إلى قسمين:

الأول: إرادة شرعية دينية .

الثاني: إرادة كونية قدرية .

فالإرادة الشرعية: هي التي تتعلق بالمأمورات ، وبما يحبه الله ويرضاه ، فـــإن الله تعالى أراد من عباده شرعًا أن يطيعوه ويوحدوه ويفعلوا ما يحبه

. . . .

ويرضاه، أراد منهم شرعًا أن يؤمنوا به وأن يعبدوه حق عبادته، وأراد منهم شرعًا أن يصلّوا ويزكوا ويصوموا ويحجوا و . . . و . . . إلخ. هذه إرادة شرعية .

وأما **الإرادة الكونية القدرية** : فهي أنه سبحانه أراد كل ما حدث ويحدث في الوجود ، فكل ما في الوجود فهو داخل في إرادته الكونية القدرية، حيث لا يخرج شيء عن إرادته .

فالإرادة الكونية عامة لكل ما هو حادث من خير أو شر، من معصية أو طاعة، من مصيبة ونقمة ، أو نعمة ورخاء ، فإن الله سبحانه هو الذي كتبها وأرادها ، ولو شاء ما حصلت ، قال تعالى : ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ**﴾ [الأنعام: ١١٢] ، ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [التكوير: ٢٩] ، ﴿**وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ [المدثر: ٥٦] فلا يذكرون شيئًا إلا وقد أرداه الله وقدره ، إرادة كونية قدرية . فهذه الإرادة عامة ويراد بها المشيئة .

والإرادة الشرعية خاصة كما في قوله تعالى : ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ**﴾ [النساء: ٢٦]، ﴿**وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ**﴾ [النساء: ٢٧]، وقد تجتمع هاتان الإرادتان في إيمان المؤمنين وطاعة الطائعين ؛ لأن ذلك يكون عن إرادة كونية قدرية ، ثم عن إرادة شرعية دينية .

وأما كفر الكافرين ومعصية العاصين ، فهي إرادة كونية قدرية وليست

. . . .

شرعية دينية ؛ لأنها ليست مما يحبه الله ويرضاه ، بل أراده سبحانه لحكم عظيمة ، قد ندركها وقد لا ندركها .

فإذا فهمنا ذلك الفهم سلمنا من تحريف بعض النصوص أو تعطيلها .



٧ ـ إِثْبَاتُ صِفَةِ المَحَبَّةِ والمَوَدَّةِ :

[وَقَوْلُه : ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] ، ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧] ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وَقَوْلَهُ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] ، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] ، وقوله : ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤]] .

الشرح

هذه الآيات فيها إثبات صفة المحبة لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته، وهي غير صفة الإرادة والمشيئة ، كما سيأتينا ـ إن شاء الله ـ .

- قوله تعالى : ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، والمحسنون : هم المتقنون لأعمالهم غاية الإتقان ، فأخبر سبحانه أنه يحبهم .

- وقوله جل وعلا : ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، والمقسطون: هم العادلون الذين يعدلون في جميع الأمور ، وعلى جميع الأحوال ، ففي هذه الآية أخبر سبحانه أنه يحبهم .

. . . .

■ وقوله عز وجل : ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧] ، والمتقون : هم الذين يجعلون بينهم وبين سخط الله وعذابه وقاية بطاعته ، وذكر أن من صفاتهم الوفاء بالعهد ، وعدم الخيانة ، فالله سبحانه يحب المتقين.

■ وقوله سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، والتوابون: هم الراجعون إلى الله ، النادمون على ذنوبهم، والمتطهرون : هم أهل الطهارة الحسية : وذلك بتطهير الظاهر ـ البدن ـ من الأنجاس والأرجاس بالوضوء والغسل ونحوه، والمعنوية: بتطهير الباطن ـ القلب ـ من الشرك ، فأخبر سبحانه أنه يحب هذين الصنفين من الناس.

■ وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ، في هذه الآية جمع الله بين محبتهم له ومحبته لهم ، وشرط ذلك باتباع الرسول ﷺ . وهذه الآية تسمى بآية المحنة.

ذكر الحسن البصري ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية ، قال : لما ادعى قوم أنهم أحباب الله ؛ امتحنهم الله بهذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فجعل علامة صدق من ادعى محبة الله تعالى هي اتباع رسوله ﷺ ، ليكون ذلك مميزًا للصادق من الكاذب في دعوى المحبة .

. . . .

وجعل من ثواب هذا الاتباع هذا الفضل العظيم ، والفائدة العظيمة ، وهي محبة الله لهم ، ومغفرته لذنوبهم في قوله : ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١] ، فدلت هذه الآية على أن الله تعالى موصوف بالمحبة .

▪ وقوله تعالى : ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: ٥٤] في هذه الآية قدم الله سبحانه وتعالى محبته على محبتهم ، فهو يحبهم لكونهم عباداً صالحين مطيعين ، ويحبونه لكونه ربًا منعمًا متفضلاً، تفضل عليهم في الدنيا بأن هداهم للصراط المستقيم ، ويتفضل عليهم في الآخرة برضاه عنهم وإدخالهم في جنات النعيم .

▪ وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤]، يعني أنه يحب الذين يجاهدون في سبيله لتكون كلمته هي العليا، فصرح بأنه يحبهم على هذا العمل . فدل ذلك على إثبات صفة المحبة له سبحانه .

▪ وقوله : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ [البروج: ١٤] في هذه الآية: إثبات أن الله تعالى غفور ستار لذنوب عباده ، وأنه هو الودود ، يعني الذي يحب عباده المؤمنين محبة خالصة ؛ لأن الودَّ هو خالصُ الحبِّ ، فهو سبحانه محب ودود لعباده المستغفرين له .

. . . .

سبحانه لإكرامهم وإثابتهم ، وكذلك بغضه وغضبه على بعض الأشخاص يستلزم إهانتهم والانتقام منهم ، فنعلم من ذلك أن هناك فرقًا بين الصفة وبين لازمها . والله أعلم .



٨ - إِثْبَاتُ صِفَةِ الرَّحْمَةِ :

[وَقَوْلُهُ : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] ، ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] ، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ، ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[الأنعام: ١٢]، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]] .



▪ قوله: (وقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا...﴾):

هذه الآيات تتعلق بصفة الرحمة لله تعالى ، فإن من أسمائه سبحانه : الرحمن والرحيم . ومن صفاته : الرحمة وهي كسائر صفاته، نؤمن بها ولا نكيفها ، ولا نمثلها ، ولا نقول : إنها كرحمة المخلوق - يعني أنها ناتجة عن رقة وضعف ، فالمخلوق يتصف بالرحمة كما في قوله تعالى عن نبيه محمد ﷺ : ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ، وكما في قوله ﷺ : « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[1] ، فدل ذلك على أن الإنسان قد يرحم

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٩٤١) كتاب الأدب . والترمذي برقم (١٩٢٤) كتاب البر والصلة . وقال الترمذي : حسن صحيح، وصححه الألباني ، وهو في صحيح الجامع رقم (٣٥٢٢) .

. . . .

وأما الأشاعرة فقالوا: إن المحبة لا تكون إلا في المخلوق، ولا يوصف بها إلا المخلوق؛ لأن المحبة هي : ميل النفس إلى المحبوب بسبب رقة تحصل فيه، قالوا: وهذه نقص، والله منزه عن النقص، فامتنعوا من إثباتها، وقالوا: إن المحبة هي إرادة الإنعام. والغضب، والبغض : هو إرادة الانتقام، ولكنهم أثبتوا الإرادة والمشيئة .

والإرادة هي : ميل النفس لجلب محبوب أو دفع مكروه.

فأثبتوا صفة الإرادة، ونفوا صفة المحبة، مع أن صفة المحبة تتفق مع الإرادة في جلب المحبوب، فوقعوا في المتناقضات، فقال لهم أهل السنة : لماذا أثبتم الإرادة ونفيتم الرحمة ؟ فقالوا: نحن أثبتنا إرادة خاصة بالله جل وعلا، وهي تختلف عن إرادة المخلوق التي تقدم تعريفها . فقال لهم أهل السنة : ونحن أيضًا لا نثبت المحبةالتي تزعمون يعني: محبة خاصة بالمخلوق التي تقدم تعريفها، وإنما نثبت محبة خاصة بالله، تليق بجلاله وعظمته، كما أنكم تثبتون إرادة تليق بجلال الله كما يشاء، فاقطعوا الطريق، وقولوا : نثبت محبة لله تليق به، ولا تتكلفوا في التأويل.

ثم إن الأشاعرة قالوا : إننا استدللنا على إثباتها - يعني الإرادة - بالعقل؛ لأن الفعل الحادث دال على القدرة، والتخصيص دال على الإرادة، وضربوا على ذلك أمثلة، قالوا مثلاً . لو أن هناك أخوين، أحدهما تقي والآخر

. . . .

شقي، أو أحدهما فقير والآخر غني ، أو أحدهما ضعيف والآخر قوي ـ مثلاً ـ .

فهـذا أراد الله به خيراً ، وهذا أراد الله به شراً ، فلما شاهدنا ذلك عرفنا أن الله موصوف بالإرادة . فنحن إذن استدللنا عليها بالعقل ـ هذا زعمهم ـ .

والجواب أن نقول لهم : نحن أيضًا نشاهد أن الله تعالى يكرم أولياءه وينصرهم ، وهذا دليل على أنه يحبهم ، ونشاهد ـ أيضًا ـ أنه تعالى يخذل أعداءه ويهزمهم ، وهذا دليل على أنه لا يحبهم ، بل يكرههم ويبغضهم .

فنصر الله للمؤمنين وتأييدهم والتمكين لهم دليل على أنهم محبوبون لديه . وهزيمة الكفار وخذلانهم وإيقاع العقوبة بهم دليل على أنهم غير محبوبين لديه .

وكذلك إكرام الله للطائعين وإدخالهم الجنة دليل على محبته لهم ، وإهانته العصاة الكافرين وإدخالهم النار دليل على كرهه وبغضه لهم . فدل ذلك على أن المحبة شيء وآثارها شيء آخر .

فالخلاصة أن صفة المحبة ثابتة لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته ، وهي محبة خاصة به ، لا نعطلها ولا نشبهها بمحبة المخلوقين . فمحبة الله سبحانه لبعض الأعمال والأشخاص قد ذكرها في كتابه وذكرها رسوله ﷺ في سنته ، وكذلك فإن محبته لبعض الأشخاص لها لازم، وهو إرادته

. . . .

فنخلص من هذه الآيات بأسباب حصول المحبة من الله للعبد ، وهي :

١ ـ الإحسان وإتقان الأعمال ، كما في الآية الأولى .

٢ ـ القسط والعدل في جميع الأحوال ، كما في الآية الثانية .

٣ ـ تقوى الله سبحانه ، كما في الآية الثالثة .

٤ ـ التوبة والرجوع إليه سبحانه كما في الآية الرابعة .

٥ ـ الطهارة : يعني تطهير القلب وتطهير البدن والثياب من النجاسات ونحوها ، كما في الآية الرابعة كذلك .

٦ ـ اتباع الرسول ﷺ وطاعته ، كما في الآية الخامسة .

٧ ـ الجهاد في سبيل الله ، كما في الآية السابعة .

فهذه بعض الأسباب التي تجلب محبة الله للعبد .

وبعد أن عرفنا أسباب حصول محبة الله تعالى ، وتحققنا أن الله تعالى يوصف بالمحبة ، وأنه يحب عباده المؤمنين ، نعرف أيضًا أنه سبحانه يوصف بالبغض والكره ، فإن البغض والكره ضد الحب ، وقد ذكر الله تعالى أنه لا يحبُّ أقوامًا ، ذكر وصفهم في القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [القصص: ٧٧] ، وقوله : ﴿**وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ**﴾ [البقرة: ٢٠٥] بمعنى أن الله يبغضه ويكرهه ، وصرح تعالى بالكراهية ، كما في قوله تعالى : ﴿**وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ**﴾ [التوبة: ٤٦] يعني كره إثارتهم

. . . .

للجهاد في سبيل الله ، وكذلك أيضًا أثبت لنفسه المقت : وهو أشد البغض ، وقد أثبته الله لنفسه في قوله : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ ﴾ [الصف : ٣] .

وسيأتينا الكلام على ذلك مفصلاً - إن شاء الله تعالى - .

فعرفنا أن الله يحب ويبغض ، وقد أثبت هذه الصفة - يعني صفة المحبة - أهل السنة ، وقالوا : إن الله يحب كما يشاء ، وإن المحبة صفة من صفاته ، وردت بها الآيات والأحاديث ، وقد تقدمت جملة من الآيات .

ومن الأحاديث ، قوله ﷺ : « **إن الله يحب العبد التقي النقي الخفي** »[1] . وقوله : « **إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه** »[2] . فصرح بأن الله يحب .

فأثبتها أهل السنة ، وقالوا : محبة الله ثابتة له كما يليق به ، وهي تختلف عن المشيئة والإرادة ، وعن الرحمة ، وأنكرها المعتزلة والجهمية والأشاعرة ونحوهم ، أما المعتزلة فقد عطلوا هذه الصفة ، ونفوها عن الله تعالى كما نفوا أكثر الصفات .

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩٦٥) في الزهد .

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده برقم (٤٣٨٦) . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ١٠١) ، وقال : رواه أبو يعلى عن عائشة ، وفيه مصعب بن ثابت ، وثقه ابن حبان وضعفه جماعة ، وحسنه الألباني لشواهده ، وهو في السلسلة الصحيحة رقم (١١١٣) .

. . . .

غيره . ولما قَبّل النبي ﷺ أحد أولاد ابنته ، قال له الأقرع بن حابس - رضي الله عنه - : إن لي عشرة من الولد ما قَبّلت أحدًا منهم ، فقال النبي ﷺ : « **أو أملك أن نزع الله من قلبك الرحمة** »[1] .

وكذلك قال أعرابي : أتُقَبّلون الصبيان ، فإنا لا نقبلهم ، فقال رسول الله ﷺ : « **من لا يرحم لا يُرحم** »[2] .

ولما رفع إلى النبي ﷺ ولد ابنته ، وهو في سكرات الموت ، ونفسه تتعقع ، فاضت عيناه ﷺ - يعني بكى - ، فلما سئل عن ذلك قال : « **هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده . وإنما يرحم الله من عباده الرحماء** »[3] .

فدل ذلك على أن الرحمة تكون في قلب الإنسان ، فالرحمة التي في قلبك تظهر آثارها وهي الرقة نحو الذي ترحمه ، يعني أنك ترق على المرحوم

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٩٩٨) في الأدب ، باب : «رحمة الولد وتقبيله ومعانقته» . ومسلم برقم (٢٣١٧) في الفضائل ، باب : «رحمته ﷺ الصبيان والعيال . . .» عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٩٩٧) في الأدب . باب . «رحمة الولد وتقبيله ومعانقته» . ومسلم برقم (٢٣١٨) في الفضائل ، باب : «رحمته ﷺ الصبيان والعيال . . .» عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري برقم (١٢٨٤) في الجنائز ، باب : «قول النبي ﷺ : "**يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه** . . ."» . ومسلم برقم (٩٢٣) في الجنائز ، باب : «البكاء على الميت» . عن أسامة بن زيد رضي الله عنه . ومعنى قوله : ونفسه تقعقع : القعقعة : حكاية حركة الشيء يسمع له صوت . والمعنى : وروحه تضطرب وتتحرك لها صوت وحشرجة كصوت الماء إذا ألقي في القربة البالية .

. . . .

وتعطف عليه، وتشفق عليه، ويكون من آثار رحمتك له: أنك تدله على الخير، وتأمره به، وتحذره من الشر، وأنك تحميه وتواسيه . . . إلخ.

فهذه هي رحمة الإنسان، وهذه هي آثارها، وأما رحمة الله - تعالى - فنؤمن بها على الظاهر، ولا نكيفها، ولا نمثلها، ولا نشبهها برحمة المخلوقين، ونقول: إن من آثارها: كونه يرزق عباده، مؤمنهم وكافرهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: ٥١]، بعد قوله: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠] فجعل - سبحانه - إحياء الأرض من آثار رحمته، وكذلك إرسال السحب، وإنزال المطر من آثار رحمته، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، فجعل رحمته لها آثار، وكأنه لما رحم العباد كان من آثار رحمته إياهم أن رزقهم، وأغدق عليهم الخير.

فهذه من آثار رحمة الله في الدنيا، وهي رحمة عامة للمؤمنين والكافرين، وهذا هو معنى اسمه الرحمن الذي يدل على الرحمة الواسعة الشاملة لجميع الخلق: مؤمنهم وكافرهم، جنهم وإنسهم.

وأما «الرحيم» فهو يدل على الرحمة الخاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فالرحمة العامة للخلق كلهم من آثارها: أنه يرزقهم، ويعطيهم، ويمنحهم ما يشاؤون، وأنه لم يعاجلهم بالعقوبة لو كفروا، ولو فَسقوا، ولو

. . . .

يعاقب فيدخل النار ولو زمناً قليلاً ، فكيف يتحمل عذاب النار وبئس المصير .

خامسًا : أن الله تعالى ذكر في هذه الآية سعة رحمته ، وحدّد المستحقين لها ، فقال : ﴿ **فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ** ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ، ١٥٧] الآية .

فلابد من الاتصاف بهذه الأوصاف حتى تكون من أهل الرحمة ، فالذي يتعلق بالرحمة ولا يأتي بأسبابها لا يكون من أهلها ، فلابد من التقوى وتطهير النفس وتزكيتها بتوحيد الله ، ثم اتباع الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا ، والتقيد بأقواله وأفعاله ، وعدم الخروج عن إرشاداته ، فإن هذا هو حق الاتباع ، فمتى اتصف العبد بهذه الخصال كان من أهل الرحمة ، ولو لم يكن منها إلا التقوى التي وردت في أول الآية السابقة ، والتقوى كلمة عامة جامعة يدخل فيها فعل الخيرات كلها ، وترك المنكرات كلها ، فكيف يتعلق بالرحمة من لم يتصف بتلك الأوصاف .

سادسًا : تأمل في آيات الله تجد أن الله تعالى كلما ذكر الرحمة ذكر بعدها العذاب ، اقرأ قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [الرعد: ٦] . واقرأ قوله تعالى : ﴿ **نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ**

. . . .

الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]. واقرأ قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣].

فقد جمع الله تعالى في هذه الآيات بين الرحمة والعذاب حتى لا يتعلق المُفَرِّطُ بآيات الرحمة، وينهمك في المعاصي ونحوها، بل يكون راجيًا خائفًا؛ إذا قرأ آيات الرحمة رجا، وإذا قرأ آيات العذاب خاف، ويكون الخوف والرجاء له بمنزلة الجناحين - جناحي الطائر - لا يغلب أحدهما على الآخر.



. . . .

فلذلك قال : ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ .

فعرفنا مما سبق من الآيات والأحاديث أن لله تعالى رحمة تليق به ، وهي رحمة أزلية أبدية كاملة شاملة ، كما أنه قد يوصف بعض المخلوقين بالرحمة ، ولكن ليست رحمتهم كرحمة الله ، بل هي رحمة قاصرة وزائلة .

ومع ذلك فقد أنكر صفة الرحمة بعض المبتدعة ، كالأشعرية والمعتزلة ، وقالوا : بما أن الرحمة هي : رقة في القلب ويكون من آثارها : ذل وانكسار للمرحوم ، وبما أن ذلك لا يليق بالله ؛ فلا يجوز وصف الله بها هكذا قالوا . فقلنا لهم : لماذا أثبتم الإرادة ؟

قالوا : أثبتناها بالعقل ؛ لأننا نجد أن الاثنين المستويين قد يخص أحدهما بالخير والهدى دون الآخر ، أو بالصحة دون الآخر ، أو بالغنى دون الآخر ، فعرفنا من ذلك أن الله أراد ، وأنه مريد ، فوصفناه بذلك .

قلنا لهم : فكذلك الرحمة ، لها آثار : فإننا إذا وجدنا أن الله تعالى يرزق هؤلاء ، ويقوي هؤلاء وينصرهم على أعدائهم دلنا ذلك على أنه قد رحم هؤلاء ، وقد غضب على أولئك ومقتهم ، فمثلاً : من آثار رحمته أن أنجى بعض عباده ؛ فأنجى نوحًا ومن معه في السفينة ، وكذلك نجَّى هودًا وصالحًا وشعيبًا والمؤمنين بهم من أممهم ، وكذلك نصر النبي ﷺ ، وَقوَّاه على من كَفَر به من قومه ، وأذلهم حتى رجعوا إلى الإسلام يوم فتح مكة راغبين راهبين ، فدل ذلك كله على أن الله رحمهم لما نصرهم ، وكذلك من آثار رحمته ـ سبحانه ـ : أن نصر المسلمين في صدر هذه الأمة ، فقواهم حتى انتصروا على الدولتين العظميين اللتين كانتا آنذاك وهما : الفرس والروم ، فتغلبوا عليهم

. . . .

وتملكوا بلادهم في نحو خمسٍ وعشرين سنة أو أقل، حتى تَوغَّلوا وتوصّلوا إلى أقاصي البلاد ، فكل ذلك من آثار رحمة الله.

فالرحمة إذن قد دل عليها العقل كما دل عليها النقل ، فدل ذلك على اضطراب هؤلاء المبتدعة وتفريقهم بين المتماثلات .

ورحمة الله تعالى واسعة كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ولكن ينبغي أن نعرف أنه لا يجوز أن نتكل على رحمة الله، فنرتكب المعاصي والكبائر والموبقات ،فإن كثيراً من الناس يرتكبون المعاصي والكبائر وينهمكون في الذنوب ، وإذا عاتبت أحدهم رد عليك قائلاً: رحمة الله واسعة ، الله أرحم بعباده، الله غفور رحيم ، هذه ذنوب صغيرة ،وما أشبه ذلك . **والجواب على ذلك أن يقال له :**

أولاً: إنك إذا أصررت على الصغيرة صارت كبيرة ، فإن الإصرار على الصغائر من جملة الكبائر .

ثانيًا : إنك لا تأمن إذا تهاونت بالصغيرة أن تجرك إلى كبيرة.

ثالثًا: إن المعاصي بريد الكفر ، فإنك إذا أكثرت من الصغائر جرتك إلى الكبائر ، ثم جرتك الكبائر إلى مقدمات الكفر والشرك، ثم إلى الكفر والشرك.

رابعًا: لا تأمن من عقاب الله لك على هذه المعصية حتى ولو كنت مسلمًا موحدًا فإن الله قد يعذب على المعصية ، سيما من تهاون بها مع معرفته بعظم الجرم ولو عقوبة قليلة ، فإن الإنسان لا يتحمل شيئًا من غضب الله ومن ناره ، فقد

. . . .

عَصوا ؛ لأنهم عباده وخَلْقُهُ ، فهو يرزقهم ويعافيهم ويمهلهم، وإن كانوا مستحقين للعقوبة ، ولكن يرحمهم في الدنيا .

أما رحمة الله للمؤمنين ، فإن لها أيضًا آثارًا ، **فمن آثارها في الدنيا** : أنه تعالى يهديهم ، ويوفقهم ويسدد خطاهم ، ويُقيم معوجهم، ويتوب على من تاب منهم ، ويقبل أعمالهم ويضاعفها ، وما أشبه ذلك .

ومن آثارها في الآخرة : أنه يتجاوز عن المسيء ، ولو كانت سيئاته كثيرة، إذا كان معه أصل التوحيد ، وأصل الإيمان ، وأنه يرفع درجات المُحسن ، ويُضاعف له الأجر .

وقد قال ﷺ : « **جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها ؛خشية أن تصيبه** »[1] . وفي لفظ: « **إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة ، كل رحمة طباقٌ ما بين السماء والأرض ، فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطف الوالدة على ولدها ، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة** »[2] .

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠٠٠) في الأدب، باب: «جعل الله الرحمة مائة جزء». ورقم (٦٤٦٩) بنحوه في الرقاق . ومسلم برقم (٢٧٥٢) [١٧] في التوبة، باب: «في سعة رحمة الله تعالى». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٥٢) [٢١] في التوبة، باب: «في سعة رحمة الله تعالى». عن سلمان رضي الله عنه.

. . . .

ومن آثار هذه الرحمة التي أنزلها : أن الدابة ترفع حافرها عن ولدها؛ خشية أن تصيبه ، فإذا كان يوم القيامة رَحِمَ الله عباده بهذه التسع والتسعين رحمة الباقية ، وذلك لأن الخلق كلهم يجتمعون من أولهم إلى آخرهم ، فيرحمهم بهذه الرحمة الواسعة التي هي تسعة وتسعون . والمقصود بذلك هو التمثيل لما خلقه الله من الرحمة بعباده ، وليس المقصود هو انقسام صفة الرحمة إلى تسع وتسعين .

فنقول : إن الله متصف بأنه يرحم ، وبأنه راحم ، وبأنه قد رَحِمَ ، وبأنه رحْمَن ورحيم ، وكما أن الله تعالى ذكر الرحمة في القرآن بالاسم والصفة ، فقد ذكرها بصيغة الفعل الماضي ، ﴿ **إلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ** ﴾ [هود: ١١٩] ، وقال : ﴿ **إلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ** ﴾ [الدخان: ٤٢]. فدل ذلك على أن الله تعالى موصوف بالرحمة بلفظ الفعل، وذكرها بأفعل التفضيل ، كقوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ [يوسف: ٦٤] ، فدل ذلك على أن الخلق يرحمون، ولكن الله أرحم ، أي : أرحم منهم، بل أخبر النبي ﷺ بعظيم رحمته لعباده ، لما رأى امرأة أضاعت ولدها ، ثم وجدته فألزقته ببطنها ، وضمته إلى صدرها وألقمته ثديها ، فقال: « **الله أرحم بعباده من هذه بولدها** »[1] يعني أنه رحيم بهم فلا يعاجلهم بالعقوبة، ورحيم بهم فيتجاوز عن سيئاتهم، ويضاعف حسناتهم ،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٩٩٩) في الأدب ، باب: «رحمة الولد وتقبيله ومعانقته». ومسلم برقم (٢٧٥٤) في التوبة، باب: «في سعة رحمة الله تعالى». عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٩ ـ إِثْبَاتُ صِفَاتِ الرِّضَى وَالغَضَبِ والسُّخْطِ والأَسَفِ والكُرْهِ والمَقْتِ:

[قوله : ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨] ، ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾[النساء: ٩٣]، وقوله : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٨] ، ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقوله: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]، وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]] .



■ قوله: (قوله: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ...):

هذه الآيات تضمنت صفات فعلية لله جل وعلا ، وكما هو معلوم أن صفات الله تعالى على قسمين :

الأول: الصفات الذاتية.

والثاني: الصفات الفعلية .

والفرق بينهما أن الصفات الذاتية هي الصفات اللازمة للموصوف دائمًا، مثل: صفة الوجه، واليد، والسمع، والبصر ، والكلام، والحياة ، والعلم ، والقدرة ، ونحوها، فهي صفات ملازمة لله سبحانه ، يعني أنها ملازمة لذاته سبحانه ، لا تنفك عنه بوجه من الوجوه .

. . . .

أما الصفات الفعلية: فهي الصفات التي يفعلها إذا شاء متى شاء لا على وجه الدوام ، وقد تُعرَّفُ بأنها التي تقوم بالموصوف وقتًا ، ويقوم به ضدها في وقت آخر ، مثل صفة النزول ، والمجيء ، والإتيان ، والرضا ، والغضب ، ونحوها .

• وقد تضمنت **الآية الأولى** : إثبات صفة الرضى لله سبحانه وهي قوله سبحانه : ﴿ **رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** ﴾ [البينة: ٨] والرضا في المخلوق: هو انبساط القلب إلى المرَضيّ عنه ، وظهور البشْر والفرح والسرور عليه، هذا في حق المخلوق، أما الرضا في حق الله: فإنه حقيقي ، ولكن لا نكيفه ، ولا ندري ما كيفيته .

والدليل على أنه الرضا الحقيقي أنه قارنه برضا المخلوق ﴿ **رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** ﴾ في عدة آيات في القرآن ، منها هذه الآية في آخر سورة البينة ، ومنها الآية التي في سورة التوبة : ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فأثبت أنه رضي الله عنهم ، فدل على أنه يرضى ، وأنهم رضوا عنه . ورضاهم : قناعتهم بما أعطاهم ، كما في الحديث الصحيح : « **إن الله تعالى يقول لأهل الجنة : هل رضيتم ، فيقولون: وما لنا لا نرضى ، وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحدًا من العالمين ؛ ألم تبيض وجوهنا ، ألم تثقل موازيننا ، ألم**

١٠ ـ إثْبَاتُ صِفَتَي الإتْيَانِ وَالْمَجيءِ:

[وَقَولُه: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾[البقرة: ٢١٠]، ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ، ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢١، ٢٢] ، ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً ﴾ [الفرقان: ٢٥]].

الشرح

■ قوله: (وقوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ... ﴾):

هذه الآيات فيها إثبات مجيء الله تعالى وإتيانه لفصل القضاء كما يشاء، وكما يليق بجلاله، وقد جاءت بلفظ المجيء، وبلفظ الإتيان، فيجب إثبات هاتين الصفتين الفعليتين لله تعالى كما يليق بجلاله وكماله.

● **الآية الأولى**: في سورة البقرة: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾.

قال بعض السلف: إن الملائكة هي التي تأتي في ظلل من الغمام، والله تعالى يأتي فيما يشاء، ففرَّق بين إتيانه وإتيان الملائكة، فقال: يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة، يعني: وتأتي الملائكة.

وقيل: إن الظُّلَل هي الملائكة، يعني أنه يأتي، وكذلك الملائكة تأتي

. . . .

وكأنهم ظلل من الغمام ، والغمام هو : قطع السحاب المتفرق الذي يكون ظلاً دون الشمس . فشبه إتيان الملائكة بالغمام لكثرتهم ؛ حيث إنهم يسدون الأفق .

● **أما الآية الثانية** : في سورة الأنعام ، وهي قوله تعالى : ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ**﴾ [الأنعام: ١٥٨] .

فهي - أيضًا - صريحة في إتيان الله تعالى ، لأنها جاءت بلفظ الإتيان ، أو يأتي كما في قوله : ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ**﴾ يعني : هل ينتظر هؤلاء المكذبون الجاحدون إلا أن تنزل عليهم الملائكة بالعذاب في الدنيا ، أو تأتيهم الملائكة في الآخرة، وقوله: ﴿**أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ**﴾ يعني هل ينتظرون إلا يوم القيامة الذي يأتي الله فيه لفصل القضاء ومحاسبة العباد ، ففيه دليل على الفرق بين قوله : ﴿**أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ**﴾ ، وقوله : ﴿**أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ**﴾ ، فدل ذلك على إثبات إتيان الملائكة وإتيان الله سبحانه وتعالى .

وقوله : ﴿**أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ**﴾ يعني : أو هل ينتظرون إلا أن تأتيهم عقوبة الله لهم ، أو آياته المعجزات الباهرات التي يريها عباده . ثم بعد ذلك ﴿**يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا**﴾ .

يعني : إذا أتت آية من آيات الله ؛ فإنه يُختم بعدها على الأعمال ، فلا يقبل من نفس إيمانها بعد الكفر إذا لم تكن مؤمنة من قبل ، بل كلٌّ يبقى على

. . . .

هو غليان دم القلب لطلب الانتقام ، وهذا لا يليق بالله ، فيقال لهم : إن هذا ما تعرفونه من صفات المخلوق ، فأما غضب الخالق فهو كما يليق به ، والآيات في الغضب أيضًا كثيرة منها قوله تعالى في آية اللعان : ﴿ **وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [النور : ٩] . فدل على أن الله يغضب إذا شاء .

• **الآية الخامسة** : وهي قوله تعالى : ﴿ **وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ** ﴾ [التوبة : ٤٦]، الشاهد قوله : (**كره**) ففيه إثبات الكره والكراهة بمعنى البغض ، دل على أن الله يكره ويبغض إذا شاء ، ومعنى الآية : أن الله تعالى كره خروج المنافقين مع المؤمنين للقتال ، فحبسهم عن ذلك لحكمة .

فكُره الله لخروجهم يفيدنا إثبات صفة الكراهية ، وهي أيضًا من الصفات الفعلية التي يتصف بها إذا شاء متى شاء .

• **الآية السادسة** : وهي قوله تعالى : ﴿ **كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الصف : ٣] فيها إثبات المقت ، ومثلها قول الله تعالى : ﴿ **لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ** ﴾ [غافر : ١٠] . والمقت : هو البغض الشديد ، دل ذلك على أن الله يمقت أي يبغض وهو ضد الحب ، وورد في الأحاديث إثبات صفة البغض لله تعالى كما في الحديث الصحيح : « **إن الله إذا أبغض عبدًا نادى جبريل ، فقال : إني أبغض فلانًا فأبغضه** »(١) .

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٣٧) في البر والصلة ، باب : «إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده» . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

. . . .

فيجب علينا إثبات هذه الصفات التي جاءت في الكتاب والسنة، وهي: صفة المقت والكراهية ، وهي متقاربة ، والكراهية ضد المحبة ، ويجب إثبات الغضب والأسف ، وهي متقاربة ، واللعن والسخط والأسف .

وهذه الصفات ـ كما تقدم ـ هي صفات فعلية ـ يفعلها الله إذا شاء متى شاء ـ كما يليق به سبحانه، فنثبتها له سبحانه من غير تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل ولا تكييف ، فالله سبحانه يرضى إذا شاء ويغضب إذا شاء ويحب إذا شاء ، ويكره ويبغض إذا شاء . . . إلخ .

فهي صفات فعلية اختيارية ، قد تسمى أفعالاً بالنسبة إلى ورودها بلفظ الفعل : كره ورضي ، فهي أفعال ، وتسمى صفاتًا ؛ حيث إنه يتصف بها ذلك الكاره والمحب ، والمبغض ونحوه . ويجب إثبات كل ذلك على ما يليق بجلال الله وكماله .

❁ ❁ ❁

. . . .

تدخلنا الجنة وتنجينا من النار . . .الحديث» فهذا رضا المخلوق ، وأما رضا الخالق فهو ـ كما في بقية الحديث ـ أنه سبحانه يقول لهم : « **أُحِلُّ عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**»[1] ، فأثبت أنه يرضى ، وأن له رضى ، وأثبت ضده وهو السخط ، ومن الأدلة على أن الرضى هو ضد السخط .

• **الآية الثانية**: وهي قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ** ﴾ [محمد: ٢٨] السخط هو الغضب ، وهو ضد الرضا وقد أثبت الله لنفسه الغضب ، وأثبت لنفسه السخط ، ووصف نفسه بأنه يسخط ويرضى ويغضب .

فهؤلاء المنافقون: ﴿ **اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ** ﴾ يعني اتبعوا الشيء الذي يسخطه ويغضبه ، وهو عصيانهم وتمردهم عن طاعة الله .

وفي حديث الشفاعة المشهور يقول آدم ونوح وإبراهيم : « **إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله** »[2] .

فدل على أن الغضب صفة حقيقية ثابتة يتصف بها سبحانه إذا شاء متى

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٤٩) في الرقاق ، باب : «صفة الجنة والنار» . ورقم (٧٥١٨) في التوحيد . ومسلم برقم (١٨٣) في الإيمان ، باب : «معرفة طريق الرؤية» . عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٣٤٠) في أحاديث الأنبياء ، باب : «قول الله عز وجل : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ** ﴾» ، ومسلم برقم (١٩٤) في الإيمان ، باب : «أدنى أهل الجنة منزلة فيها» . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

. . . .

شاء ، فهي من الصفات الفعلية ، ثم قال : ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ فذكره بالاسم - رضوانه - أي رضاه ، وقد ورد الرضا بالاسم والفعل .

• **الآية الثالثة**: وهي قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥] فيها أيضًا إثبات ضد الرضى وهو الأسف بمعنى الغضب أو شدة الغضب . قوله : ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ يعني أغضبونا ، جعل الأسف مكان الغضب ، يعني : أنهم اتبعوا الشيء الذي غضب الله عليهم لأجله ، وقد سمى الله الغضب أسفًا في قوله : ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠] يعني غضبان غضبًا شديدًا .

فنقول: إن الله سبحانه يغضب ويأسف ويسخط كما يشاء، وهي من الصفات الفعلية .

• **الآية الرابعة** : وهي قوله تعالى : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] .

والشاهد منها قوله : ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ ففيها إثبات الغضب واللعن ، واللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله ، والغضب صفة فعلية يتصف الله بها إذا شاء ، وقد أثبتها أهل السنة لله سبحانه على ما يليق به ، ونفاها غالب المبتدعة ؛ كالأشاعرة ، والمعتزلة ونحوهم ، فإنهم ينكرونها ، يقولون: لانعرف الغضب إلا أنه خاص بالمخلوق ، ويقولون: إن الغضب

. . . .

ما هو عليه من الإيمان أو الكفر قبل نزول أو ظهور تلك الآية ، وذلك لقرب قيام الساعة.

وفسرت هذه الآية بأنها طلوع الشمس من مغربها يعني: يوم تطلع الشمس من مغربها ، هنالك في ذلك الوقت لا ينفع نفسًا إيمانها ؛ لأن الإيمان في ذلك الحين يكون قد انتهى واكتمل ، فليس بعده إيمان؛ لأن الناس قد رأوا ذلك عياناً فلا ينفعهم الإيمان ، فمن أراد أن يؤمن أو يزداد إيمانًا بعد ظهور تلك الآية فلا يقبل منه ذلك ولا ينفعه ، وقد ورد في الحديث : « **إن الشمس إذا طلعت من مغربها ورآها الناس؛ آمنوا كلهم أجمعون** » قال النبي ﷺ : «**فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا**»[١] ، وفي الحديث : « **لا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من مغربها**»[٢] ، وفي حديث آخر ، قال ﷺ : « **لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها** »[٣] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٦) في الرقاق، باب: «٤٠». ومسلم برقم (١٥٧) في الإيمان، باب: «بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٩٢) وصححه الألباني أثناء كلامه على الحديث رقم (١٦٧٤) من السلسلة الصحيحة. وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (١٦٧١): إسناده صحيح.

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٢٤٧٩) في الجهاد ، وأحمد في المسند (٤/ ٩٩). والدارمي (٢/ ٢٣٩، ٢٤٠) رقم (٢٥١٣). وأورده الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٥٠، ٢٥١). والطبراني في الكبير (٩/ ٣٨٧). وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٤٦٩). وانظر السلسلة الصحيحة للألباني (٤/ ٢٤٠). والمشكاة (٢٣٤٦). والإرواء (١٢٠٨). ويشهد له حديث أحمد السابق.

. . . .

فدل ذلك على أنها إذا طلعت من مغربها انقطعت التوبة ، وفيه حث الإنسان أن يستعجل ويبادر بالتوبة قبل أن يأتي وقت لا تقبل فيه توبته ، فيندم على ذلك أشد الندم .

• **أما الآية الثالثة** : في سورة الفجر ، وهي قوله تعالى : ﴿ **كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا** ﴾ [الفجر : ٢١ ، ٢٢] .

هذا أيضًا في يوم القيامة ، ومعنى قوله : ﴿ **دُكَّتْ** ﴾ أي رُصَّت ومدت كما في الآية الأخرى : ﴿ **وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ** ﴾ [الانشقاق : ٣]، وقوله تعالى : ﴿ **فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا** ﴾ [طه : ١٠٦ ، ١٠٧] .

فيوم القيامة تمد الأرض مدًا كبيرًا ، بحيث تتسع للأولين والآخرين من الجن والإنس والملائكة ، وكذلك تسوى بحيث تكون مستوية لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا ، لا ترى فيها خفض ولا رفع ولا قصر ولا جبل ولا شجر .

الشاهد قوله تعالى : ﴿ **وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا** ﴾ . يعني جاء الله وجنس الملك وهم الملائكة صفوفًا ، فهذه الآية فيها إثبات صفة المجيء لله تعالى .

• **أما الآية الرابعة** : من سورة الفرقان ، وهي قوله سبحانه : ﴿ **وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً** ﴾ [الفرقان : ٢٥] . يعني أنه في يوم القيامة تشقق السماء وتتقطع قطعًا وتكون كأنها غمام لكثرة قطعها وتفاوتها .

. . . .

وقد ذكر الله تعالى في آيات أخرى أن السماوات تتقطع وتتفطر كما في قوله : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ [الانشقاق : ١]، وقوله : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾ [الانفطار : ١] ، وقوله : ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ [النبأ : ١٩] ، وقوله : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ [المعارج : ٨] .

فالحاصل أن السماء تتقطع وتكون كالغمام ، وينزل الملائكة الذين فيها : ﴿ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً ﴾ [الفرقان : ٢٥] . فدل ذلك على أن الملائكة ينزلون .

نأخذ من هذه الآيات إثبات إتيان الله ومجيئه . وهاتان الصفتان من الصفات الفعلية الغيبية التي نؤمن بها ولا نكيفها، ولا نمثلها، بل نقول : إن الله تعالى يأتي كما يشاء وإن مجيئه يليق به، ولا يلزمنا من ذلك القول بأن العرش يخلو منه أو أنه لايخلو ، أو أن العرش يكون فوقه ، أو أن يكون شيء من المخلوقات حاصراً له ، تعالى الله عن ذلك .

بل نقول : إن الرب تعالى أعظم وأجل من أن يحيط به شيء من خلقه ، وإذا أتى فلا يلزم أن يكون محاطاً به ، قال تعالى : ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وقال : ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٠] ، فلا يحيط بالله شيء من خلقه ، بل هو المحيط بهم. كما في قوله تعالى : ﴿ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] . ففي هذه الآيات إثبات المجيء .

. . . .

وكذلك ورد في أحاديث كثيرة إثبات المجيء والنزول ونحو ذلك، كحديث النزول: «**ينزل ربنا إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر...**»(١) فأهل السنة يثبتون هاتين الصفتين، ويمرونهما كما جاءتا من غير تكييف أو تمثيل أو تعطيل.

وأما المبتدعة: من أشعرية ومعتزلة وشيعة ونحوهم، فقد أنكروا مدلول هذه الآيات ونحوها، وقالوا: إن المراد إتيان أمره سبحانه، فلذا يقولون في الآية الأولى: هل ينظرون إلا أن يأتيهم أمر الله، وأن قوله: ﴿**أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ**﴾ [الأنعام: ١٥٨] أي: أمر ربك، وكذلك قوله: ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ**﴾ [الفجر: ٢٢] أي: جاء أمر ربك، فيجعلون في الآية إضماراً، وهو خلاف الأصل؛ لأن الأصل أنها لا تحتاج إلى مضمر، بل هي على ظاهرها كما هي، ولا يجوز التكلف في رد هذه النصوص، أو في تأويلها.

واستدلوا على ضلالهم بمثل قوله تعالى في سورة النحل: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ**﴾ [النحل: ٣٣] ونقول: نعم؛ هذه صريحة في أن المراد بأمره يعني: عذابه ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ**﴾ يعني بالعذاب ﴿**أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ**﴾، يعني: أن يأمر ربك بعذاب كصيحة أو رجفة أو ريح مهلكة وما أشبه ذلك، فهذا لا شك فيه ولا إشكال، أن تأتيهم

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٤٥) في التهجد، باب: «الدعاء والصلاة من آخر الليل». ومسلم برقم (٧٥٨) في صلاة المسافرين، باب: «الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه» عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

الملائكة بالعذاب بأمر من الله ، أو يأتي ربك بالعذاب ، فهناك فرق بين قوله : ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ ، ويبن قوله : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبِّكَ﴾ بالمضارع والمستقبل .

وأما الآيات التي يأتي فيها الإتيان بلفظ الماضي ، كقوله تعالى في قصة بني النضير في سورة الحشر : ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢] هنا المراد بقوله : ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي : بالعذاب ، أتاهم الله بجنده وحزبه المفلحين فسلطهم عليهم ، فحاصروهم وهزموهم ، فمثل هذا ظاهر البيان ؛ لأنه في الدنيا وبالماضي ، فلا يحتاج إلى أن يقاس عليه ما هو من خصائص الغيب والأمور الأخروية .

فهذه العقوبة التي تنزل بالناس في الدنيا مثل الريح أو الصيحة أو الرجفة ، أو مثل الزلازل أو البراكين أو الخسف - يعني خسف بعض الأماكن لتغير في باطن الأرض - كما يحدث في هذه الأيام - نقول : إن ذلك من أمر الله، ولا يستطيع أحد رده ، ونقول للذين يعللون ذلك - يعني الزلازل والبراكين - بأنها ظاهرة طبيعية أو نحو ذلك : عالجوها وأمسكوها بقوتكم وباختراعاتكم وأجهزتكم ، فإذا كان بركانًا في الأرض ، فلماذا لا تمسكونه ؟ أمسكوه حتى لا ترتجف الأرض وتتزلزل ، أو اصرفوا وادفعوا هذه الريح حتى لا تقع البيوت وتقطع الأشجار ، وردوها من حيث جاءت .

فالحاصل أن ذلك كله من أمر الله ، فهو سبحانه يسلط على عباده أنواعًا

. . . .

وصنوفًا من العذاب ، وهذا في الدنيا كما تقدم .

وأما قوله تعالى : ﴿ **أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ** ﴾ فهو في الآخرة، يأتي إتيانًا يليق بجلاله وكماله كما يشاء ، فلا نكيف ولا نمثل ولا نشبه مجيئه بمجيء الإنسان أو المخلوقات ، ولا نقول : إنه إذا جاء يكون محصوراً مجيئه في شيء من مخلوقاته ، بل هو الذي ﴿ **لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا** ﴾ [طه: ١١٠] ، ﴿ **وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥] .



١١ - إثْبَاتُ صِفَةِ الوَجْه :

[وَقَوْلُه : ﴿ ويبقَىٰ وَجْهُ ربِّكَ ذُو الْجَلال وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧] ، ﴿ كُلُّ شيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨]] .



■ قوله: (وقوله: ﴿ ويبقَىٰ وَجْهُ ربِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ ...):

هاتان الآيتان دلتا على إثبات الوجه لله تعالى كما يشاء ، وقد وردت في القرآن آيات كثيرة فيها إثبات الوجه، كقوله تعالى : ﴿ ولا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام: ٥٢] وكذلك قوله : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الكهف: ٢٨] . أي يقصدون وجه الله بالرضا ، أي رضا وجهه سبحانه ، وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ [الإنسان: ٩] أي: ابتغاء رضاه سبحانه .

ورد أيضًا في السنة أحاديث كثيرة تثبت الوجه لله تعالى، منها قوله ﷺ : «**وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»[1] ، وكقوله ﷺ عن ربه : « **حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت**

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤٤٤) في التوحيد . باب: «قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾»، ومسلم برقم (١٨٠) في الإيمان، باب: «إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى» عن عبد الله بن قيس رضي الله عنه .

. . . .

سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[١] ، وقوله : «**أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم** »[٢] وغيرها من الأحاديث .

فيجب إثبات صفة الوجه لله تعالى كما يشاء الله ، وكما يليق بجلاله وكماله ، وهو صفة ذاتية أثبتها الله لنفسه ولم يخبرنا بكيفيتها ، وإذا أثبتنا الصفة توقفنا عن الكيفية ، لأن الله تعالى ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

ومن جملة صفاته : صفة الوجه ، فليس وجهه كوجه المخلوقين ، بل هو صفة تليق به سبحانه . وقد أنكر المعطلة الوجه لله تعالى ، وقالوا : إن المراد بالآيتين المتقدمتين هو بقاء ذاته ؛ لأنه يستحيل أن يبقى وجهه وحده بدون ذاته ، ونرد عليهم بأنه سبحانه قد أضاف الوجه إليه في كلتا الآيتين ﴿ **وَجْهُ رَبِّكَ** ﴾ [الرحمن : ٢٧] ، ﴿ **وَجْهَهُ** ﴾ . فدل ذلك على اتصافه بالوجه .

ولكن نقول : إن المقصود ببقاء وجهه هو بقاء ذاته سبحانه ، فلا يدعونا ذلك إلى إنكار صفة الوجه وتعطيلها أوتأويلها وتحريفها بأنه الجهة أو الثواب أو نحوذلك . وكذلك لا يلزم من إثبات الوجه لله تعالى وصفه سبحانه بأن له جسمًا مكونًا من أعضاء وجوارح ونحو ذلك ، بل نثبت ذلك لله كما يشاء من غير تعطيل ولا تكييف ولا تشبيه .

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٧٩) في الإيمان ، باب : «في قوله عليه الصلاة والسلام : «**إن الله لا ينام**»» . وفي قوله : «**حجابه النور** . . .» . عن أبي موسى رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٤٦٦) في الصلاة . وصححه الألباني ، وهو في صحيح الجامع رقم (٤٧١٥) .

١٢ ـ إِثْبَاتُ صِفَةِ الْيَدَيْنِ :

[وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥]، ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [المائدة: ٦٤]].

الشرح

■ قوله: (وقوله: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ...):

هاتان الآيتان أوردهما المصنف ـ رحمه الله لإثبات اليدين لله سبحانه وتعالى حقيقة على ما يليق به .

● **الآية الأولى**: قوله تعالى في سورة « ص» : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ، فيها إثبات أن الله تعالى خصَّ آدم ـ عليه السلام ـ بأنه خلقه بيديه سبحانه ، فأثبت الله تعالى لنفسه يدين حقيقيتين على ما يليق بجلاله وكماله . وقد حرف ذلك المعتزلة والأشعرية ، فقالوا: المراد خلقته بقدرتي أو خلقته بنعمتي يعني أن المراد باليد : القدرة أو النعمة. **ويجاب عليهم بجوابين:**

الأول: بأن يقال لهم : أليس إبليس مخلوقًا بقدرة الله ؟ إذًا يأتي إبليس يقول: وأنا يا رب خلقتني بقدرتك ، فلا يكون لآدم فضيلة وميزة على إبليس؛ لأن الجميع مخلوقون بقدرة الله. وكذلك فإن الجميع مخلوقون

. . . .

بنعمته ، ليس أحد مستقلاً بنفسه ، وكلٌ منهم منعم عليه ، فإبليس قد أنعم الله عليه بخلقه وإيجاده ، فكيف يقول الله تعالى لإبليس : اسجد لآدم الذي خلقته بنعمتي وقدرتي ، مع أن إبليس مخلوق بنعمة الله وقدرته ؟! ، فلو كان المراد باليد : النعمة والقدرة ، لقال إبليس : وأنا كذلك يارب خلقتني بقدرتك ونعمتك ، فدل ذلك على تفضيل الله لآدم بأنه خلقه بيديه الحقيقيتين كما يشاء .

الجواب الثاني: أن الله سبحانه وتعالى ذكر « اليد » بلفظ المثنى ، فقال : ﴿**لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾ [ص: ٧٥] ولم يقل « بيدنا» بل ذكرها بلفظ التثنية ، والله تعالى لا يوصف بأن له قدرتان فقط ، فلا يقال : « بقدرتينا» ؛ لأن قدرة الله عامة شاملة ولا تحصر بعدد ، وكذلك لا يقال: « بنعمتيَّ » ؛ لأن نعم الله كثيرة لا تعد، ولا تحصر باثنتين فقط ، فدل ذلك على أن المراد بذلك إثبات يدين حقيقيتين لله تعالى كما يشاء .

وبعض المبتدعة يقولون : إن المراد بقوله: ﴿**لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾ . يعني: توليت خلقه، وليس المراد إثبات اليد، بل المراد إثبات تولي ذلك والعناية به.

والجواب عن ذلك بأن يقال: إن جميع المخلوقات قد تولى الله خلقها ، فلماذا ذكر الله ذلك في تمييز آدم على إبليس مع أن إبليس وآدم قد تولى الله خلقهما جميعًا ؟ فدل ذلك على أن المراد باليدين هما الحقيقيتان على ما يشاء تعالى.

. . . .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ [الذاريات: ٤٧] فالمراد بذلك : القوة ، فليس الأيد جمع يد بل الأيد : هو القوة، وقد استخدمها العرب بذلك كما يقال: فلان له أيد، يعني قوة ، وفلان يملك أيدًا، يعني: قوة . ولا يقال: فلان يملك أيديًا ، كما قال الله تعالى عن داود ـ علية السلام ـ ﴿ ذَا الأَيْدِ ﴾ ، أي ذا القوة في عبادة الله ، فليس المراد بالأيد هنا جمع يد ، بل المراد بالأيد القوة .

● **الآية الثانية** : قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [المائدة: ٦٤] قولهم: يد الله مغلولة أي عن النفقة والعطاء، يعني أنه لا ينفق ، والعرب تعبر عن البخل بغَلّ اليد ، كما قال تعالى : ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩] .

أي لا تجعل يدك مغلولة بحيث إنك لا تنفق ولاتتصدق مما في يدك، وقوله: ﴿ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ يعني: لا تزد في النفقة إلى درجة الإسراف، فالمراد بقولهم: ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ يعني عن النفقة ، أي لا ينفق بها ـ سبحانه وتعالى ـ فقال تعالى ردًا عليهم : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ يعني مبسوطتان بالعطاء وبالرزق وبالفضل على العباد ، فالمقصود ببسط اليد هو : كثرة العطاء وكثرة الإنفاق الذي هو أهله، فدل ذلك على إثبات اليدين لله تعالى كما يليق بجلاله؛ لأن التعبير ببسط اليد ، وإن كان

. . . .

المقصود به كثرة النفقة والعطاء ، لكنه لا يجوز إطلاقه إلا على من اتصف بهذه الصفة في الأصل .

وقد وردت أيضًا بالجمع كما قال تعالى : ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا** ﴾ [يس : ٧١] أي مما خلقنا ، فلماذا ذكرها الله بلفظ الجمع - أيدينا - ؟

الجـــواب : أن ذلك يستخدم في لغة العرب للتعظيم والتفخيم وليس للجمع ، كما في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر : ٩] ، فقوله : « **إنا** » يعني : الله نفسه ، وذلك للتعظيم ، فالذي يعظم نفسه ، يذكر نفسه بلفظ الجمع ، يقول مثلاً : ربحنا وخسرنا وأحضرنا وأمرنا وأعطينا ، ومنعنا ، ونحو ذلك ، والضمير يعود على شخص واحد ، فكأنه يعظم نفسه ، والله سبحانه وتعالى أحق بالتعظيم ، وبأن يعظم نفسه ، فكذلك قوله : ﴿ **خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا** ﴾ ، أيدينا هنا بلفظ الجمع لأجل التعظيم ، جمع اليد وأضافها إلى ضمير الجمع والمقصود هو ذات الله تعالى .

وقد ورد ذكر اليد بصيغة المفرد كما في قوله تعالى : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ** ﴾ [الملك : ١] ، وقوله : ﴿ **وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [آل عمران : ٢٦] ، والمقصود بها الجنس - جنس اليد - لا العدد ، ووردت بلفظ اليمين كما في قوله تعالى : ﴿ **وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** ﴾ [الزمر : ٦٧] .

ووردت بلفظ القبض ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ**

. . . .

الْقِيَامَةِ ﴾ [الزمر: ٦٧] فهذه الأدلة صريحة في إثبات اليد الحقيقية لله سبحانه وتعالى، وفيها رد على المعتزلة الذين يحرفونها كما يشاءون، فيقولون: إن المراد باليد: القدرة، أو النعمة، أو المراد بذلك: التهويل - تهويل الأمر - وليس هناك أمور حقيقة، وهذا كله من تحريف الكلم عن مواضعه وإضلال الله لهم.

كذلك أيضًا وردت في السنة أحاديث كثيرة صحيحة صريحة في إثبات اليدين الحقيقيتين لله تعالى على ما يليق به، لا يستطيع المعتزلة وغيرهم تأويلها - تحريفها - كقوله ﷺ: « **المقسطون يوم القيامة على منابر من نور على يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين مباركة، الذين يعدلون في أنفسهم وأهليهم وما ولوا** »[(١)].

فقد ذكر هنا لفظ « اليمين » وذكر لفظ « اليدين »، ومعنى قوله: « **وكلتا يديه يمين** » من اليمن الذي هو البركة والخير، وكذلك في قوله ﷺ: « **يمين الله ملأى، لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفقه منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه، وبيده الأخرى القسط يخفض ويرفع** »[(٢)].

وذكر ابن كثير أحاديث كثيرة عند قوله تعالى: ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** ﴾ [الزمر: ٦٧] في قبض الله للمخلوقات يوم القيامة، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: « **يطوي**

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٨٢٧) في الإمارة، باب: «فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر». عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧٤١٩) في التوحيد، باب: «﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾». ومسلم برقم (٩٩٣) [٣٧] في الزكاة، باب: «الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

الله السماوات بيمينه ويقبض الأرض بيمينه »[١] .

ومثل قول ذلك اليهودي للنبي ﷺ : « إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء على إصبع ، والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، فيقول : أنا الملك »[٢] ، وقوله ﷺ : « **قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء** »[٣] .

وفي حديث آخر ، قال ﷺ : « **يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ، ثم يطوي الأرضين السبع ، ثم يأخذهن بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون؟** »[٤] .

وقال ابن عباس - رضي الله عنه - : « ما السماوات السبع والأرضون

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٣٨٢) في التوحيد، باب : «قول الله تعالى : ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾» . ومسلم برقم (٢٧٨٧) في صفات المنافقين، باب : «كتاب صفة القيامة والجنة والنار» . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧٤١٤) في التوحيد، باب : «قول الله تعالى : ﴿لما خلقت بيدي﴾» . ومسلم برقم (٢٧٨٦) [١٩ ، ٢١] في صفات المنافقين، باب : «كتاب صفة القيامة والجنة والنار» . عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٦٥٤) في القدر، باب : «تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء» . عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه .

(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٧٨٨) في صفات المنافقين، باب : «كتاب صفة القيامة والجنة والنار» . عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه .

. . . .

السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم» .

فتحصل لنا من هذه الآيات والأحاديث ؛ أن لله يدين حقيقيتين كما يشاء، وأنه يقبض بهما ويبسط ، ويرفع ويخفض ، وأن له أصابع . . . إلخ .

والغرض والقصد من تعلمنا ومعرفتنا لهذه الصفات العلى لله جل وعلا عدة أمور :

الأمر الأول: أنها صفات كمال ليس فيها نقص بوجه من الوجوه .

الأمر الثاني: أنه يجب على المسلم أن يتبع النصوص ويصف الله تعالى بما وصف نفسه، أو وصفه رسوله ، ولا يحرف ولا يعطل ولا يمثل ولا يشبه .

الأمر الثالث: أن فيها تعظيمًا للمتصف بها ، سيما إذا اعتقد من وصفه بها عدم مشابهتها لصفات المخلوقين ، واعتقد عظمتها وعدم إحاطة شيء من المخلوقات بها ، فإن الإنسان متى اعتقد أن الله يقبض السماوات السبع بيمينه ـ مع عظمتها ـ والأراضين السبع بشماله مع سعتها ، عرف عظمة خالقه وإلهه ، ولم يجرؤ على معصيته .

كيف يعصيه هذا الآدمي الضعيف ، وكيف يخرج عن طواعيته ، وكيف يبارزه بالمخالفة مع علمه بعظمة ربه وإلهه ، ولهذا ورد عن أحد السلف أنه قال : لا تنظر إلى صغر المعصية ، ولكن انظر إلى عظمة من تعصيه .

فعلم العبد بعظمة الله ، وتَسَمِّيه بالأسماء الحسنى ، واتصافه بالصفات العلى يحجزه عن معصية خالقه، ويدفعه إلى طاعته بامتثال أوامره واجتناب

. . . .

نواهيه .

والخلاصة : أن أهل السنة والجماعة يثبتون لله تعالى يدين حقيقيتين تليق بجلال الله وكماله ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تأويل ومن غير تشبيه ولا تمثيل .



١٣ ـ إثْبَاتُ صِفَةِ العَيْن :

[وَقَوْلُهُ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٣، ١٤]، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾[طه: ٣٩]].

الشرح

▪ قوله: (وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ...):

• **الآية الأولى**: في سورة الطور: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ المعنى أنا نراك، وأنت على مرأى منا، ولا تغيب عن نظرنا فسنحفظك، ففيه إثبات أنه بمرأى من الله، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. يعني بمرأى ومسمع مني، فأثبت الله لنفسه سمعًا يسمع به، وبصرًا يبصر به.

وأثبت سبحانه لنفسه الرؤية كما قال تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء: ٢١٨]، فهكذا قوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي نراك، فأثبت لنفسه العين وجمعها، وقال: «**بأعيننا**» لماذا؟ للتعظيم كما تقدم أن الجمع قد يراد به التعظيم، فلما عظم الله ذاته بأن جعل الضمير «**نا**» وهو في الأصل للجمع لكنه هنا للتعظيم جمع العين، فقال: «بأعيننا» فصار الجمع مناسبًا؛ فجمع الضمير «**نا**» لتعظيم ذاته وجمع الأعين لمناسبة الجمع للجمع.

. . . .

والمعنى : أنك بمرأى منا ولا تغيب عنا . وليس المراد أنك بداخل أعيننا ، وقد جاءت السنة بإثبات عينين لله تعالى يبصر بهما كما في الحديث الصحيح أنه ﷺ قال : « **إن ربكم ليس بأعور**»[1] يعني أن له عينين سليمتين من العور .

• **الآية الثانية** : في سورة القمر : ﴿**وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ**﴾ [القمر : ١٣ ، ١٤] .

يعني أن الله حمل نوحًا ومن آمن معه على سفينة من أخشاب ومسامير ، وأخبر أن هذه السفينة تعوم على الماء وهي تحت نظر الله وبمرأى منه جل وعلا ، وإذا كان الأمر كذلك ، فسيحفظها وسيحرسها وسيكلؤها ومن فيها ، وليس المقصود أنها بداخل عينه جل وعلا .

• **الآية الثالثة** : في سورة طه ، وهي قوله تعالى : ﴿**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي**﴾ [طـه : ٣٩] يخبر سبحانه فيها أنه يحب عبده ونبيه موسى عليه السلام محبة خاصة ، ولذلك فستتربى على مرأى مني ومرقب ، فأحفظك من كل سوء ومكروه .

وليس في قوله تعالى : ﴿**عَلَى عَيْنِي**﴾ دليل على أن الله تعالى عينًا واحدة ، بل المقصود بذلك جنس العين لا عددها ، لأنه ورد في السنة ما يفيد

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧١٣١) في الفتن ، باب : «ذكر الدجال» . ومسلم برقم (٢٩٣٣) في الفتن ، باب : «ذكر الدجال» عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

. . . .

أن لله تعالى عينين حقيقيتين تليقان به ، وأما عن ورودها في القرآن بصيغة الجمع وبصيغة الإفراد ، فليس فيه دليل لأهل التحريف الذين يحرفون معناها إلى الحفظ والرعاية ، ولا يثبتون لله صفة البصر وصفة العين ؛ لأن ورودها بصيغة الجمع للتعظيم ، وورودها بصيغة الإفراد للجنس - يعني جنس العين لا عددها - وأما الحفظ والرعاية فهو من آثار رؤية الله لعبده ونبيه .

فالحاصل : أن أهل السنة يثبتون لله تعالى عينين حقيقيتين كما يشاء ، من غير تعطيل ولا تحريف ، ومن غير تمثيل ولا تكييف .

❁ ❁ ❁

١٤ ـ إِثْبَاتُ صِفَةِ السَّمْعِ وَالبَصَرِ وَالرُّؤْيَةِ :

[وَقَوْلُهُ : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾[المجادلة : ١] ، وَقَوْله : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [آل عمران : ١٨١] ، وَقَوْلُهُ: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠]، ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦]، ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق: ١٤]، ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء: ٢١٨ ـ ٢٢٠]، ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥]].

الشرح

■ قوله: وقوله: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ... ﴾):

هذه الآيات أوردها المؤلف ـ رحمه الله ـ لإثبات صفتي السمع والبصر، وهاتان الصفتان من الصفات الذاتية .

ثم هذه الآيات صريحة في إثبات السمع ؛ لأنها جاءت بصيغة الفعل ، وجاءت بالمضارع ، وجاءت بالاسم .

. . . .

بالماضي كقوله تعالى في سورة المجادلة : ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا . . .** ﴾ الآية . وكذلك قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ **لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَولَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . . .** ﴾ ؛ لأن التعبير بسمع في الماضي يدل على أمر قد حصل ، فقد سمع الله قول المجادلة ، وسمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء .

وبالمضارع كقوله في آية المجادلة : ﴿ **وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا** ﴾ ، والمضارع يؤتى به للحال وللاستقبال ، والمعنى : أن الله يسمع تحاوركما في الحال ، أو يسمع تحاوركما في المستقبل ، فهذا صريح في وقوع السمع ، ومثله أيضًا ـ بلفظ المضارع ـ قوله تعالى في سورة طه : ﴿ **إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ** ﴾ ، فقد أثبته بلفظ المضارع ، وكذلك قوله في سورة الزخرف : ﴿ **أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ** ﴾ .

فالتقدير : بلى نسمع سرهم ونجواهم ﴿ **وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ** ﴾ فعبر بالمضارع ليدل على وقوعه في المستقبل ، وفي الحال ، ومثله أيضًا قوله تعالى في سورة براءة : ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ** ﴾ [التوبة : ١٠٥] هذا في الرؤية في المستقبل ، وبالاسم كما في قوله تعالى ، في آية المجادلة ـ في آخرها ـ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴾ ، وفي بعض الآيات : ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾ ، وفي بعضها : ﴿ **وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ ﴿ **وَ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴾ ، فإثبات ذلك

. . . .

بلفظ الاسم يدل على تحقق الصفة ، أي تحقق وصف الله بمقتضى ذلك الاسم ؛ لأن الاسم له ثلاث دلالات ، هي :

الأولى : دلالة على الذات ، وتسمى دلالة المطابقة .

الثانية : دلالة على الصفة المشتقة ، وتسمى دلالة تضمن .

الثالثة : دلالة على بقية الصفات ، وتسمى دلالة التزام .

فاسم الله تعالى « السميع » يعني ذو السمع الشامل ، لا ينطبق إلا على الذات الربانية ، فهو يدل على الذات - يعني ذات الله - مطابقة ؛ لأنه اسم الله حقًا .

ويدل على الصفة تضمنًا ، وهي صفة السمع ، وهي : إثبات أنه يسمع ؛ لأن السميع مشتق من السمع ، ويدل عليه التعليل بما قبله ، كقوله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴾ [المجادلة : ١] .

وكقوله تعالى : ﴿ **وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة : ٢٢٧] يعني يسمع طلاقهم . ويدل على بقية الصفات بالالتزام ؛ لأنه إذا كان سميعًا استلزم سمعه أن يكون مدركًا لما يسمع ، واستلزم أن يكون بصيرًا ، واستلزم أن يكون قادرًا وقاهرًا لخلقه كلهم وهكذا .

• **الآية الأولى** : في سورة المجادلة ، وهي قوله تعالى : ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ**

. . . .

الَّتِي تُجَـادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ .

هذه الآية نزلت في خولة بنت ثعلبة ، جاءت إلى النبي ﷺ تشتكي إليه زوجها؛ لأنه ظاهر منها ، يعني قال لها : أنت عليّ كظهر أمي ، فأخذت تكلمه خفية ، وتقول: أشكو إلى الله ، وأشتكي إلى الله مما فعل، وتقول عن الصبية الصغار الذين عندهم : « إن ضممتهم إليّ جاعوا ، وإن تركتهم عنده ضاعوا» فأنزل الله الآيات في أول سورة المجادلة ، وجعل له كفارة . . . إلخ .

فقوله : ﴿**تُجَـادِلُكَ فِي زَوْجِهَا**﴾ يعني في شأن زوجها الذي ظاهر منها ، وقال: أنت عليّ كظهر أمي ، ﴿**وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ**﴾ فراقها لأولادها ، لما قال لها النبي ﷺ : « **ما أراك إلا قد حرمت عليه**»[1] فهي تشكو أمرها إليه .

والشاهد هو قوله تعالى : ﴿**وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾ فأثبت لنفسه سمعًا يدرك به المسموعات ، وبصراً يدرك به المرئيات ، وقد ورد أن عائشة رضي الله عنها قالت: « الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله وأنا في ناحية من البيت ، ما أسمع ما

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٧/ ٣٨٥) ، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٦٨) وعزاه لابن مردويه وعبد بن حميد والبيهقي في السنن . وقال البيهقي في السنن : هذا مرسل لكن له شواهد . قلت : وفي سنده أيضًا علي بن عاصم . قال ابن معين : ليس بشيء . وقال النسائي : متروك .

. . . .

تقول، فأنزل الله عز وجل : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ...﴾فدل ذلك أن الله يدرك بسمعه الأصوات على اختلافها.

• **الآية الثانية** : في سورة آل عمران ، وهي قوله تعالى : ﴿**لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ**﴾[آل عمران: ١٨١]، هذه الآية نزلت في اليهود ، عندما نزل قوله تعالى : ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً**﴾[البقرة: ٢٤٥] قالت اليهود: يا محمد افتقر ربك فسأل عباده القرض؟ فأنزل الله هذه الآية كما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - فقد سمع الله قولهم هذا لما تكلموا به ، لم يخف عليه منهم خافية وسيجازيهم على ذلك .

• **الآية الثالثة**: في سورة الزخرف ، وهي قوله تعالى : ﴿**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**﴾[الزخرف: ٨٠] هذه الآية نزلت في المشركين، يقول تعالى عنهم : ﴿**أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ**﴾ [الزخرف: ٧٩] ثم قال: ﴿**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**﴾ أي بلى نسمع سرهم ونجواهم ولذلك وكلنا بهم رسلاً - يعني ملائكة - يكتبون حسناتهم وسيئاتهم . فلا يخفى علينا شيء من أمرهم وإن استخفوا وتستَّروا.

• **الآية الرابعة** : في سورة طه ، وهي قوله تعالى : ﴿**إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ**

. . . .

وَأَرَىٰ﴾ هذا خطاب من الله لموسى وهارون لما أرسلهما إلى فرعون ، وأمرهما أن يقولا له قولاً لينًا لعله يتذكر أو يخشى ، وثبتهما الله على ذلك ، فقال لهما : ﴿**لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ**﴾ [طه : ٤٦]، فأثبت بأنه معهما بعلمه وحفظه ويسمع كلامهما لفرعون ويرى مكانهما ومكان فرعون ، لا يحجبه عن ذلك شيء ، فهو يعلم السر وأخفى ، وهذا دليل على سعة علم الله تعالى، فإن سمعه يتسع لجميع الأصوات ، وقد كان دعاءعائشة رضي الله عنها : **الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات**، وقالت ذلك لما حكت قصة المجادلة ، وهي خولة بنت ثعلبة .

فكونه سبحانه وسع سمعه الأصوات ، يعني أنه يسمع القاصي والداني ، ولا يخفى عليه شيء من الأصوات ؛ قويها وضعيفها ، سرها وجهرها ، في كل مكان ، وفي كل زمان ، وبأي لغة ، فدلت هذه الآية على إثبات صفتي السمع الذي يدرك الله به جميع الأصوات ، والبصر الذي يدرك الله به جميع المرئيات ، فدل ذلك على اتصافه جلّ وعلا بهاتين الصفتين .

● **الآية الخامسة**: في سورة العلق ، وهي قوله تعالى : ﴿**أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ**﴾ [العلق : ١٤] وهذه الآية وما بعدها فيها إثبات صفة الرؤية لله تعالى كما ورد في الآية السابقة : ﴿**إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ**﴾، وقد نزلت هذه الآية في أبي جهل ـ لعنه الله ـ عندما منع النبي ﷺ من الصلاة بالبيت وبَّخه الله وتوعده، وقال : ألا يعلم هذا الشقي أن الله يرى جميع الأشياء ، ولا يخفى

. . . .

عليه خافية من أمره، حتى يمنع نبيه من عبادته والصلاة في البيت ، فأثبت الله في هذه الآية صفة الرؤية لجميع الأشياء.

● **الآية السادسة** : من سورة الشعراء ،وهي قوله : ﴿ **الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢٢٠] يخاطب الله نبيه محمداً ﷺ بذلك . والمعنى أنه يراك في ظلمة الليل حين تقوم للصلاة، ولو كنت في جوف بيتك، لا يخفى عليه شيء من أمرك ﴿ **وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ** ﴾ يعني: ويرى تقلبك وتنقلك بين الساجدين - يعني المصلين - من حال إلى حال، فلو كنت في مسجد مثلاً ، والمسجد مليء بالمصلين ، فالله تعالى يراك ويعلم خافيتك ، ويعلم ما في ضميرك : ﴿ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ يعني: أنه يسمع الكلام والقراءة والذكر ونحو ذلك سراً كانت أو جهراً ، وهو عليم بذات الصدور ، وبما يكنه ويخفيه صدرك .

والشاهد قوله : ﴿ **الَّذِي يَرَاكَ** ﴾ فأثبت تعالى لنفسه البصر الذي يرى به جميع الأشياء .

● **الآية السابعة**: في سورة التوبة ، وهي قوله تعالى : ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [التوبة: ١٠٥] حث الله عباده على العمل الصالح ، وأنهم إذا عملوا فإن الله يراهم ، ولا يخفى عليه خافية - من أمرهم - ، فيجازيهم على ذلك أحسن الجزاء ، فرؤية الله عامة في كل زمان

. . . .

وقوله : ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ يعني : عندما يكشف الله له أو يعلمه بذلك . قوله : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : عندما يرونهم يعلمون أعمالهم الظاهرة .

الشاهد قوله : ﴿ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ دل ذلك على إثبات الرؤية لله ، وأنه سبحانه يرى ببصره جميع الأشياء ، ولا تواري منه سماء سماءً وأرض أرضًا .

فالحاصل أن أهل السنة والجماعة يثبتون لله تعالى سمعًا حقيقيًا ، يدرك به جميع المسموعات ، وبصرًا حقيقيًا يدرك به جميع المرئيات ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تمثيل .

فإذا عرفت ثبوت هاتين الصفتين قد تقول : ما فائدة اعتقادهما؟ أو : ما الذي يستفيده الشخص إذا اعتقد أن الله سميع بصير ، وأن الله يسمع ويرى؟

والجواب عن ذلك أن يقال : إن فائدة هذا الاعتقاد لابد أن تكون محسوسة .

فإذا اعتقد العبد اعتقاداً جازمًا بأن الله يسمع جميع الأصوات ، فإن ذلك يوجب له أن يكون حذرًا من أن يسمع الله منه كلامًا لا يرضيه ، كأن يتكلم كلامًا محرمًا ؛ من كذب ، أو نميمة ، أو غيبة ، أو نحو ذلك ، فيكون دائمًا خائفًا وجلاً ، لا يتكلم إلا بالخير ، فإن الله تعالى هو الذي خلقه، وهو الذي رباه بنعمه ، وهو مالكه ، وقد نهاه عن الكذب ، ونهاه عن النميمة ، ونهاه

. . . .

عن الغيبة ، ونهاه عن قول الزور وشهادة الزور ، ونهاه عن السخرية بإخوانه المؤمنين، إلى غير ذلك مما نهاه الله عنه ، فإنه إذا عَلِمَ عِلْم اليقين أن الله يسمعه، فإنه سيحاسب نفسه، ويقول : كيف أقول ذلك والله يسمعني ، كيف أقدم على هذا الكذب ، والله يسمعني ، كيف أفسد بين الناس والله يسمعني ، كيف أذكر أخي المسلم بما يكره في غيبته والله يسمعني، كيف أقول الزور وأشهد مع فلان على فلان كاذبًا والله يسمعني، كيف أسخر بأخي المسلم والله يسمع ما أقول ، فيكون اعتقاده ذلك رادعًا وزاجراً له عن الوقوع فيما نهى الله عنه .

وهكذا أيضًا إذا أيقن ، وإذا علم علم اليقين ، واعتقد اعتقاداً جازمًا بأن الله يراه من كل حال وعلى كل حال ، وفي كل زمان وفي كل مكان ، فإن اعتقاده وإيقانه وإيمانه بذلك يردعه ويمنعه ويكفه عن أن يقدم على مالا يحل له، أو يتأخر عن الواجب .

وقد روى أن أحد العلماء أوصى أحد أصحابه ، فقال له: إياك أو احذر أن يراك الله حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك ، ومعنى قوله: يراك حيث نهاك يعني يراك على معصية قد نهاك عنها في مكان فيه صخب ولغو ومضيعة لحدود الله ، يراك في مكان تنتهك فيه حرمات الله ،ويفترى فيه على الله الكذب. يراك في مكان يسخر فيه بآيات الله ويستهزأ بها ، يراك في مكان يُعصى فيه الله علنًا جهاراً ، ويستخفى فيه بمعصية الله ، أو يجاهر بها ، ويستهان باقترافها ، أو يراك وأنت متلبس بمعصية .

. . . .

ومعنى قوله: أو يفقدك حيث أمرك ، يعني : احذر أن تتخلف عن أوامر الله، وعن الأماكن التي يطاع فيها الله وتفعل فيها أوامره ، فاحذر أن يفقدك الله في المساجد ـ مثلاً ـ في أوقات الصلاة ، أو في حلقات العلم أو حلقات الذكر ، أو يفقدك مع الذاكرين الله كثيراً ، ومع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، أو يفقدك مع حجاج بيته الحرام ، أو يفقدك مع المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ونحو ذلك من أبواب الخير التي أمر الله بها عباده وجعلها واجبة عليهم.

ثم إن هذا يسمى عين المراقبة ، إذا علمت أن الله يراك، واستحضرت ذلك عند كل عمل ، كانت هذه عين المراقبة .

وهناك مرتبة أرفع منها، وهي عين المشاهدة، وهما مذكورتان في قوله ﷺ : « **الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1] .

قوله: « **أن تعبد الله كأنك تراه**» هذه عين المشاهدة، وقوله: « **فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » هذه عين المراقبة .

فهذه هي ثمرة اعتقاد اتصاف الله تعالى بالسمع الذي يدرك به جميع الأصوات ، والبصر الذي يدرك به جميع المرئيات.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب برقم (٨) في الإيمان، باب: «بيان الإيمان والإسلام والإحسان. . .».

١٥ ـ إِثْبَاتُ صِفَتَي المَكْرِ وَالكَيْدِ :

[وَقَوْلُـهُ: ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [الرعد: ١٣]، وَقَوْلُـه: ﴿ وَمَكَرُوا وَمكَـرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْـرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤] ، وَقَوْلُـه: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مكْرًا وَهُـمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل: ٥٠] وَقَوْلُـه : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]].

الشرح

■ قوله: (وقوله: ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ ...):

هذه الآيات فيها بيان شيء من أفعال الله تعالى ، وهي المكر والكيد ، يوقعها الله بمن يستحقها من خلقه من الكافرين والظالمين والمجرمين .

● قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ أي شديد العقوبة لمن طغا وتمادى في غيه وكفره ، فالجزاء من جنس العمل .

والمكر هو بمعنى الاحتيال أيضًا إلا أنه أخص منه ؛ لأن المكر هو حيلة خفية يتوصل بها إلى أمر لا يرضي الممكور به .

● قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْـرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤] الذين مكروا هنا هم اليهود ، لما مكروا ليقتلوا عيسى ، فحاولوا بكل جهدهم على المكر به وقتله ، فاجتمعوا وتشاوروا ، ثم دخلوا عليه بغتة هو ومن معه ، فعند ذلك مكر الله بهم ، فألقى شبهه على واحد من الحواريين الذين معه فقبضوا عليه ظنّاً منهم أنهم قبضوا على عيسى فقتلوه وصلبوه ،

. . . .

واعتقدوا أنهم قتلوا عيسى عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٧] ألقي شبهه على غيره.

• قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل: ٥٠] ، يخبر الله تعالى فيها عن الذين مكروا بصالح عليه السلام لما حاولوا أن يقتلوه هو ومن معه، وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل: ٤٨ ـ ٥٠] مكروا فجاءوا بالحيل ، وحاولوا التسوُّر ، وحاولوا التبيُّت ، ولكنهم ما نجحوا في مكرهم ، بل عاقبهم الله وأهلكهم مع من أُهلك ، فهذا عاقبة مكرهم، وكذلك قد ذكر الله مكر الأمم السابقة ، قال تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم: ٤٦] ، دل على أنهم قد احتالوا ومكروا ، والمكر من أعمال الحيل، ومكر الله تعالى بهم: هو خداعهم وإظهار الشيء كأنه نعمة وهو في الحقيقة نقمة ؛ لأن إنعام الله تعالى قد يكون مكرًا ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤] ، فهذا قد يكون من باب المكر ، وقد يسمى أيضًا استدراجًا ، كما في قوله تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: ٤٤] .

وقول النبي ﷺ : « إذا رأيت الله يعطي العبد وهو مُقيم على المعاصي ،

. . . .

فاعلم أنه استدراج»[1] وقد يسمى أيضًا إمهالاً ، يعني تأخيرًا ، كما في الحديث : « **إن الله ليملي للظالم** -يعني يؤخره- **حتى إذا أخذه لم يفلته**»[2] .

● وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ الكيد في الإنسان معروف وهو إعمال الحيل للتوصل إلى شيء خفي ، ولكن كيد الله صفة تليق به ، ليست مثل الصفة الخاصة بالآدمي -يعني الاحتيال- بل هي كما يليق بالله تعالى : ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ معلوم أن الله تعالى ليس بحاجة إلى مداراة أو مجاراة أو نحو ذلك ، ولكن قد يكون رزقه وإنعامه وجوده ومعافاته فيها استدراج وإمهال ، وقد يسمى ذلك ظاهرًا بالكيد أو المكر .

فهذا ونحوه مما يثبت صفة المكر والكيد والمخادعة ونحو ذلك من الصفات الفعلية التي يفعلها الله ، ولكنها ليست مذمومة ، بالنسبة إلى الله تعالى لوقوعها موقعها، وليست كصفة المخلوق ، بل هي كما يشاء الله ، ومن الناس من أنكرها وقال: إن المراد بالمكر والخداع والكيد ونحوها المقابلة والمجازاة ، فنقول: بل الله وصف نفسه بذلك ، وأثبتها لنفسه ، فلا يجوز تأويلها كما يقول هؤلاء ، بل نقول إنها كما يشاء الله .

وهذه الصفات لا يجوز أن يشتق منها أسماء لله تعالى ؛ لأن الأسماء لا تشتق إلا من الصفات التي يمدح بها مطلقًا ، أما هذه فإنه قد يمدح فاعلها ،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٤٥) بسند ضعيف؛ فيه رشدين بن سعد .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٦٨٦) كتاب التفسير . ومسلم برقم (٢٥٨٣) كتاب البر والصلة .

. . . .

وقد يذم ، وكذلك فإنها وردت بصيغة الفعل ، فيجوز أن يقال : الله يمكر بالظالمين ، الله يكيد بالكافرين ، الله يخادع المنافقين ، أو الله يستهزئ بالكافرين، ولكن لا يصح أن يجعل منها أسماء لله عز وجل، فلا يجوز تسميته بالمُستهزئ ، ولا المخادع ، ولا الماكر ، ولا الكائد ، ولا المحتال ، ونحو ذلك ؛ لأنها لا يمدح بها على الإطلاق .



١٦ - إِثْبَاتُ صِفَاتِ العَفْوِ وَالمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ لِلَّهِ تَعَالَى :

[وَقَوْلُهُ: ﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٩] ، ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢]] .

الشرح

■ قوله: (وقوله: ﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ ... ﴾) :

هذه الآيات فيها إثبات عدد من الصفات ، مثل صفة العفو والغفران والرحمة ، وقد وردت بلفظ الفعل ، ووردت بلفظ الاسم ، وصفة الاسم .

● **الآية الأولى:** وهي قوله : ﴿ **إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا** ﴾ .

فالعفو اسم من أسماء الله ، وهو من أحب أسمائه إليه ، ويجب أن يُدعى به ، وقد كان النبي ﷺ يدعو به بقوله: « **اللهم إنك عفوٌ ، تحب العفو فاعفُ عني** »(١) .

والعفو: هو الصفح والتجاوز عن الأخطاء ، و العفو من الله هو أن يصفح عن عباده ويمحو عنهم أخطاءهم وزلاتهم ويعافيهم ، ومنه قول بعضهم :

رب اعف عنه وعافه　　　فلأنت أولى من عفا

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٥١٣)، كتاب الدعوات. وابن ماجه برقم (٣٨٥٠) كتاب الدعاء، وقال الترمذي: حسن صحيح.

. . . .

بمعنى تجاوز واصفح ، وهذا من صفات الله الفعلية يفعلها متى يشاء ، وليس عفوه كعفو المخلوق الناقص ، فإن عفو المخلوق مثلاً قد يكون بإزالة ما في قلبه من الحقد ، فيقول مثلاً : عفوت عن خطئك ، وإساءتك تجاهي ، وذهب ما في قلبي عليك من البغض ، وأما عفو الله، فهو كما يشاء الله ، وكما يليق به ، ليس منه مجاوزة لحد أو تشبيه لمخلوق .

• **الآية الثانية** : قوله تعالى : ﴿ **وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ نزلت في أبي بكر لما قطع النفقة عن مسطح بن أثاثة ، وكان ممن دخل في قول أهل الإفك الذين رموا عائشة بالإفك ، وكان أبو بكر ينفق عليه لكونه قريبًا له ، فلما قال هذه المقالة ، ورمى عائشة بما رماها به ، أراد أبو بكر أن يقطع النفقة عنه ، فعاتبه الله تعالى : ﴿ **وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ** ﴾ [1] ثم قال : ﴿ **وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا** ﴾ يعني : ليعفوا عما صدر من أولئك ويصفحوا عما كان منهم ، فكما أنهم يحبون أن يعفو الله عنهم فليعفوا عمن أساء إليهم ﴿ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ .

فأمر عبده أن يعفو ويصفح ، فوصف نفسه بأنه غفور رحيم . وصفتا المغفرة والرحمة من الصفات الفعلية ، فالله يغفر ويرحم ويعفو كما يشاء ولمن يشاء .

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر هذه القصة في صحيح البخاري برقم (٤٧٥٠) ، في التفسير ، باب : ﴿ **لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ** ... ﴾ . ومسلم برقم (٢٧٧٠) في التوبة ، باب : «في حديث الإفك وقبول توبة القاذف» . من حديث عائشة رضي الله عنها .

١٧ - إِثْبَاتُ صِفَةِ العِزَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى :

[وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨] ، وَقَوْلُهُ عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢]] .



■ قوله: (وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ...):

في هذه الآيات التي ساقها المؤلف رحمه الله: إثبات صفة العزة لله عزوجل.

● **الآية الأولى**: قوله: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ردٌّ على المنافق الذي قال: ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾، فرد الله عليه بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

العزة: الغلبة والقوة والمنعة ، وكمال القدرة ، فأخبر الله سبحانه بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ؛ هو العزيز الذي يعز رسله ، وهو الذي ينصرهم ، وهو الذي يعز عباده المؤمنين ، وهو الذي يقويهم ، فالعزة صفة ذاتية له ، لأنها من الصفات الملازمة للموصوف .

● **الآية الثانية** : حكى الله عن إبليس في سورة «ص» أنه أقسم بالعزة، فقال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ دل على أن الله موصوف بالعزة ، وذكر

. . . .

أن أسمـاء الله تدل على صفاته ، وقد تكرر اسم العزيز في القرآن ، في مثل قوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٦٢] ، ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤] ، فسمى الله نفسه العزيز في هذه الآيات . وكذلك ذكره بلفظ الفعل في قوله: ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦] . وكذلك بلفظ اسم الفعل كما في هذه الآية : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ويدل هذا أيضًا على جواز الحلف بصفات الله ؛ لأن الحلف بها حلف بالمتصف بها ، ويجوز أن تسأل الله بصفته ، فتقول : أسألك بعزتك التي لا ترام ، ويجوز أن تحلف بها ، فتقول : وعزة ربي كذا وكذا .

ولا يجوز الحلف بعزة المخلوق ؛ فإن ذلك تعظيم لذلك المخلوق ، كما حلف سحرة فرعون لما ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤] فأقسموا بعزته ، فهذا تعظيم لذلك المخلوق .

مسألة : بعض العوام يحلف فيقول : « ورب العزة» فهل هذا يجوز؟

الجـواب: يجوز ذلك لأن الله قد أثبت ذلك ، فقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٨٠] فيجوز أن تجعل العزة صفة لله ، وهي مشتقة من اسمه العزيز ، ويجوز أن تضيفها إلى ربوبية الله ، فتقـول :

. . . .

رب العزة » يعني : مالك القوة ، والقدرة والاستطاعة كلها مربوبة لله ، كما قال تعالى : ﴿ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٨٠]، فإذا قلت : وعزة الله، فيكون مرادك الصفة التي هي من صفاته ، فعزة الله يعني صفة العزة التي له .

وإذا قلت : ورب العزة فيكون مرادك ما خلقه من العزة في المخلوقات ونحوها .



١٨ ـ إِثْبَاتُ الاسْمِ لِلَّهِ وَنَفْي المِثْلِ عَنْهُ :

[وَقَوْلُهُ : ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، وَقَوْلُهُ : ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، وَقَوْلُهُ : ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]].

الشرح

■ قوله : (وقوله : ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ ...) :

هذه الآيات في النفي ، أي أن الله تعالى يصف نفسه بالنفي ، ولكن على وجه الإجمال كقوله : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ، وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ، وقوله : ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ ، وقوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ هذه كلها من الصفات السلبية ، يصف الله نفسه بصفات فيها سلب ، يعني فيها نفي ، فأولاً نفى السمي ، والسمي هو المسامي ، يعني : هل تعلم أحدًا يستحق كاسمه؟ أو هل تعلم أحدًا يتسمى باسمه الذي هو الله؟

وقال بعضهم : إنه تعالى قد حفظ هذا الاسم عن أن يطلق على مخلوق من خلق الله ، فلا يحفظ ولا يذكر من تسمى به ، أو من سمى به مخلوق خلقه الله، بل لما سمّى الله به نفسه منع غيره أن يتسموا أو يسموا به . قال تعالى :

. . . .

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾، وهذا معنى لا سميَّ له ، وقيل : معنى سميّ يعني شبيهًا ، أي : هل تعلم له من يساميه أي يشابهه، والمشابهة هنا تكون في الذات ، أي هل تعلمون من يكون مثله في ذاته .

وقد تكون بالقدرة والصفات، أي أنك لا تعلمُ له سميّاً يساميه في تمام القدرة ، وفي سعة الرزق والعطاء ، وكذلك في سعة القوة والقدرة ، وفي الاستطاعة على العقاب، ونحو ذلك : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ . **الجواب** : لا .

والآية خطاب للنبي ﷺ ، والمراد أفراد أمته يعني : هل تعلم يا محمد أو هل تعلم أيها الإنسان له سميًا؟ ،إن قيل :سميًا ، يعني مشابهًا، فليس لله شبيه، وإن قيل: سميًا : يعني مساميًا يساميه ويستحق اسمًا كاسمه ، فلا نعلمه .

وإن قيل : سميًا يعني من تسمى بالله ، سواء أكان محقًا أو مبطلاً ، أو من نفسه أو من غيره ، فلا نعلمه ، وهذه من النفي العام ؛ لأنه يدخل فيها نفي جميع النقائص ، يعني هل تعلمُ له سميًا ، أي مساميًا له في قدرته ، أو مساميًا في استطاعته ، أو سميًا في ملكه وتصرفه ونحو ذلك . **الجواب**: لا أعلم له سميًا ، فليس لله من يشابهه .

فالآية فيها قولان :

القول الأول: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ يعني هل تعلم من يتسمى باسم « الله » .

والثاني : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ يعني شبيهًا ، أو مثيلاً يشابهه ويساميه

. . . .

ويستحق كاسمه أو يستحق كما يستحق من العبادة .

• قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ الكفؤ بمعنى المكافئ ، والمكافئ للشيء هو المماثل له ، تقول : فلانٌ كفؤٌ لفلان ، يعني شبيه ، وقيل : مكافئ له ، تكافأ فلان وفلان يعني تقاربا أو تماثلا إما في الخلقة؛ وإما في القوة ، وإما في القدرة ، أو في المنزلة ، فهما متكافئان ، أما الله تعالى فليس له كفؤ .

• قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ ، وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ الأنداد: جمع ندّ ، والندُّ هو الشبيه والمثيل والشريك، والمشركون يجعلون مع الله الأنداد فيحبونها كمحبة الله ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] .

ومعنى كحب الله ، أي مثل حبه ، أي يجعلون نصف محبتهم لله ونصفها لأندادهم .

وقيل: يحبونهم كحب الله ، أي كالحب الواجب لله ، والواجب على الإنسان أن يحب الله ويقدم محبته على محبة النفس والأهل والمال ، ولكن هؤلاء يحبون أندادهم وشركاءهم مثل الحب الذي يحبون به الله على حد سواء ، أو يحبونهم كالحب الذي يحبُّ به الله .

وكان عليهم أن يصرفوا الحب كله لله تبارك وتعالى ، وأن تستغرق قلوبهم في محبته ولا يمنع هذا من محبة دينه وشرعه ورسله وأوليائه ؛ لأن هذا من

. . . .

دلائل وعلامات حبّ الله عز وجل ، فالمراد هنا هو محبة السر لا محبة العاطفة والرحمة ، فكل إنسان يحب قريبه وولده وأهله ونحو ذلك .

أما محبة السر فهي محبة خاصة وهي عبادة لا تصلح إلا لله تعالى .

وقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ . قيل : أشد حبًا لله من هؤلاء المشركين لله ؛ لأن المشركين يحبون الله ويحبون آلهتهم وأندادهم على حد سواء .

فإذا كانوا يحبون أندادهم مثل محبة الله ، فأهل الإيمان أشد حبًا لله ؛ لأن أصحاب الأوثان قد ضعفت محبتهم ؛ حيث إنهم قد صرفوا بعضها إلى تلك الأنداد وتلك الآلهة ، والمحبة الخالصة أقوى من المشوبة .

والشاهد أن الأنداد التي أنكرها الله بقوله : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا** ﴾ هي الأشباه والأمثال والشركاء والنظراء ، فالآية ردٌّ على المشبهة الذين يجعلون لله مشبهًا ونظيرًا ونداً سواءً تنديدًا عامًا أو تنديدًا خاصاً .

والتنديد العام : هو أنه يجعل لله مثلاً في صفاته وأفعاله ، وهذا أكبر كفر .

والتنديد الخاص : أن يجعل لله ندًا في صفة من صفاته ، مثل أن يجعل لله ندًا في المحبة كما في هذه الآية : ﴿ **يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ** ﴾ أو يجعل لله ندًا في

. . . .

الخوف؛ يخافونهم كمخافة الله ، أو يجعل له ندًا في استحقاق العظمة؛ يقول: هذا عظيم وعظمته كعظمة الله ، فيكون هذا تنديدًا في العظمة ، وهكذا في باقي الصفات الفعلية .

❁ ❁ ❁

١٩ ـ نَفْي الشَّرِيكِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى:

[وَقَوْلُهُ: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء: ١١١] ، ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن: ١]، وَقَوْلُهُ: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ١، ٢] ، وقولُهُ : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢]، ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٧٤] ، ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]].



■ قوله: (وقوله: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ... ﴾):

ساق المؤلف رحمه الله هذه الآيات في نفي الشريك عن الله تعالى.

. . . .

• **الآية الأولى**: وهي قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ وتسمى آية العز، وفيها تنزيه الله تعالى عن صفات النقص: لم يتخذ ولدًا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له وليٌّ من الذل، هذه صفات نقص، اتخاذ الولد صفة نقص؛ لأن الولد يشبه أباه، والله تعالى ليس له شبيه.

واتخاذ الشريك مع الله أيضًا لا يجوز، وذلك لأن الله ليس له شريك في أي نوع من الشركة، يعني ما شاركه أحد في خلق المخلوقات، في خلق السماوات أو الخلق أو العباد ولا شاركه في رزقهم وإنعامه عليهم، ولا شاركه مخلوق في حفظهم ومراقبتهم إلا بإذنه، ولا شاركه أحد في التصرف فيهم كما يشاء. وإذا كان كذلك، فلا يجوز أن يشاركه أحد في العبادة، أو في استحقاق العبادة.

وهكذا ليس له ولي من الذل فهو سبحانه العزيز ذو القوة المتين وذو العزة المتعالي عن الذل وعن الحاجة إلى ولي ومعين. ثم أمره بالتكبير أي عظمه تعظيمًا كبيرًا وداوم على تكبيره وإجلاله، وذلك مما يعظم به قدر الرب تعالى في قلوب الذاكرين والمكبرين ويحملهم على دوام الطاعة والتعظيم وامتلاء قلوبهم بالهيبة والإجلال واستحضار عظمة الله تعالى في جميع الأحوال.

• **وأما الآية الثانية**: وهي أول سورة التغابن فقد أخبر تعالى بأن كل ما في السموات وما في الأرض من المخلوقات تسبحه وتعظمه بما في ذلك

. . . .

الناطق والبهيم والحيوان والجماد كما في قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وأصل التسبيح: التنزيه والتقديس والإجلال مما يدل على أن جميع المخلوقات مقرة بربوبية الله تعالى وعظمته واستحقاقه للعبادة، ثم أخبر بأن الملك لله وحده وهو الملك الحقيقي الذي لا يزول ولا يحول، و به يتصرف في الكون كما يشاء لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه. فهو مالك الملك وملك الناس والذي تخضع له الملوك وتذل له الجبابرة، فيتصرف فيهم تصرف المالك في عبيده كما يشاء، كما أن له الحمد، فهو المحمود على كل حال فيحمد على إنعامه وإفضاله كما يحمد على ابتلائه وامتحانه، ويستحق الحمد على أسمائه وصفاته وأفعاله فله الحمد كله وإليه يرجع الأمر كله، وهو على كل شيء قدير، فأثبت في هذه الآية الملك والحمد وكمال القدرة، وأثبت تسبيح المخلوقات بحمده.

• **أما الآية الثالثة**: وهي فاتحة سورة الفرقان فقد ابتدأها بالبركة، وهي كثرة خيره وعطائه لعباده، فكل ما في الكون فهو من فضله وهو الذي يضع البركة في ما يشاء من المخلوقات، وقد وصف نفسه بأنه الذي نزل الفرقان على عبده ورسوله محمد ﷺ وهو القرآن الكريم الذي أنزله على قلب محمد عليه الصلاة والسلام، والتنزيل من الله تعالى دليل إثبات صفة العلو والفوقية لله تعالى على خلقه كما يشاء.

❁ ❁ ❁

٢٠ ـ إثْبَاتُ صِفَةِ الاستِوَاء :

[وقولُهُ : ﴿ الرَّحْمَنُ علَى العرْش اسْتَوى ﴾ ، ﴿ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعرْشِ ﴾ في سبعة مواضع :

فِي سُورَةِ الأعـرَافِ ، قولـه : ﴿ إِنَّ رَبَّكُـمُ اللَّهُ الَّذي خَـلَقَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْض فِي ستَّة أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ علَى الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف : ٥٤] . وَقَالَ فِي سُورةِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلامُ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذي خـلق السَّموات وَالأَرْض في ستَّة أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ علَى الْعَرْشِ ﴾ [يونس : ٣] . وَقَالَ فِي سُـورَةِ الـرَّعْـد : ﴿ اللَّهُ الَّذي رَفَعَ الـسَّمَوَات بِغَيْرِ عَـمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْـتَوىٰ عَلَى الْعَرْشُ ﴾ [الرعد : ٢] . وقَالَ في سُورةِ طه : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : ٥] . وَقَال في سُورةِ الفُرْقَان : ﴿ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ ﴾ [الفرقان : ٥٩] . وقـال في سـورة الـم السَّجْدَة : ﴿ الـلَّهُ الَّذي خَلَقَ الـسَّموات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا في ستَّة أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [السجدة : ٤] . وقال في سورة الحـديـد : ﴿ هُوَ الَّذي خَلَقَ الـسَّموَات وَالأَرْضَ فِي ستَّة أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ علَى الْعَرْشِ ﴾ [الحديد : ٥]] .

. . . .

. . . .

الشرح

■ قوله: (وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ...):

من عقيدة أهل السنة إثبات صفة العلو، وأن الله عليٌّ بجميع أنواع العلو.

وأنواع العلو ثلاثة: علو الذات، وعلو القَدْر، وعلو القهر.

* **فعلو القهر**: في مثل قوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، ومثل قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، فنقول مثلاً: الملكُ عالٍ على أهل البلد، بمعنى قاهر لهم، فالعلو لله بمعنى القهر، فهو عَلِيٌّ بمعنًى قاهر.

* **وعلو القدر**: أي المنزلة بين الشيئين، إذا كان أحدهما أرفع قدرًا وأعلى في النفوس، فإنه يسمى أيضًا عاليًا. تقول مثلاً: الرجال أعلى من النساء يعني قدرًا. وتقول: الذهب أعلى من الفضة يعني قدرًا، فكل شيء أرفع قدرًا من غيره، فإنه يصلح أن يوصف بالعُلو، فإذا قلت مثلاً: اللحم أعلى من التمر يعني أعلى قدرًا.

فالله تعالى له العلو، بمعنى علو القدر، وله العلو بمعنى علو القهر، وعلو الذات.

والأدلة على إثبات صفة العلو كثيرة، قد تصل أفرادها إلى المئات أو تزيد على الألف، ولكن تنحصر في أنواع، حصرها ابن القيم في نونيته في واحد

. . . .

وعشرين نوعًا ، يعني أنواع الأدلة التي تدل على إثبات صفة العلو ، وتحت كل نوع أفراد أدلة كثيرة .

فمن الأنواع مثلاً : التصريح بالاستواء ، كما في هذه الآيات .

ومن الأنواع : التصريح بالعلو ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ومن الأنواع : التصريح بالفوقية، كقوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل: ٥٠] .

ومن الأنواع : التصريح بالعروج ؛ عروج الأشياء إليه ، كقوله : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤] .

ومن الأنواع : التصريح بالصعود ، كقوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر: ١٠] .

ومن الأنواع : التصريح بإنزال الأشياء منه ، كقوله تعالى : ﴿ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١١٤] .

ومن الأنواع : التصريح بذكر السماء ، كقوله تعالى : ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾ [الملك: ١٦] .

ومن الأنواع : التصريح بالرفع ، كقوله تعالى : ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء: ١٥٨].

. . . .

ومن الأنواع : تصريح كل الخلق بعلو الله ، كقول فرعون : ﴿ لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ ﴾[غافر : ٣٦، ٣٧] كما سيأتي .

ومن الأنواع : ذكر اتفاق الرسل .

ومن الأنواع : الفطرة .

ومن الأنواع : الإجماع ؛ إجماع أهل العلم .

والحاصل أنها تصل إلى واحد وعشرين نوعًا ، لما ذكرها ابن القيم بدأها بآيات الاستواء، وذكر أنها سبع في نونيته [١] :

منها استواء الرب فوق العرش في ... سَبْعٌ أَتَتْ فِي مُحْكَمِ القرآنِ

وكَذلك اضْطَردت بلا لامٍ ولو ... كَانَتْ بِمَعْنَى اللامِ فِي الأَذْهَانِ

لأَتَتْ بِها في موضعٍ كي يحمل الْـ ... بَاقي عَلَيْهَا وبالبيان الثاني

يقول رحمه الله : ذكر الله الاستواء في سبع تقيدت بالحصر ، واطردت وتتابعت كلها بلا لام ، كلها استوى ، ولو كانت بمعنى اللام في الأذهان لأتت بها في موضع كي يحمل الباقي عليها .

لو أتت في موضع واحد « استولى» بزيادة لام ، لقالوا : يحمل هذا على هذا .

---

(١) انظر الكافية الشافية (القصيدة النونية) لابن القيم ص ١٠٣ .

. . . .

يحمل قوله استوى على قوله استولى، فيجعل الكلُّ من باب الواحد، لكن لما ذكرت بلفظ استوى في جميع المواضع دل على أنها ليست بمعنى استولى، وأفاد أن هذه هي أقوى الأدلة على مسألة العلو، ولما كانت أصرح الأدلة كانت أكبر شيء على الجهمية، حتى ذكروا أن جهمًا كان يتمنى أن يحكها من مصاحف المسلمين، يقول: لو أقدر لحككت هذه الآية: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] فأهل السنة تقبلوها كما جاءت.

وذكر ابن جرير في تفسير سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

ذكر أن كلمة استوى عند العرب لها عدة معان أحدها: التمام. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾ [القصص: ١٤] يعني تم وكمل. ويستعمل بمعنى انتهاء شباب الرجل وقوته، فيقال: قد استوى الرجل، وبمعنى استقامة ما كان به أو من إلا مورد الأسباب.. و بمعنى العلو، الارتفاع. واختار هذا القول عند هذه الآية لا سيما إذا قيد بكلمة على فإنه لا يفهم منه إلا العلو، وكذلك إذا قيد أيضًا بإلى، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ يعني ارتفع إليها وعلى.

هكذا هو معنى الكلمة، استوى، يعني علا وارتفع.

وذكر ابن القيم من أدلة إثبات العلو الواحد والعشرين، إجماع أهل العلم، وأهل السنة، وهو الدليل السادس عشر من تلك الأدلة؛ حيث

. . . .

يقول [١] :

هذا وسادس عشرها إجماع أهـــ ـــل العلـــم أعني حجة الأزمان

من كل صــاحب سنة شهدت له أهــلُ الحــديث وعســكر القرآنِ

لا عبـــرة بمخــالـف لهم ولــو كانوا عـــديد الشــاء والبعـــران

ثم ذكر قولهم في الاستواء ، أنهم فسروا الاستواء بعبارات ، فقال [٢] :

فلهـم عبــاراتٌ عليــها أربــعٌ قــد حصلت للفــارس الطعــان

وهي استقر وقد علا وكذلك ارْ تَفَعَ الذي ما فيـــه من نُكْــرَانِ

وكذاك قد صعـد الذي هـو رابعٌ وأبو عبيــدة[٣] صاحب الشيباني

يختار هذا القـــول في تفسيــره أدرى مـن الجهمــيِّ بالقـــرآن

والأشعريُّ يقول تفسير استوى بحقيقــة اســتولى من البهتان

هذه هي تفـاسـير أهـل السنة الأربعـة ، أكثـرهـم يقـول : استوى على العرش ، أي استقر عليه ، ويقولون : هذه لغة القرآن ، قال تعالى : ﴿ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ** ﴾ [هــود: ٤٤] . يعني سفينة نوح استوت على الجودي ؛ يعني

---

(١) انظر الكافية الشافية (القصيدة النونية) لابن القيم ص ١١٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٠ .

(٣) هو معمر بن المثنى التيمي ـ أبو عبيدة ـ النحوي ولد سنة ١١٠هـ بالبصرة وتوفي فيها سنة ٢٠٩ هـ . انظر وفيات الأعيان (٥/ ٢٣٥ ـ ٢٤٣) .

. . . .

استقرت على الجودي .

وقال تعالى في تشبيه المؤمنين : ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ [الفتح: ٢٩] استوى يعني ارتفع على سوقه أي الزرع .

فجاء الاستواء بمعنى الاستعلاء ، وجاء بمعنى الاستقرار .

ومما ورد أيضًا بمعنى الاستقرار قوله تعالى لنوح : ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨] استويت أي ارتفعت واستقررت على الفلك ، فجاء الاستواء إذا كان مقرونًا بحرف على بمعنى العلو وبمعنى الاستقرار . وأبو عبيدة صاحب الشيباني وهو معمر بن المثنى صاحب الإمام أحمد من علماء اللغة ، يقول بتفسير استوى بمعنى صعد ، وهو أدرى من الجهمي بالقرآن .

وذكروا أن العرب تستعمل استوى بمعنى ارتفع ، وأن أحد المشهورين بالمعرفة كان في سطح بيته ، فطرقه أناس فأطل عليهم ، وقال : استووا إليّ، بمعنى ارتفعوا ،واصعدوا إليَّ ، هكذا معنى كلمة استوى عند العرب ، ولا تعرف العرب استوى إلا بهذه المعاني .

أما الجهمية والمنكرون للاستواء من معتزلة وأشاعرة ونحوهم ممن ينكر العلو ، فإن بعضهم توقف، وقال : نقول استوى استواء يليق بجلاله مع اعتقادنا أنها لا تفيد العلو ، وأنها لا تدل على علو الذات . وقلنا : لا يفيدكم إذا قرأتم آية كأنها كلامٌ أعجمي لا فائدة من قراءتها ، فإن الله ما أنزل القرآن إلا

. . . .

ليُهتدى به، ولتعرف دلالته وليتدبر .

وآخرون قالوا: لابد أن نتأولها ، ولهم فيها تأويلان :

التأويل الأول: تأويل كلمة استوى بمعنى استولى .

والتأويل الثاني : تأويل العرش بمعنى المُلك .

الأولون قالوا: استولى على العرش ، والآخرون قالوا: استوى على الملك ، أي ارتفع على الملك ، ويكون الارتفاع ارتفاعًا معنويًا .

والجواب عن الأول: قولهم: استوى أي استولى: إنه قول بعيد لا دليل عليه، وقد سئل علماء اللغة ، هل العرب تستعمل استوى بمعنى استولى ؟ فقالوا: لا ، هذا مما لا تعرفه العرب ، هذا خارج عن لسان العرب ، لم تأت كلمة استوى بمعنى استولى أبدًا في لسان العرب .

والجهمية ونحوهم استدلوا ببيت منسوب إلى الأخطل ، وهو قوله:

قد استوى بشرٌ على العراقِ   من غير سيفٍ أو دمٍ مهراقِ

ونقول: **الجواب** : **أولاً** : أن هذا البيت مكذوب ، ولم يُعرف في شيء من دواوين المسلمين ،ولم يعرف الأخطل هذا البيت ، ولم ينقله الذين نقلوا شعره .

وأنتم تردون الأحاديث الصريحة الصحيحة ، وتقولون إنها آحاد ، وتقبلون هذا البيت المنقول المكذوب ، أفلا يكون آحادًا ؟ ، هذا جواب .

. . . .

وجـواب ثـان : وهو أن الكلمة مولَّدةٌ ، استوى بمعنى استولى ، كلمة مولدة إذا قُدر أن الأخطل استعملها ، فإنه من المولدين ، أي ليس من العرب البلغاء فلا يكون حجة .

وجواب ثالث : وهو أن الأخطل لا عبرة به ، رغم كونه مولدًا ، فعقيدته سيئة ، لكونه لم يسلم ، بل بقي على نصرانيته ، فلا يغتر بكلامه ، وهو ممن أصر وبقي على النصرانية ، ويدل على ذلك شعره ، ومن شعره قوله :

ولستُ بقـائمٍ كالعـير يدعـو   قُبيل الصبح حيّ على الفلاحِ
ولستُ بصائمٍ رمضان طوعًا   ولسـت بآكلٍ لحمَ الأضاحي
ولستُ بسائقٍ عيسًا بكـوراً   إلى بطحاء مـكةَ للنجـاح
ولكني سأشـربها شمـولاً   وأسجـدُ عند منبلجِ الصباح

أي يسجد للشمس ، فإن كان باقيًا على كفره ، فكيف يتخذ عمدة ، ويعتمد على شعره ، ولهذا يقول شيخ الإسلام في قصيدته اللامية :

قبحًا لمن نبذ الكتاب وراءه   وإذا استدل يقول قال الأخطلُ

يعني كيف تتركون هذه الآيات والأحاديث الصريحة ، وتعتمدون على بيت منحول ، تقولون : قال الأخطل .

وكذلك ابن القيم يقول في نونيته [1] :

ودليلـهم في ذاك بيـتٌ قـاله   فيما يقـال الأخطلُ النصـراني

---

(١) انظر الكافية الشافية (القصيدة النونية) لابن القيم ص ٦٨ .

. . . .

وقوله : « فيما يقال» أي أنه ليس بمحقق النسبة إليه .

وهناك جواب رابع -عن البيت- : وهو أن الاستواء هنا على ظاهره ، فاستوى بشر على العراق بمعنى ارتفع عليه ، فلا يكون بمعنى استولى ، والمعنى استوى على عرش العراق ، يعني جلس عليه وارتفع عليه ، فيكون استوى هنا بمعنى ارتفع ، فلا يكون فيه دليل على الاستيلاء .

ونرد عليهم أيضًا بجوابين من حيث العموم :

الأول : أن الاستيلاء عام والاستواء خاص ، فالله تعالى ما ذكر أنه استوى إلا على العرش أما استيلاؤه فهو عام على كل شيء : مستول على السماوات ، ومستول على المخلوقات ، ومستول على الإنسان والحيوان ومستول على الأرض ، ومستول على الجبال . فكيف تخصون الاستيلاء بالعرش ، تقولون : إن استولى على العرش؟! ، هل يجوز عندكم أن نقول : استوى على الجبال ، الرحمن على الجبال استوى ؟ لم يقل الله ذلك .

هل يجوز أن نقول : الرحمن على الإنسان استوى؟ ، الرحمن على الأرض استوى؟ ، فهذا لا يجوز بالإجماع مع كونه مستوليًا على كل شيء ، فلو كان الاستواء بمعنى الاستيلاء ما خُصَّ العرش أي لم يكن للعرش خصوصية ، فإن استيلاء الله على كل شيء عام ، أما الاستواء فإنه مخصوص بالعرش ، فلماذا خص العرش؟ ، أليس الله مستوليًا على المخلوقات كلها ، لماذا خص العرش في السبع المواضع ، لو كان استوى بمعنى استولى ، لما

. . . .

خص العرش ، ولقال مرة : ثم استوى على السماوات، ومرة ثم استوى على الأرض، ثم استوى على الإنسان ، وهكذا، لكن لم يخص العرش إلا لأن الاستواء ليس هو الاستيلاء بل هو أمر زائد على الاستيلاء .

والجواب الثاني : أن الاستيلاء لا يكون إلا بعد ممانعة ، والله تعالى ليس هناك من ينازعه ويمانعه ، فلا يقال: فلان استولى على البلاد الفلانية ، إلا إذا كان هناك من نازعه فتغلب عليه .

إذا كان هناك اثنان متنازعان على هذه الأرض ، تغلب عليها أحدهما ، فيقال: فلان استولى على البلاد الفلانية . يعني بعد منازعة ، فالاستيلاء إنما يكون بعد منازعة ، والله لم يكن هناك من ينازعه، فدل هذا على فساد هذا التفسير من جهة العقل ومن جهة النقل .

فالحاصل أن لهم تأويلات في رد الآية :

التأويل الأول : استوى بمعنى استولى ، وعرفنا الجواب عنه .

بقي التأويل الثاني : أن العرش بمعنى الملك : استوى على العرش يعني استوى على الملك ، وأنكروا أن يكون هناك عرش خاص لله ، فقالوا : المراد بالعرش الملكُ.

والجــواب : أن هذا خطأ ، بل العرش في اللغة هو سرير المَلك ، والله تعالى وصف العرش بصفات خاصة ، فدل على أنه ليس هو مجرد المُلك فمن ذلك :

. . . .

أولاً: وصفه بالعظمة في قوله: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦]، ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[التوبة: ١٢٩]، فهذا وصفه بالعظمة.

ثانياً: وصفه بالكرم، وإن كان بعضهم يقول: الوصف للرحمن في قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

ثالثًا: وصفه بالمجد في قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥].

رابعًا: وصفه بأنه محمول كما في قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

دل على أنه شيء محمول، وكما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: ٧].

خامسًا: وصفه بأنه محفوف لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾[الزمر: ٧٥]، فدل على أنه شيء محسوس ليس هو المُلك.

سادسًا: وصفه بإضافته إلى الله لقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]. يعني ربُّ العرش، ووصفه بالرفع هنا على ظاهره، ففي هذه الآيات وأمثالها كثير بيان أن العرش زائد على المُلك.

. . . .

وقد ذكر الله العرش بمعنى السرير ، فالسرير يسمى عرشًا ، كعرش بلقيس في قوله : ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، ثم قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ [النمل: ٣٨] ثم قال : ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١] ، ثم قال : ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل: ٤٢] ، فدل على أن العرش هو السرير ، وإذا قلنا : إن العرش على حقيقته هو سرير الملك ، فنقول : الله تعالى ذكر أن له العرش، ولكن لا نحيط بهذا العرش ، فالذين أنكروا أن يكون هناك عرش حقيقي أبطلوا معنى هذه الآيات ، ومنهم من اعترف بأن لله عرشًا محمولاً ، ولكنهم لم يعترفوا بأن الله فوق العرش .

وبكل حال ، فالعرش هو أعظم المخلوقات كما ورد ، وقد ذكر الله أنه قبل المخلوقات ، في قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧] . فدل على أن عرشه موجود قبل خلق السماوات ، وأنه على الماء ، وسئل ابن عباس على أي شيء الماء ، فقال: على متن الريح ، والله تعالى قادر على أن يمسك المخلوقات كما يشاء بقدرته سبحانه وتعالى .

ولذلك اعترف الجمهور بأن هناك عرشًا وأنه مخلوق، ووقع الاختلاف: هل العرش مخلوق قبل القلم أو القلم قبل العرش؟ .

أشار إلى ذلك ابن القيم في نونيته بقوله[1] :

والناسُ مختلفون في القلم الذي ... كتب القضاءُ به من الدَّيَّانِ

---

(١) انظر الكافية الشافية (القصيدة النونية) لابن القيم ص ٩٦ .

. . . .

هل كان قبل العرش أو هو بعده | قولان عند أبي العلا الهمذاني[1]
والحق أن العرش قبل لأنه | وقت الكتابة كان ذا أركان

ثم نقول : العرش لا يقدر قدره إلا الله . وقد ذكرنا أن الكرسي كالمرقاة بين يدي العرش ، والله قد ذكر عظمة الكرسي ، قال تعالى : ﴿ **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥] إذا كان الكرسي وسع السموات مع كبرها وضخامتها ؛ والأرض مع عظمها ، وكما ورد في بعض الآثار أو الأحاديث : « **ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ألقيت في أرض فلاة** »[2] ، والترس هو المجنُّ الذي يكون على الرأس ، فهذه الدراهم السبعة ماذا تشغل من الترس ؟

كما ورد أيضًا أن الكرسي حقير صغير بالنسبة إلى العرش ، وأن الكرسي في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، الحلقة هي القطعة من الحديد ، نسبة الكرسي إلى العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، فإذا كانت هذه عظمة السماوات لا نحيط بها ، وعظمة الأرض التي نحن عليها ، وهناك أراضٍ أخرى ؛ سبع أراضين لا ندري ما سعتها وما فيها ، ومع ذلك هذه السماوات ، وهذه الأراضون صغيرة بالنسبة إلى العرش ، وهذا الكرسي الذي هذه عظمته

---

(١) هو محمد بن سهل العطار ، شيخ همدان ، له تصانيف منها : زاد المسير ، خمسون مجلدًا ، توفي سنة ٥٦٩ هـ . انظر تذكرة الحفاظ (٤/ ١١٤ ـ ١١٧) طبعة حيدر أباد سنة ١٣٣٤ هـ . نقلاً من حاشيته .

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٣٦١) .

. . . .

صغير بالنسبة إلى العرش .

فكيف مع ذلك يحاط بالخالق سبحانه وتعالى ؟

الحاصل : أن الذين قالوا : إن العرش بمعنى الملك قولهم خاطئ ، قد أبطلوا هذه النصوص الكثيرة من القرآن ، ومن الأحاديث ، وردوا ما هو شبه التواتر عن السلف ، عندئذ بطل التأويلان : تأويلهم : استوى بمعنى استولى ، وتأويلهم للعرش بمعنى الملك ، فما بقي إلا قول أهل السنة .

وإذا قلنا : إن استوى بمعنى ارتفع أو بمعنى علا أو بمعنى استقر ، فإننا نتوقف عن الكيفية ، نقول : الله أعلم بكيفية ذلك ، كما في عقيدة الكلوذاني ، في قوله :

قالوا : فتزعمُ أن على العرش استوى

قلت : الصواب كذاك أخبر سيدي

قالوا فما معنى استوائه قل لنا ؟

فأجبتهم هذا سؤال المعتدي !!

يعني أننا لا نعلم كيفية الاستواء ولا ماهيته بل نفوض ذلك إلى الله ، وليس معناه أننا لا ندري ما معنى الكلمة ، بل الكلمة واضحة الدلالة ، وهو معنى ما نقل عن مالك بن أنس رحمه الله أنه دخل عليه رجل ، فقال : يا أبا عبد الله : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى ؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء ـ أي العرق ـ ثم رفع رأسه ، وقال : الاستواء

. . . .

غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، ولا أراك إلا مبتدعًا ، ثم أمر به فأخرج .

وهذا الجواب فد نقل أيضًا عن شيخه : ربيعة بن أبي عبد الرحمن أنه قال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البيان ، وعلينا التسليم . ونُقل نحو هذا أيضًا عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها موقوفًا عليها ؛ أنها قالت : الاستواء معلوم والكيف مجهول . . . إلى آخره . ورفعه بعضهم إلى الرسول ﷺ ولا يصح رفعه .

ومعنى قوله : الاستواء معلوم : أنه مفهوم تعرفه العرب ، والمعلوم يفسَّر ويترجم من لغة إلى لغة ، ولكن له كيفية ، وتلك الكيفية هي الشيء المجهول الذي لا ندري ما كيفيته ، فنتوقف فيها . فالاستواء كيفيته مجهولة لنا ، ولذلك كان السلف رحمهم الله يفوضون الكيفية مع علمهم بالمعنى ، ويفوضون أيضًا الكُنْه ، وكنه الشيء يعني حقيقته وماهيته ، هذا الذي كانوا يفوضونه .

فالاستواء له كيفية ولكنها مجهولة لنا ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ؛ والإيمان بما تضمنته هذه الآيات واجب ؛ لأنها صريحة ، ففي سورة الأعراف ، قال تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف : ٥٤] كلمة «ثم» تقتضي التعقيب ، فدل ذلك على أن الاستواء كان بعد خلق السماوات والأرض ، ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ

. . . .

النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] فصرح بأن الاستواء كان بعد الخلق .

ومثله أيضًا في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣] .

فصرح بالاستواء بعد خلق السموات والأرض .

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الرعد : ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢] فأخبر بأنه استوى بعد رفع السماوات والأرض .

أما آية طه ، فقد تأولها بعضهم تأويلات بعيدة ، حتى حملها بعضهم على ما بعدها ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ [طه: ٥، ٦] ، فقالوا: ﴿اسْتَوَىٰ ۝ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ يعني استقر له ما في السماوات أو استتب له ما في السماوات ، حملوها على ما بعدها .

والجـواب : **أولاً**: هذا الحمل ضعيف وذلك لأنها رأس آية، ومعلوم أنه يوقف على رؤوس الآي .

وجـواب ثـانٍ : أن أول الآية رد عليهم ، فإن قوله : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ﴾ وهم ينكرون أن يكون على العرش .

. . . .

وجواب ثالث: وهو أن الاستواء ليس بمعنى ما يقولون: استوى له ما في السماوات، يعني استتب. وأما آية سورة الفرقان، وهي قول الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥-٥٩].

قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ صريح في أن الاستواء عقب خلق السماوات والاستيلاء متقدم، وكذلك آية سورة السجدة، وهي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤] فهذا أيضًا صريح في أن الاستواء معطوف بثم التي تقتضي التعقيب.

كذلك آية الحديد ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ [الحديد: ٤] الآية. صريح في أن الاستواء معطوف بثم.

من هذه الآيات نأخذ أن الاستواء صريح في هذه الآيات بمعنى العلو والارتفاع، ولكن لا يفهم أن الله تعالى محتاج إلى العرش، وأن العرش قد حمل الربّ تعالى، بل الله ذكر أنه استوى على العرش، لكن لا نقول: إنه حمله العرش واستقل به، أو أن السماوات حملته واستقلت به، تعالى الله عن ذلك، بل نقول: هو كما يشاء فوق عباده مستوٍ على عرشه، وهو أيضًا

. . . .

قريب مجيب مطلعٌ، عالم بما تخفيه النفوس وما تكنه الضمائر ، فما ذكر من علوه وفوقيته لا ينافي ما ذكر من قربه ومعيته ، كما سيأتي في هذه العقيدة من الجمع بينهما .

ومن ذلك نعلم أنه لا عبرة بتأويلات المتكلمين لآيات الصفات ، بل هي واضحة ، ولما كانت واضحة أخذوا يذكرون تقديرات ، ومن أوسع من ذكر تلك التقديرات العقلية الباطلة التي هي نحاتة أفكار وزبالة أذهان : صاحب التفسير الكبير المسمى بـ « أنوار التنزيل » لابن الخطيب الرازي، فإنه لما أتى على هذه الآية من سورة الأعراف ، أخذ يذكر فيها تقديرات عقلية بعيدة عن الصواب كأن يقول مثلاً : إذا كان الله فوق العرش لزم أن يكون كذا وكذا، وأكثر من هذه التقديرات الباطلة .

نقول لهم : توقفوا عن الخوض ، ونقول : الله أعلم بمراده ، والله أعلم بكيفية ذلك ، ولا نخوض فوق ما أعلمنا الله ، كما نقول : إن آيات الاستواء على ما أراد الله ؛ آمنا بالله وبما جاء عن الله على مراد الله ، وآمنا برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ .

❋ ❋ ❋

٢١ـ إِثْبَاتُ صِفَةِ العُلُوِ لله :

[وَقَولُهُ : ﴿ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران: ٥٥] ، ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء: ١٥٨] ، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر: ١٠] ، ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك: ١٦، ١٧]].



■ قوله: (وقوله: ﴿ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ ...):

هذه بعض الأدلة على مسألة العلو ، وهو أن الله تعالى موصوف بصفة العلو ؛ علو الذات ، وعلو القدر ، وعلو القهر ، وكذلك الفوقية ؛ فوقية الذات ، وفوقية القدر ، وفوقية القهر . وقد وردت فوقية الله في موضعين ؛ موضع فيه احتمال ، وموضع ليس فيه احتمال .

الموضع الذي فيه احتمال ورودها مجردة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام: ٦١]، والموضع الذي ليس فيه احتمال هو المقيد

. . . .

بمن في قوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] فإن هذا لا يقدرون على تأويله، ولا مجال لتأويله، وليس هناك أي احتمال أن المراد هنا فوقية القهر.

فعلو القهر بمعنى: السيطرة والغلبة، فالله تعالى عالٍ على الخلق بمعنى قاهر لهم، ومسيطر ومتغلب عليهم. يقال: فلان قد تعلّى على فلان يعني استولى عليه وقهره، فهو عالٍ عليه، هذا علو القهر.

أما علو القدر، فهو العلو الذي بمعنى العظمة، أي أن الله أعلى قدرًا من غيره، والأعلى قدرًا هو الأشرف والأفضل، تقول مثلاً: الأمير أعلى قدرًا من الخادم، وتقول: السيف أعلى قدرًا من العصا، وما أشبه ذلك، هذا علو القدر، فالله تعالى أعلى قدرًا من الخلق، يعني أعظم وأشرف وأجل وأفضل، هذا في العلو.

ومثله الفوقية: الله تعالى فوق عباده فوقية غلبة وسيطرة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ٦١] أي الغالب والمسيطر، والمستولي عليهم بدون معقّب، هذه فوقية القهر.

كذلك فوقية القدر، وهي بمعنى علو القدر، يعني أنه فوقهم أي أعظم وأجل وأشرف وأعلى قدرًا منهم. وهذان الأمران يثبتان في حق المخلوق، فيكون بعض الخلق أعلى قدرًا وفوق غيره فوقية قدر، وكذلك أعلى قهرًا، فيكون فوق غيره فوقية قهر، كما حكاه الله عن فرعون.

. . . .

أما علو القهر فذكره في قول فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] بمعنى الغالب والمتسلط والمسيطر والمستولي، وليس معناه المرتفع، فإنه مساوٍ لهم على الأرض، كذلك قوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، هذه الفوقية بمعنى فوقية الغلبة، يعني أننا غالبون وقاهرون، ومسيطرون ومستولون عليهم، هذه هي فوقية القهر وعلو القهر في حق المخلوق.

كذلك علو القدر وفوقية القدر. ذكرنا أيضًا أمثلتها، فإنه يقال مثلاً: الأمير أعلى من المملوك، أو فوق المملوك، أي فوقه قدرًا، كما يقال: الذهب أعلى من الفضة، الذهب فوق الفضة، يعني فوقه قيمة، وفوقه مقدارًا. فالله تعالى له علو القدر، وفوقية القدر، وله علو القهر وفوقية القهر. وله أيضًا علو الذات، يعني أنه عالٍ على خلقه علوًا حقيقيًا، فهو فوقهم فوقية حقيقية.

وقد ذكرنا أن الله أثبت هذا العلو والفوقية بالذات في عدة مواضع لا مجال للرأي فيها، ولا يتمكن من تأويلها كلها. فمن ذلك آيات الاستواء السبع، ومن ذلك آيات الرفع، ومن ذلك آيات الصعود، ومن ذلك آيات العروج كقوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]، ومن ذلك

. . . .

الآيات التي فيها إثبات السماء ، كهاتين الآيتين . ومن ذلك آيات همّ فرعون أن يصعد إلى السماء ليطَّلِعَ إلى إله موسى ، لما ذكر له موسى أن ربه في السماء ، ونحو ذلك من الأدلة الكثيرة .

هذه آيات دالة دلالة صريحة على أن الله موصوف بالعلو ؛ علو الذات ، والفوقية ؛ فوقية الذات ، وإذا أثبتنا لله تعالى هذه الفوقية فإننا لا نقول بأن مخلوقًا يحيط بالخالق أو يحصره تعالى ، بل مخلوقاته التي هي حقيرة قد ذكر شيئًا من عظمتها ، وذكر عظمة الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي أن الكرسي قد اتسع للسموات والأرض . وكذلك غظمة العرش ذكر أن الكرسي بالنسبة إلى العرش كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض. فإذا كانت هذه عظمة الكرسي ، وهذه حقارته بالنسبة إلى العرش عرفت عظمة العرش ، فكيف بعظمة رب العرش وخالق الكون ، فإنه تعالى لا يحيط به خلقه .

وبعد أن عرفت هذه المقدمة نذكر الآيات التي عندنا :

● **الآية الأولى** : من سورة آل عمران ، وهي قوله تعالى : ﴿ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] ، ذكروا أن عيسى لما همَّ اليهود بقتله أُلقي عليه نوم شبه وفاة ؛ وفاة نوم ، فرفع إلى السماء في تلك الغشية حتى صُعد به إلى السماء . الله تعالى ذكر أنه رفعه إليه : ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ فدل على أن الله فوق، والرفع لا مجال للتأويل فيه ، وهو أوضح العبارات التي

. . . .

تدل على الفوقية ، كما في قول ابن القيم لما ذكر معاني الاستواء ، قال :

ولهم عبارات عليها أربع　　قد حررت للعالم الرباني

وهي استقر وقد علا وكذلك ار　　تفع الذي ما فيه من نكران

يعني ما يَسْتنكر دلالة الارتفاع أحد ، ولا يقدرون على أن يؤولوه بتأويل بعيد . ومع ذلك فقد تأولوا قوله تعالى : ﴿ رَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ أي رافعك إلى محلّ الكرامة أو رافعك إلى محل لا يكون فيه مُلك لغيري ، تأويلات بعيدة، والله ذكر أنه رفعه إليه ، فدل على أن الله في العلو ، وأن عيسى رفع إلى الله .

● ومثلها **الآية الثانية** في سورة النساء ، لما حكى الله عن اليهود ذكرهم أنهم قتلوه في قوله تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء: ١٥٧ ، ١٥٨] أي رفعه من الأرض إلى الله في السماء ، فدل على أن الله تعالى في السماء ، وأنه فوق عباده ، وأن عيسى رفع إلى الله ، وتأويلهم لهذه الآية كتأويلهم للآية السابقة ،وهي تحريفات بعيدة ولا يستطيعون أن يؤولوها تأويلاً مقبولاً .

● **الآية الثالثة**: وهي آية الصعود في سورة فاطر ، وهي قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر: ١٠] جمع الله فيها بين الصعود والرفع ، والصعود: هو الرقي إلى فوق ، ومنه سمي المصعد؛ لأنه

. . . .

يرقى ، فيقولون : صعد فلان إلى الجبل ، وصعد فلان إلى السطح ، بمعنى رقى ، فكذلك قوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] يعني يرقى ، والكلم الطيب هي الحسنات والأعمال الصالحة والأقوال الصالحة تصعد إلى الله ، أي ترقى إليه وتخترق الحجب وتدخل وتفتّح لها أبواب السماء ، وتصل إلى الله ؛ لأنها تمجيد لله وتحميد له ، وتعظيمٌ له ، فلا تحجب دونه . هذا معنى كونها تصعد إلى الله ، فُسِّر الكلم الطيب بأنه التسبيح والتحميد والتكبير والباقيات الصالحات ، وفسر بأنه تعظيم الله وإجلاله ، وذكره بجميع أنواع الذكر ، وفسِّر بأنه كلامه إذا تلي وقرئ ، فإنه يصعد إليه ، وفسر بأنه دعاؤه إذا دعي بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وفسر بأنه الدعوة إليه ، ولعل الجميع من الكلم الطيب .

ثم إن تأويل المعتزلة والأشاعرة لهذه الآية كغيرها وهو أنهم قالوا : إليه يصعد يعني إلى ملكه ، أو إلى حيث لا متصرف غيره أو إلى سمائه ، ولم يعترفوا بأنها تصعد إلى الله ، بل إلى سماء الله أو ما يختص بالله وهو تأويل بعيد . كذلك فسروا قوله : ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] والرفع ظاهر أنه رفعه من الأرض إلى السماء ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ يعني أنه إذا قبله لكونه صالحاً رفعه إلى السماء ، تأولوا الرفع هنا بأنه القبول ، فقالوا : يرفعه أي يقبله ، وهو أيضًا تأويل خاطئ. فالرفع ليس هو القبول وحده ، ولا شك أن القبول معناه اعتبار ذلك العمل وعدم ردِّه ، وقد وردت أدلة

. . . .

تدل على أن الأعمال الصالحة تصعد إلى السماء ، كالحديث الذي فيه : « **إذا صلى الرجل فأحسن الصلاة ، صعدت إلى السماء ولها نور ، فتفتح لها أبواب السماء ، وتدعو لصاحبها ، وتقول : حفظك الله كما حفظتني ، وإذا صلى وأساء صلاته صعدت ولها ظلمة ، فتغلق دونها أبواب السماء ، وتلعن صاحبها ، وتقول : ضيعك الله كما ضيعتني ، فتهبط إلى الأرض ، وتُلَفُّ كما يلف الثوب الخلقُ ويضرب بها وجه صاحبها** » ذكره الإمام أحمد في الرسالة السنية[1] ، فدل على أن العمل الصالح يصعد إلى الله وتفتح له أبواب السماء ، وهذا دليل على أن قوله : ﴿ **وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ أي أنه يرفع إلى الله .

ومما يدل على ذلك أيضًا الحديث الصحيح الذي يقول فيه النبي ﷺ : «**إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل**»[2] . فدل على أن العمل يرفع إلى الله ؛ عمل النهار يرفع قبل أن تغيب شمس الليل ، وعمل الليل يرفع قبل أن تطلع شمس النهار .

إذن ، فكل التأويلات التي تأولت الرفع وصرفته عن معناه الحقيقي هي تأويلات باطلة ، فالرفع لا تأويل له صحيح .

---

(١) ذكره معلقًا بقوله : جاء الحديث إلخ ، وذكره المنذري في الترغيب برقم (٥٥٩) وعزاه للطبراني في الأوسط .

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٧٩) في الإيمان ، باب : «في قوله عليه السلام : «**إن الله لا ينام . . .**»» . عن أبي موسى رضي الله عنه .

. . . .

هناك آية ثانية في العروج لم تذكر هنا ، وهي قوله تعالى في سورة السجدة : ﴿ **يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ** ﴾ [السجدة: ٥] والعروج: هو الرقي ، عُرِج بي أي رقي بي، ومنه سمى المعراج لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء ، فقوله : ﴿ **ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ** ﴾ أي ثم يرقى هذا الأمر إلى الله، فآيات العروج والصعود كلها دالة على الرفع، وكأن الصعود هو الرقي في سمت ارتفاع مستمر ، مثل المصعد ، فالصعود هو صعود إلى فوق .

وأما العروج فكأنه في درج ، تقول : عرجت بفلان أي رقيت به في درج أو نحوه ولهذا ذكر النبي عليه السلام في قصة الإسراء والمعراج أنه كان هناك معراج صعد به . وعلى كل حال فالجميع يدل على الفوقية والرفع .

ومن آيات العروج أيضًا قوله تعالى في سورة المعارج : ﴿ **سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ** ﴾ [المعارج: ١ ـ ٤] . إذن المعارج هي المراقي تعرج معها الملائكة وتعرج معها الأرواح إلى الله ، فدل أن الله فوق ، وأنها تعرج إليه يعني ترقى إليه ، فهذه أدلة واضحة .

• **الآية الرابعة**: وهي في قصة فرعون ، حكى الله عنه أنه قال: ﴿ **يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ** ﴾ [غافر: ٣٦]، الصرح : هو البناء الرفيع . والأسباب، يعني الحبال، ﴿ **أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ** ﴾ [غافر: ٣٧] أي حبال السماء فأصعد فيها حتى أصل إلى السماء

. . . .

فأطلع إلى إله موسى الذي يقول إنه في السماء لأنظر هل هو صادق أم لا ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ [غافر: ٣٧] . هكذا ذكره الله في سورة المؤمن« غافر » وكذلك في سورة « القصص» في قوله : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [القصص: ٣٨] لعلي أتخذ بناءً رفيعًا أصعد إليه حتى أصل إلى السماء لأنظر هل في السماء إله كما يقول موسى أم لا ، فأنا أظن أنه من الكاذبين ، ليس في السماء إله . هذا دليل على أن موسى بلغ فرعون أن إلهه في السماء.

ثم إن المعتزلة والأشعرية ونحوهم قالوا: إن هذا ظنٌّ من فرعون ، وإن من اعتقد أن الله في السماء فقد تشبه بفرعون فهم عكسوا القضية، وقالوا : أنتم أيها المشبهة يا من تقولون : إن ربكم في السماء قدوتكم فرعون الذي قال : إن إله موسى في السماء .

فكيف نجيب، وكيف نرد عليهم هذا القول ؟

نقول لهم : فرعون جاحد منكر أن يكون هناك إله ، بل يدعي أنه هو فقط فيقول: ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤]، و﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨] فهو جاحد لا يقر بأن له إلهًا ولا ربًا لا في السماء ولا في الأرض، فلما جاءه موسى وأخبره بأن هنالك إله ، فلابد أنه قد سأله أين هذا الإله الذي تزعم يا موسى ، ولا بد أن موسى أخبره بأن إلهه في السماء ، ولو كان الله تعالى ليس في السماء بل في كل مكان كما تقوله المعتزلة، أو ليس في جهة ؛ لما تكلف فرعون، ولما بنى ذلك الصرح، ولقال له

. . . .

موسى: إن إلهي الذي أدعوك إليه ليس في السماء بل اطلبه في الأرض، واطلبه تحتك وعن يمينك وعن يسارك إلى آخره.

فهذا ونحوه دليل واضح على أنه تلقى هذا القول من موسى ، وإلا لم يتكلف بناء الصرح .

فالرفع هو الذي لا يستطيعون أن يؤولوه ، أما الفوقية والعلو فقد قالوا: إن معنى العلو: الغلبة والقهر والسيطرة والملك والقدر والشرف وما أشبه ذلك ، فأما الرفع فليس بإمكانهم تأويله ، لكنهم مع ذلك تأولوه بأن المراد الرفع إلى المكان الذي لا ملك فيه لغير الله وهو السماء، وهو تأويل بعيد.

• **الآية الخامسة**: في سورة الملك ،وهي قوله تعالى : ﴿**أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا**﴾ [الملك: ١٦، ١٧] . يعني: هل تأمنون الله الذي في السماء أن يخسف بكم الأرض كما خسف بقارون ؟ هل تأمنون الإله الذي في السماء أن يرسل عليكم حاصبًا كما أرسله على من قبلكم ، كعاد وثمود، لقوله تعالى : ﴿**فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ**﴾ [العنكبوت: ٤٠] الذي في السماء وهو الذي يرسل عليهم الحاصب، وهو الذي يخسف بهم الأرض.

قالت المعتزلة والأشعرية : المراد: أأمنتم من في السماء أمره ، أومن في

. . . .

السماء ملكه . قالوا: إنه على حذف مضاف مقدر أي من في السماء ملكه .

قلنا : ليس كذلك ، فملكه ليس خاصّاً بالسماء؛ بل ملك الله في السماء ، وفي الأرض، فلماذا خصص السماء، وكيف تقولون : من في السماء أمره؟ أليس أمره في السماء والأرض . كيف تقولون من في السماء ملكه ؟ أليس ملكه في السماء والأرض ، وبعضهم قال : المراد جبريل . والمعنى : أأمنتم جبريل الذي في السماء أن يخسف بكم الأرض أو يرسل عليكم حاصبًا .

فنقول : جبريل مملوك لله، جبريل مخلوق لا يفعل شيئًا إلا بأمر الله كما حكى الله عنه أنه قال : ﴿ **وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا** ﴾ [مريم : ٦٤] فهذا اعتراف جبريل بهذه الأمر ، فإنه ليس له تسلط ولا تصرف إلا بأمر الله ، فكيف يرسل الحاصب ؟ بل الله تعالى هو الذي يرسله ، كما في قوله تعالى : ﴿ **أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ** ﴾ ، إلى قوله: ﴿ **أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ** ﴾ [الإسراء: ٦٨، ٦٩] في هذه الآية جمع بين الخسف وبين إرسال الحاصب، والله تعالى هو الذي يرسل ذلك .

فهذا في المشركين الذين يخلصون لله في الضراء ، كما قال سبحانه : ﴿ **وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ** ﴾ [الإسراء: ٦٧] ذهبت عنكم آلهتكم إلا إياه فأخلصتم له ﴿ **فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ**

. . . .

كَفُوراً ﴾ [الإسراء: ٦٧]، ثم قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾ من الذي يفعل ذلك إلا الله سبحانه وتعالى؟، ثم قال: ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا ﴾ وكذلك في الآية التي معنا: ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ أي ريحاً أو صيحة أو حجارة تضربكم كما أرسلت على قوم لوط.

فالحاصل أن كلمة ﴿ فِي السَّمَاءِ ﴾ واضحة لا تأويل لها. ثم قول أهل السنة: إن الله في السماء، ليس معناه أن السماء تحيط به أو تحمله أو تقلُّه أو تظلُّه أو تحصره، فإن الله تعالى لا يحيط به مخلوق، فقوله تعالى: ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾ له معنيان:

الأول: أن تفسر «في» بمعنى «على».

الثاني: أن تكون السماء بمعنى العلو، فإن السماء اسم لكل ما علا وارتفع، فكل ما علا فوقك فهو سماء، ومنه تسمية السقف سماء لقوله تعالى: ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ [الحج: ١٥] يعني سقف البيت ونحوه.

فإذن قوله: ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾ [الملك: ١٦] يعني أأمنتم من في العلو، السمو: العلو يعني أأمنتم الذي في العلو والذي هو عالٍ على كل

. . . .

شيء ومحيط بكل شيء . هذا تفسير السماء بمعنى العلو .

أو أن « في» بمعنى « على » ، والتقدير : أأمنتم من على السماء ،« على» بمعنى فوق ،وتأتي «في» بمعنى « على»،قال تعالى عن فرعون: ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ [طه: ٧١] وليس معناه أنه ينحت لهم الجذع ويدخلهم في جوفه ، وإنما المراد: عليه ، وقال تعالى: ﴿ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ ﴾ [التوبة: ٢] ليس معناه ادخلوا في جوف الأرض ، بل معناه : سيحوا على الأرض .

والأشعرية أقرب إلى أهل السنة ؛ حيث إنهم يعترفون ببعض الصفات ، ولكن مسألة العلو مسألة شائكة لم يعترفوا بها ، فلأجل ذلك خالفوا فيها أهل السنة ، وأصبحوا مذبذين ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هولاء ، فالمعتزلة ترد عليهم وتسميهم الصفاتية ، وتقذفهم بالعظائم ، وتقول : مثلتم وجسمتم وشبهتم ؛ حيث قلتم : لله حياة ،والله يسمع ، والله يبصر ، والله يتكلم .

وأهل السنة يلومونهم ويردون عليهم فيما نفوه ؛ حيث يقولون لهم: نفيتم مسألة العلو ومسألة الفوقية والاستواء وارتفاع الله على خلقه ، ونفيتم سائر صفاته كرحمته ومحبته ونزوله إذا شاء ومجيئه لفصل القضاء وغضبه ورضاه وما أشبه ذلك ، فأنتم لم تتمسكوا بالسنة ولم تسلكوا الطريق السوي الذي لا اضطراب فيه ، فلأجل ذلك أصبحوا مذبذبين ، وعلى كلٍّ فإنه لما كان مذهبهم منتشراً ومتمكنًا في القرون الوسطى، كالقرن الرابع قلَّ من أهله من ليس بأشعري ، فالذين ليسوا بأشعريين متسترون . أي أن غير

. . . .

الأشاعرة كانوا يسترون مذهبهم غالبًا ، وكذلك طوال القرن الخامس والسادس والسابع . أما في آخر القرن السابع وبداية الثامن فقد ظهر فيه وانتصر قول أهل السنة بسبب صراحة وقوة شيخ الإسلام ابن تيمية الذي صدع بذلك وجادل وهدى الله بواسطته خلقًا كثيراً ناصروا مذهبه وساروا على طريقته من مذهبه ومن غير مذهبه ، فلأجل كثرة من يتسمون بأنهم أشعرية ، وفيهم علماء أجلة لهم مقامات رفيعة ، ولهم خدمة للإسلام ، نقول : إنهم متأولون ومقلدون في هذا المذهب ، ولكنهم ملومون ، أي اقتصروا على التقليد ، وتركوا اتباع النصوص حيث حكموا العقول وتركوا الرجوع إلى الأدلة النقلية ، فهم مقصرون وإن كانوا معذورين بسبب أن هذا هو ما وصل إليه اجتهادهم والله يتولى أمرهم .

ومن هؤلاء العلماء : النووي صاحب رياض الصالحين ، تجده يتأول في رياض الصالحين بعض الكلمات ، فيتأول الاستماع في قوله ﷺ : « **ما أذن الله لأحد** »(١) قال : أي ما رضي ففسَّر الأذَن يعني الاستماع بالرضى والقبول ، وهناك أحاديث كثيرة تأولها النووي رحمه الله في رياض الصالحين وفي غيره من كتبه كحديث النزول(٢) فقد تأوله في شرح مسلم وحديث الجارية(٣)

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٤٨٢) كتاب التوحيد . ومسلم رقم (٧٩٢) كتاب صلاة المسافرين .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٧٤٩٤) كتاب التوحيد . ومسلم رقم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين .

(٣) أخرجه مسلم رقم (٥٣٧) كتاب المساجد .

. . . .

ونحوه.

ومنهم ابن حجر صاحب فتح الباري ، فإنه يتأول أيضًا كثيرًا من الصفات التي ترد في كتاب البخاري . والبخاري رحمه الله من أهل السنة قد صرح بذلك في كتابه في أوله وفي آخره ، ولكن ابن حجر يتأول الصفات تأويلات بعيدة ، فيقول : هذا محال في حق الله ، وهذا لا يليق بحق الله. وقد ناقشه شيخنا العلامة عبد العزيز بن باز في بعضها في أول الفتح.

ومنهم أيضًا ابن عساكر الذي له التاريخ الكبير ، وله تاريخ دمشق وغيره .

ومنهم من يقرب من مذهبهم من الحنابلة كأبي الوفاء ابن عقيل ، وأبي الفرج ابن الجوزي ، فإنهم توغلوا في كتب أهل الكلام ، فعلق بهم شيء من علم الكلام ، رغم جهودهم التي بذلوها للإسلام ، ومؤلفاتهم التي ردوا بها على كثير من طوائف أهل الأهواء والبدع .

ومن الشافعية أيضًا الفخر الرازي صاحب التفسير الكبير ونحوه.

وبالجملة فيمكن أن نقول : جل علماء ذلك الزمان كانوا أشاعرة إلا من شاء الله .

❋ ❋ ❋

٢٢ - إثْبَاتُ صِفَةِ مَعِيَّةِ اللهِ لِخَلْقِه :

[﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧] ، ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] ، وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] ، ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦] ، ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]] .

الشرح

■ قوله: (﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ... ﴾):

هذه الآيات مناسبة للآيات التي قبلها ، والتي هي في مسألة العلو بجميع أنواعه ، وقد يقول قائل : كيف الجمع بين آيات العلو وآيات المعية ، فلأجل ذلك أتى المؤلف رحمه الله بآيات المعية حتى لا يأتي بها منكر جاحد ،

. . . .

فيطعن في آيات العلو ؛ لأن أكثر الذين ينكرون صفة العلو يحتجون بآيات المعية.

والمعية تنقسم إلى قسمين: معية عامة، ومعية خاصة.

فالمعية العامة: دلت عليها الآيتان الأوليان، وهما قوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾، وقوله: ﴿إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨] ونحوها.

وأما المعية الخاصة: فدلت عليها بقية الآيات كقوله: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ونحو ذلك كثير.

المعية العامة: مقتضاها العلم والقرب والاطلاع والمراقبة.

والمعية الخاصة: مقتضاها النصر والتأييد، والحفظ، والرعاية والكلاءة والفضل، فيكون لكل منهما معنى.

وسيأتينا في العقيدة إن شاء الله أن المؤلف ضرب المثل بالقمر وكون القمر في السماء، والعرب يقولون: مازلنا نسير والقمر معنا، فمعلوم أنه في فلكه سائر وهم على الأرض، فالمعنى أننا نشاهده ونستضيء بضوئه، فكأنه معنا.

وقد يبكي صبي فيطلُّ عليه أبوه من فوق السطح مثلاً، ولو من بعيد، ويقول له: يا بني لا تبكِ إنني معك، أي مطلع عليك وقريب منك.

. . . .

• الآية الأولى: في سورة الحديد وهي قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، فالمعية العامة هي ما جاءت في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ فدل على أن المراد بقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أنه عالم بكم.

كذلك قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ بدأها بالعلم؛ وحيث إنه تعالى يعلم ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها، فإنه عالم بكم، مطلع عليكم أينما كنتم، لا تخفى عليه منكم خافية، فيكون مقتضى هذه المعية: القرب والاطلاع والسيطرة والهيمنة وكمال التصرف.

والنتيجة: إذا عرف العبد أن الله معه؛ فلا شك أنه يراقب الله، يعرف أن الله مطلع عليه، وأنه لا يخفى عليه منه خافية، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩] فإذا آمن بأن الله معه أي عالم به ومطلع عليه ورقيب على أعماله؛ فإن ذلك يحمله على مراقبة الله، وعلى خوفه، وعدم الخروج عن طاعته، وعدم ارتكاب شيء من معاصيه. تقول له نفسه وقلبه: كيف تتجرأ عليه وهو معك؟ كيف تعصيه وتنتهك حرماته وهو مطلع عليك؟ كيف تتجرأ على مخالفته وهو مراقب لك ولأعمالك؟ ويحمله هذا على إصلاح الأعمال وعدم إفسادها، وعلى الإكثار من الحسنات والبعد عن السيئات، هذه فائدة

. . . .

الإيمان بالمعية .

ويأتينا إن شاء الله في الأحاديث التي بعد هذه الآيات الحديث الذي يقول فيه ﷺ : « **أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت** »[1] أي أن تؤمن بمعية الله لك ، فإنك إذا آمنت بذلك راقبته ، ومراقبته تحملك على أن تخافه أشد الخوف ، وأن تطيعه أتم الطاعة ، وأن لا تعصيه طرفة عين ، لأنك قد آمنت أنه معك ومطلع عليك ، يعلم ما توسوس به نفسك ، كما في قوله : ﴿ **وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾ [ق: ١٦] حبل الوريد: هو العصبة التي في الرقبة من الجانبين والمعنى: أن الله قريب من العبد بحيث إنه كامل التصرف فيه .

فالحاصل أن هذه المعية يكون من مقتضاها كمال التصرف؛ التصرف في عبده كما يشاء بدون معقب، والقرب منه والاطلاع والعلم بأحواله خفيها وجليها .

هذا معنى المعية العامة ، التي دلت عليها هذه الآية من سورة الحديد ، وهي قوله : ﴿ **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا** ﴾ [الحديد: ٤] يلج في الأرض أي يدخل فيها مثل المياة الجوفية أو ما يدفن فيها من كنوز ، أو من معادن أو من بذور ، أو من أموات ﴿ **وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا** ﴾ من نبات ومعادن

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط كما في مجمع البحرين رقم (٤٧) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٢٤). وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٦٥) وقال: رواه الطبراني في الأوسط والكبير وقال: تفرد به عثمان بن كثير. ولم أر من ذكره بثقة ولا جرح. والحديث ضعفه الألباني وهو في ضعيف الجامع رقم (١٠٠٢).

. . . .

ومياه ونحوها : ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من عذاب، أو من رحمة ، أو من مطر ، أو من رياح، ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ من الأعمال والملائكة والأرواح ونحو ذلك ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ يعني وهو عالم بكم، ومطلع عليكم، ورقيب عليكم ، فكأنه معكم بقربه وكمال تصرفه ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ فوجب عليكم أن تخافوه وتراقبوه .

● **الآية الثانية**: من سورة « قد سمع الله » بدأها بالعلم ، وختمها بالعلم، روي أن ابن عباس لما أنكر إنسان العلو ، واحتج على ابن عباس بهذه الآية ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٧] قال له ابن عباس : اقرأ ما قبلها، أي اقرأ أولها : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ بدأها بالعلم ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ كل ما في السماوات وما في الأرض : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ النجوى: هي المناجاة بين اثنين أو بين ثلاثة ، فالكلام الخفي الذي يتناجى به ثلاثة ، الله تعالى يسمعه ويكون رابعهم ، فهو عالم بما يقول كلٌّ منهم ، ولا خمسة يتناجون سراً بكلام خفيٍّ إلا ويسمعهم الله تعالى ، ويكون سادسهم ، فهو عالم بهم، وكأنه بينهم ، وهو سبحانه وتعالى على عرشه وفوق سماواته، ومع ذلك مطلع على أعمال عباده ،ورقيب عليهم ، ولا يخفى عليه منهم خافية، كذلك قوله في آخر الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي أن الله محيط بكل شيء علماً . فقد بدأها بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ﴾ وختمها بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فدل على أن المراد كمال العلم .

. . . .

فهاتان الآيتان تدلان على المعية العامة .

• **الآية الثالثة** في سورة التوبة، قول الله تعالى عن نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ **لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [التوبة: ٤٠] لما كان هو وأبو بكر في الغار، وخافا من المشركين؛ طمأن النبي ﷺ صاحبه وهو أبو بكر وقال: ﴿ **لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ وليس في ذلك دليل على أنه حزن، إنما فيه تثبيته وطمأنته، وبيان أنهما في محل أمن، وأن الله يحفظهما ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾، وفي بعض الأحاديث « **ما ظنك باثنين الله ثالثهما** » يعني يحفظهما ويكلؤهما؛ معنا بنصره، معنا بحفظه، معنا بتأييده وتقويته، معنا بكلاءته ورعايته، فليس علينا حزن ولا خوف ولا تلف .

فهم آمنون، وإن كان المشركون قريباً منهم، قال أبو بكر: يا رسول الله: « لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لرآنا». فقال ﷺ: « **ما ظنك باثنين الله ثالثهما** »[1] .

• **أما الآية الرابعة:** فإنها في المعية الخاصة، فقوله تعالى لموسى وهارون كما في سورة طه: ﴿ **لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ** ﴾ [طه: ٤٦] عندما قال موسى وهارون: ﴿ **إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ** ﴾ [طه: ٤٥] يعني فرعون، قال: ﴿ **لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا** ﴾ ثم فسر المعية بقوله: ﴿ **أَسْمَعُ وَأَرَىٰ** ﴾ أسمع ما يقال لكما وأراكما لا يخفى عليّ منكما خافية، ومعنى هذا

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٦٦٣) في التفسير [سورة التوبة]، باب: «قوله: ﴿ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ** ﴾ . . .». عن أبي بكر رضي الله عنه.

. . . .

أنني ناصركما ومؤيدكما ، فهذه معية النصرة والتأييد ، إنني معكما أنصركما ، وأقويكما ، وأثبتكما ، وأحفظكما حتى لا يصل إليكما مكروه .

كذلك بقية الآيات فيها بيان فضل بعض الأعمال ، وأن الله يحفظ أهلها .

• فقوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ [النحل : ١٢٨] يدل على فضل التقوى والإحسان ، وأن أهلها يحظون بمعية الله ، والتقوى : اسم جامع للأعمال الصالحة التي فيها اتقاء الله واتقاء عذابه .

والإحسان يراد به إتقان الأعمال وإخلاصها وإتمامها ، حتى تكون حسنة مقبولة .

• كذلك قوله : ﴿ **وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، كذلك قوله : ﴿ **اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة : ١٥٣] ، فالصابرون هم الذين يثبتون عندما يلم بهم أمر ، أو يقعون في مصيبة ، فالله تعالى معهم بنصره وتأييده ، وتقويته لهم وتثبيته .

• كذلك قوله تعالى : ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٤٩] الفئة : الجماعة ، والمعنى يوجد كثيراً فئة قليلة وتغلب فئة كثيرة في القتال ، ويكون ذلك بنصر الله وتوفيقه وتثبيته لهم حتى ينتصروا ، ويكون الله معهم ؛ لأن الله تعالى مع الصابرين ، هذا ونحوه دليل على المعية الخاصة التي هي معية النصر والتأييد ، والآيات فيها كثيرة ، تدل على فضيلة هذه المعية ، وبيان فضل هذه الأعمال ؛ لأن الإنسان إذا عرف أن هذا العمل يحظى أهله بمعية الله حرص على أن يكون من أهله ، فيحرص على أن يكون من أهل الإحسان ، وأن يكون من أهل التقوى لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ**

. . . .

اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] ، وأن يكون من أهل الصبر ، وهكذا بقية الأعمال التي ذكر الله أن أهلها حظوا بمعية الله .

بقي الجمع بين آيات العلو وآيات المعية ، نقول : لا منافاة بين آيات العلو وآيات المعية ، فإن الله تعالى عليٌّ في دنوه ، قريب في علوه ، فما ذكر عن علوه وفوقيته لا ينافي ما ذكر من قربه ومعيته ، فإنه تعالى ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى: ١١]، فليست معيته كمعية المخلوق، وليس علوه كعلوهم.

فهو مع كونه عليّاً بكل أنواع العلو لا يخفى عليه من أمور عباده شيء ، فهو مطّلع عليهم ومهيمن عليهم ، ورقيب على أعمالهم ، وذلك لأنهم خلقه وملكه ، وهو المالك لهم ، فهو لا يغفل ولا يغيب عن عباده ، كقوله: ﴿ **وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ** ﴾ [الأعراف: ٧] ، فليس بينهما تناف ، فقربه يكون بعلمه وباطلاعه ، وبكون كل شيء تحت تصرفه وأمره وتقديره : ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [يس: ٨٢] . وعلوه وارتفاعه فوق عباده بجميع أنواع العلو ، وليس بينهما والحمد لله منافاة.

❁ ❁ ❁

٢٣ - إِثْبَاتُ صِفَةِ الكَلَامِ لِلَّهِ تَعَالَى:

[وَقَولُهُ: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧] ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ [النساء: ١٢٢] ، ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١١٦] ، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام: ١١٥] ، ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤] ، ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ، ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ، ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠]، ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥]] .

الشرح

■ قوله: (وقوله: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ ...):

عقيدة أهل السنة أن الله تعالى متكلم ويتكلم إذا شاء ، وأن كلام الله قديم النوع حادث الآحاد ، واستدلوا بالعقل والنقل ، فأما العقل فإن كل ذي عقل مفطور على أن من يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، وأن فقد الكلام نقص وعيب ، ويدل على ذلك أن الله عاب معبودات المشركين بأنها ناقصة لأجل ذلك ،

. . . .

فذكر في عجل بني إسرائيل الذي عبدوه بعد موسى نقصه بنفي الكلام عنه ، فقال تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً** ﴾ [الأعراف : ١٤٨] ، فدل على أنه ناقص لكونه لا يكلمهم ، فيدل أن المعبود الحق ، وهو الله ليس كذلك ، بل موصوف بأنه يتكلم .

ولما حطم إبراهيم الخليل آلهة قومه عابها بأنها لا تتكلم، فقال : ﴿ **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٦٣] فاعترفوا بقولهم: ﴿ **لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ** ﴾ [الأنبياء ٦٥] ولما خاطب الآلهة قال لها مستهزئًا: ﴿ **مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ** ﴾ [الصافات: ٩٢]، كما قال تعالى: ﴿ **فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ** ﴾ [الصافات: ٩١] فلما لم يستجيبوا له ، قال: ﴿ **مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ** ﴾ [الصافات: ٩٢، ٩٣].

فالحاصل أن من نقص ما يعبد من دون الله أنه لا يتكلم ؛ أنه مسلوب هذا الوصف ، فدل على أن صفة الكلام صفة كمال . ولهذا كلف الله من يتكلم ، فالجن والإنس والملائكة والشياطين مكلّفون ، وعليهم الأوامر والنواهي والحساب والعقاب والعذاب والثواب ؛ لأنهم يتكلمون وينطقون ويعقلون ، ولم يكن هذا التكليف على الدواب ولا على بهيمة الأنعام ، وكذلك الحشرات والصيود البرية وما أشبهها ، لما كانت بهيمية لا تتكلم ، لم يكن عليها تكليف لكونها ناقصة ، فدل على أن صفة الكلام صفة كمال ، هذا من حيث العقل .

. . . .

أما من حيث النقل ، فعندنا الآيات ، وعندنا الأحاديث كما سيأتينا بعض منها بعد هذا الفصل ، وهي قد دلت على صفة الكلام بعدة دلالات :

الدلالة الأولى : بصفة الحديث :

فمعلوم أن الكلام يسمى حديثًا ، تقول: حدثت فلانًا يعني كلمته ، وتحدثت مع فلان ، وفلان وفلان يتحدثان ، والقوم يتحدثون يعني يتكلمون ، فالكلام حديث ، وسمي حديثًا لأنه يحدث شيئًا فشيئًا ، يعني يتجدد ، تحدث الكلمات حرفًا بعد حرف ، وكلمة بعد كلمة ، فهذا سبب تسميته حديثًا ، والله تعالى قال : ﴿ **فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ** ﴾ [القلم: ٤٤] يعني بهذا القرآن ؛ لأنه كلام ، وقال تعالى في الآية التي في سورة النساء : ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا** ﴾ [النساء: ٨٧] ، والحديث هو الكلام ، أي من أصدق من الله كلامًا ، فهذا دليل واضح وهو إثبات الحديث ، وهو من أسماء الكلام .

الدلالة الثانية : إثبات القول والقيل :

والقول: صريح في النطق ، قال بمعنى نطق . فالقول لا تعرفه العرب إلا للكلام ، وإن كانوا قد يطلقونه على الأفعال ، ولكنهم يريدون بذلك الحكاية ؛ كأن يقولوا : قال بيده هكذا ، ولابد في ذلك من الإشارة ، فالقول هو النطق ، وهو الكلام .

. . . .

وقد دلَّ عليه القرآن في عشرات المواضع أو مئات المواضع كثيرًا ما يقول: (**قال الله**) أو (**والله يقول**) وما أشبه ذلك، كقوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ**﴾ [المائدة: ١١٠] وكقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ**﴾ [المائدة: ١١٦]، ﴿**قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ**﴾ [المائدة: ١١٥]، ﴿**قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ**﴾ [المائدة: ١١٩] ﴿**وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب: ٤]، وأشباه ذلك كثير.

وكذلك جاء بالمصدر في هذه الآية التي سبقت، وهي قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً**﴾ [النساء: ١٢٢] يعني قولاً، يعني لا أحد أصدق من الله مقالاً، فالقيل والقول بمعنى الكلام الصريح، فدل على أن الله موصوف بأنه يتكلم ويقول كما أثبت ذلك لنفسه.

والدلالة الثالثة: دلالة التسمية:

تسميته كلامًا، أو تسمية ما جاء عنه كلامًا، والأدلة عليه كثيرة، والعرب لا تعرف الكلام إلا للنطق، يقولون: هذا كلام فلان، يعني ما تكلم به وما تلفظ به، وقد استعمل ذلك في نظمهم ونثرهم، وكذلك استعمله النبي ﷺ في أحاديثه، ومنه قوله عليه السلام: «**أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد**»[1] فسماها كلمة مع أنها نطق.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦١٤٧) كتاب الأدب. ومسلم رقم (٢٢٥٦) كتاب الشعر.

. . . .

فكذلك قوله في كثير من الآيات ، كما في سورة الأنعام : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٥] قرأها بعضهم : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ ومعنى تمت : أي ثبتت وحقَّت ، فلا تبدَّل ولا تغير ، فلا مغير لأمر الله وقضائه وقدره. كما وردت مثل هذه الآية في آخر سورة هود ، في قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٩]، وفي سورة السجدة : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣]، فدلَّ على أن « كلمة » اسم للكلام يعني وجب وحق وثبت كلام الله الذي تكلم به ، وهو إخباره بأنه سيحق الحق ويبطل الباطل ، وأنه سيعذب هؤلاء ، وينعم هؤلاء ، فلا مغير لما قاله ولا مبدل لكلمات الله .

ومن الأدلة أيضًا على إثبات الكلام : تكليمه تعالى لبعض عباده ، وقد أثبت ذلك لموسى في عدة آيات منها : قوله في سورة النساء : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤] أكَّده بالمصدر ، وهي قوله : ﴿ تَكْلِيمًا ﴾ .

روي أن بعض المعتزلة جاء لأبي عمرو القاري ، وقال : أحب أن تقرأها بنصب « الله » أن تقرأها ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهَ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ . أراد هذا المعتزلي أن يكون موسى هو المكلم لا الله . فقال له أبو عمرو : هب أني قرأتها كذلك ،

. . . .

فكيف تصنع بقول الله تعالى ، يعني في سورة الأعراف : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فسُقط في يدي ذلك المعتزلي ، حيث إن الآية التي قالها لا تحتمل التأويل : ﴿ كَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ فقدم الضمير الذي يعود إلى موسى، وأكد أن الذي كلمه هو ربه ، فالكلام هو النطق، يعني سمع كلام الله كما يسمع كلام غيره إلا أن كلامه لا يشبه كلام غيره من المخلوقات.

كذلك أيضًا أثبت الله لموسى أنه كلمه في قوله : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ وكذلك قوله : ﴿ مِنْهُم مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ لكن المعتزلة الذين أنكروا صفة الكلام لم يجدوا بُداً من التأويلات البعيدة ، فجعلوا التكليم هنا بمعنى التجريح لأن الكلم : الجرح ، فيردُّ عليهم بأن الله أثبته وسماه كلامًا ، في قوله تعالى: ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي ﴾ [الأعراف: ١٤٤] هذا لا يستطيعون تأويله ، حيث أثبته لنفسه ، فقال : «كلامي» كذلك قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١]، وقد كلم الله موسى من وراء حجاب ، وأثبت أنه يكلم من وراء حجاب .

الدلالة الرابعة: النداء:

فالنداء لا تعرفه العرب إلا بكلام ، وقد أثبته الله في آيات كثيرة ، كقوله

. . . .

تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي ﴾ [القصص: ٧٤] وتأتينا آيات في النداء غير هذه الآية ؛ كقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم: ٥٢] فآيات المناداة صريحة في إثبات صفة الكلام، وأنه ناداه بكلام سمعه لما ناداه ، وهو على الطور ، سمع كلام الله كما يشاء الله تعالى .

الدلالة الخامسة: المناجاة :

والمناجاة: هي الكلام الذي يكون بين اثنين لا يسمعه غيرهما ، ففي هذه الآية إثباتها في قوله: ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ يعني مناجيًا . فالنجوى : الكلام بين اثنين لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المجادلة: ٩] فالتناجي: يعني الكلام الخفي بين اثنين ، فالله تعالى أثبت أن موسى نجيٌّ يعني مناجيًا لله تعالى مكلمًا له ، فدل على إثبات صفة الكلام.

فلهذه الأدلة وما يأتي بعدها ، كل ذلك في إثبات أن الله متكلم ، وأنه يتكلم إذا شاء ، أثبت ذلك أهل السنة ، وأثبتته أيضًا الأشعرية ، وأثبتوا أن الله متكلم ، ولكن الأشعرية لما جادلوا المعتزلة اضطروا إلى أن ينكروا الكلام الحقيقي ، فقالوا: هو الكلام النفسي ، وهو أنه كلام في النفس لا كلام حقيقي ، فعيب عليهم بأن هذا نقص ولا يتم به المراد . والصحيح أن الله يتكلم كما يشاء ، ولا نقول إنه يتكلم كما يتكلم المخلوقات ويحتاج إلى

. . . .

لسان ولهوات إلخ ؛ بل منزه عن صفات النقص ، وعن صفات المخلوقين ، وهكذا يعتقد المسلمون .



٢٤ ـ إِثْبَاتُ أَنَّ القُرْآنَ كَلامُ اللَّه :

[﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّه ﴾ [التوبة: ٦]، ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّه ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥] ، ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّه قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ [الفتح: ١٥] ، ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ [الكهف: ٢٧]].


الشرح

ذكرنا أن عقيدة أهل السنة أن الله متصف بالكلام ، وبأنه يتكلم إذا شاء ، وأن من جملة أدلتهم : أن الله وصف نفسه بأنه نادى وينادي وناجى كما تقدم في قوله: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم: ٥٢] . والنداء لا يكون إلا بكلام . وكذلك النجاء والمناجاة لا تكون إلا بكلام مسموع . فإن المنادي ينادي ويرفع صوته .

ومن الأدلة أيضًا: ما روي أن رجلاً قال: يا رسول الله ، أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه[(١)] ؟ . فأنزل الله قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٣٥٢) وعزاه لابن جرير الطبري، والبغوي في معجمه، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، من طريق الصلت بن حكيم، عن رجل من الأنصار، عن أبيه عن جده، قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: ....» فذكر الحديث. والإسناد كما ترى فيه مجاهيل.

. . . .

عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦] فمعنى قولهم: أقريب فنناجيه؟، يعني إذا كان قريبًا فإننا نناجيه، يعني نسأله سرًا بيننا وبينه، كالذي يكون بين المتناجيين، وإذا كان بعيداً رفعنا الصوت وناديناه بالدعاء، فأخبر تعالى بأنه قريب، ففرقوا بين النداء والمناجاة، فآيات النداء التي في القرآن بلغت سبعة مواضع أو ثمانية أغلبها في موسى، أن الله ناداه، كقوله: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠] كما في سورة الشعراء، وقوله في سورة مريم: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ [مريم: ٥٢]، وقوله في سورة النازعات: ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [النازعات: ١٦]، كذلك في آدم قال تعالى: ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف: ٢٢] يعني أن الله ناداهما أي آدم وزوجه؛ ناداهما فسمعا نداءه، وكلمهما فسمعا كلامه، فالنداء كلام.

كذلك آيات النداء في الآخرة ثلاث آيات في سورة الصافات: قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص: ٦٢]، وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥] هذا في يوم القيامة أخبر بأنه يناديهم، والنداء لابد أن يكون بكلام مسموع، ويأتينا في الحديث أنه ينادي آدم بصوت يسمعه آدم. فالنداء من أدلة إثبات صفة الكلام لله تعالى.

وبعد أن عرفنا الأدلة على إثبات صفة الكلام، وأن الله متكلم، فعندنا

. . . .

آيات تتعلق بالقرآن ، وأن القرآن من جملة كلام الله ، وأن الله تكلم به حقيقة بخلاف من زعم أنه خلقه كما خلق غيره ، فإن المعتزلة والجهمية ونحوهم لما اعتقدوا في الله عقيدة سيئة ، ودفعوا عن الله تعالى صفات الكمال، ومن جملة ذلك أنهم نفوا عنه صفة الكلام، وجعلوا الكلام خاصًا بالمخلوق ، وادعوا أنه يحتاج إلى كذا وإلى كذا ، وقاسوه على أنفسهم ، قاسوه على ما يتكلمون به أو ما يعرفونه، وذلك دليل قصر الأفهام، فعند ذلك جاءهم القرآن ، فلم يجدوا بدّاً من القول بأنه مخلوق ، وأنكروا أن يكون القرآن كلام الله ، فعند ذلك جادلهم أهل السنة ، وتحدوهم بأن يأتوا بدليل يدل على أن القرآن مخلوق ، أو يجيبوا على الأدلة التي تدل على أن القرآن كلام الله ، فلم يجدوا إلا التأويلات البعيدة .

■ قوله: ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ** ﴾) :

فمن الأدلة على أن القرآن كلام الله هذه الآيات الأربع التي عندنا .

● **فالآية الأولى:** في سورة التوبة ، قول الله تعالى : ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ** ﴾ [التوبة: ٦] ومن المعلوم أن الذي يُسمع هو هذا القرآن الذي يقرؤه القارئ ويسمعه المستمع ، فهو كلام الله ، والآية نزلت في تأمين الداخل للاستماع ، يعني إذا أتى أحد من المشركين يريد أن يدخل في البلاد الإسلامية ، فأعطه أمنًا وأجره وأمِّنه من

. . . .

الناس أن يعتدوا عليه أو يقتلوه ، حتى يدخل ، لعله يسمع كلام الله ، فمتى سمع كلام الله ربما يلين قلبه ، ويهديه الله للإسلام ، فهذا ونحوه دليل على أن القرآن كلام الله ؛ لأنه هو الذي يسمع وسماه كلامه . وليس كلامه ككلام البشر ، نحن نتكلم به ونقرؤه ، ولكن تكلُّم الله به كما شاء ، لا أنه مثل تكلّمنا به .

• **الآية الثانية** : قول الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ٧٥] .

يعني قد كانوا فيما مضى يسمعون كلام الله المنزل على أنبيائه في التوراة والإنجيل وغيرها من الكتب النبوية السماوية ، يسمعونه ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، يحرفونه تحريفًا معنويًا ، أو تحريفًا لفظيًا .

وهذا دليل على أن الكتب المنزلة على الأنبياء كلها كلام الله ، فإن الله تعالى تكلم بالقرآن وتكلم بالتوراة ، وتكلم بالإنجيل وبالزبور ، وبصحف إبراهيم وبصحف موسى ونحوهم .

• **أما الآية الثالثة** : فهي في قصة المنافقين من الأعراب ؛ حيث قال تعالى : ﴿ **سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ** ﴾ [الفتح : ١٥] .

يعني أن الله قد نهى المتخلفين عن اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما في قوله تعالى : ﴿ **فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل**

. . . .

لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣].

فهذا فيه كلام من الله وإخبار بأنهم لا يخرجون، فهم يريدون أن يبدلوا كلام الله، فإذا رأوا الرسول انطلق إلى مغانم ليأخذها ويظفر بها، استأذنوا، وقالوا: دعونا نقاتل معكم، يريدون أن يبدلوا ذلك الكلام الذي أخبر الله به أنهم لا يخرجون، فأخبرْهم يا محمد وقل لهم: لن تتبعونا ﴿كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾، فقوله: ﴿كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ﴾ هو تفسير لقوله: ﴿كَلامَ اللَّهِ﴾.

فدل ذلك على أن الكلام هو القول، وأن معناه: كذلكم تكلم الله، وأن قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ﴾ يعني يريدون أن يبدلوا ما قاله الله في حقهم وعدم خروجهم. هذا ونحوه دليل على أن الله تعالى تكلم بهذا، وأنه عين كلام الله تعالى.

• **أما الآية الرابعة**: فهي قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف: ٢٧] ففيها الأمر بتلاوة كتاب الله، والمراد به هذا القرآن؛ أمر الله بتلاوته، والتلاوة: القراءة، يتلوه: يعني يقرؤه في تدبر، يقرؤه على الناس، يقرؤه تعبدًا؛ لأنه أوحاه الله إليك وأنزله: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ سماه كتابًا؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ولأنه كُتب بعد ذلك بالمصاحف. والكتاب: اسم لما يكتب، وأضافه إلى الله ثم قال: لا مبدل لكلماته، يعني أن ما فيه هو كلام

. . . .

الله ، ولا مبدل لكلام الله ، وقد تقدم قوله تعالى : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥] ، فكذلك قوله هنا: ﴿لا مبدل لكلماته﴾ يعني لا مغير له ، فصرح بأنه كلمات، وبأنه كلام الله.

وقد ذكر العلماء أن هذا القرآن الذي في مصاحفنا ، هو كلام الله ؛ حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني ، ولا المعاني دون الحروف ، كما يأتينا في هذه العقيدة إن شاء الله .

وكذلك ذكروا أن هذا القرآن حروفٌ وكلماتٌ وجملٌ ومعاني ، وكله من كلام الله ، وأن من جحد منه شيئًا ، وأنكر أن يكون كلام الله ، أو أنكر أن يكون من وحيه الذي أنزله على أنبيائه ، فإنه يكفر بذلك ؛ لأنه أنكر شيئًا اجتمعت عليه الأمة وتلقته بالقبول ، وأنكر شيئًا من الذي تكفل الله تعالى بحفظه عن التغيير والتبديل .

عرفت بذلك أن كلام الله من جملته هذا القرآن .

واعلم بعد ذلك أن كلام الله ليس له نهاية ، ولا يحيط به محيط ، قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] يعني لو أن جميع الأشجار؛ ما في الأرض من شجرة ، من أول الدنيا إلى آخرها ، كانت أقلامًا ، وأن البحار السبعة كانت حبرًا مدادًا ، فكتب بتلك الأقلام ، وكُتب بذلك المداد الذي هو سبعة البحار لتكسرت الأقلام قبل أن ينفد كلام

. . . .

الله ، ولنفدت البحار قبل أن ينفد كلام الله ، وذلك لأن كلام الله لا نهاية له ، والمخلوق له بداية ونهاية .

وهذا دليل صريح على أن القرآن كله من كلام الله ، وواجب المسلم إذا عرف أنه كلام الله أن يحترمه ، وأن يفرق بينه وبين كلام الناس ، وأن يعمل بما أمر فيه ، فيتلوه حق تلاوته ، ويتدبره حق تدبره ، ويقف عند عجائبه ، ويؤمن بمتشابهه ، ويعمل بمحكمه ، ويصدق بما فيه ، ولا يرد شيئًا منه ، ويعتقد أنه آية الله ، ومعجزة نبيه التي أقام بها الحجة على قومه ، وأنه محفوظ عن التغيير والتبديل ، فإذا صدق بذلك ، صدق عليه أنه آمن بالله وكتبه .



٢٥ ـ إِثْبَاتُ تَنْزِيلِ القُرْآنِ مِنَ اللَّهِ :

[وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل: ٧٦] ، ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام: ٩٢] ، ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١] ، ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠١ ، ١٠٣]] .



■ قوله: (وقوله: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾):

ففي هذه الآيات دليل على عظم منزلة القرآن الكريم بين كتب الله ، ومنزلته في شرع الله ، وفي قلوب عباده ، فإنك تعرف من هذه الآيات أنه كلام الله ؛ لأن فضله على كلام الناس كفضل الله على خلقه .

وتعرف من هذه الآيات أنه منزَّل من الله ، لا أنه مفترى ولامكذوب ، كما يقوله المشركون .

. . . .

وتعرف أنه منزل من الله لا من غيره كما في هذه الآيات .

وبعد معرفتك لهذا ، فإنك :

أولاً : تعتقد عقيدة صادقة أنه آية من الله ومعجزة للرسول عليه الصلاة والسلام .

ثانياً : تتدبره وتتعقله كما أمرك الله .

ثالثًا : تعتقد كل ما ورد فيه من الأمور الغيبية وتصدق بها .

رابعًا : تعمل به وتطبقه حسب ما تستطيع . يحملك على هذه الأمور التصديق بمضمون هذه الآيات ونحوها :

● **الآية الأولى** : في سورة النمل : ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [النمل : ٧٦] بنو إسرائيل كانوا قد اختلفوا في أشياء أثبتها بعضهم ونفاها بعضهم ، وحرفوا كثيرًا من كتبهم ، فجاء القرآن بالقول الفصل والحق والصدق ، وبين لهم القول الصحيح في كلِّ ما اختلفوا فيه ، فتجد قصة موسى ، وقد اختلفوا فيها وقصها الله كما هي ، وتجد قصة بني إسرائيل وكثيراً من سيرهم محققة ، ليس فيها اختلاف ، وإن كانوا قد اختلفوا هم بأنفسهم في كثير من الأشياء ، وجاء القرآن بالفصل بينهم ، وذكر تلك القصص على ما هي عليه ، هذا معنى قوله : ﴿**يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ .

. . . .

فيجب أن يكون مرجعًا لهم ، وإذا كان مرجعًا لهم فهو مرجع للأمة ، مرجع لها في قصص الأنبياء وما وقع عليهم ، مرجع لها في الآخرة ، وما يكون فيها وما يحدث فيها ، مرجع لهم في الأحكام والحلال والحرام ، ومايحل من ذلك وما يحرم ، مرجعًا لهم في الاعتبار والأمثال ونحوها ، يجب أن يكون مرجعًا للجميع ؛ لأنه من الله .

● **أما الآية الثانية** : في سورة ص : ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ** ﴾ [ص : ٢٩] .

ذكر الله أنه أنزله ، فالإنزال من الله ، وهو من أقوى الشواهد ، فإنه منزل من الله ، والإنزال لا يكون إلا من أعلى ، فدل على أنه منزل من الله ، وأنه كلامه ؛ لأنه الذي أنزله ، ولم يقل : خلقناه ، فلم يذكره بالخلق كما تزعم المعتزلة ، بل ذكره بلفظ الإنزال والتعليم ونحو ذلك ، فإذا عرفنا أنه منزل من الله تلوناه حق تلاوته ، إذا أمرنا الله بتدبره امتثلنا ﴿ **لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ** ﴾ ، وإذا أمرنا بالتذكر تذكرنا ﴿ **وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ** ﴾ ، وأولو الألباب : هم أصحاب العقول النافعة لا العقول المعيشية الدنيوية ، فإنهم لا يتعقلونه بل يعرضون عنه ، فيستبدلون به ما سواه ، وما هو ضده ، من اللهو واللغو والباطل ونحو ذلك .

● **الآية الثالثة** : في سورة الحشر : ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ**

. . . .

خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١] ففيها أنه منزل ؛ لأن الله ذكر أنه منزل بقوله: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] ، يقول: لو أنه أنزل على جبال لخشعت الجبال ، فلماذا لا تخشع هذه القلوب ؟ لماذا لا تخشع قلوبكم، وقد خوطبت بهذا القرآن العظيم؟ فالجبال لو أنها مكلفة ونزل عليها هذا القرآن العظيم ، لرأيت الجبل منه خاشعًا: يعني مخبتًا وخاضعاً ومستكيناً ومتواضعًا ﴿ مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ يعني من شدة خوفه ، إذا كان هذا شأن الجبل مع كونه جماداً أصم شامخًا ، ومع ذلك هذا فعله ، فإنك بطريق الأولى أن تكون خاشعًا منصدع القلب من خشية الله ، فإن من تأمله وقرأه بحضور قلب ، حمله ذلك على أن يخشع ، وعلى أن يخشى الله . ومن آثار خشيته: أن يخشع قلبه ويخشع بدنه .

● **أما الآية الرابعة والخامسة والسادسة** : فهي من سورة النحل ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ فذكر أنه هو الذي نزله، وأنه أعلم به ، وأنه قد ينسخ منه بعض الآيات ، ويأتي ببعض بدلاً منها ، وهذا معنى : ﴿ بَدَّلْنَا آيَةً ﴾ أي نسخناها وأتينا ببدلها ، كقوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [البقرة: ١٠٦] .

فإذا بدل الله آية مكان آية ، فإن المشركين يشكون ، ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ فذكر أنه منزل ، والله أعلم بما

. . . .

ينزل ، ولكنهم عندما تنسخ آية يتهمون الرسول بأنه افترى الأول والآخر ، ويقولون : إنما أنت مفتر فيردُّ الله عليهم : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ﴾ صرح بأنه منزل﴿ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾[النحل: ١٠٢]، روح القدس يعني جبريل، نزل به ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ يعني نزله من الله الذي هو ربك وربه ﴿بِالحَقِّ﴾ يعني مشتملاً على الحق. وفائدته: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ تثبيتٌ وهدى وبشرى خاصة بالمسلمين .

ثم قال : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ يعني علم الله وسمع أنهم يتكلمون في الرسول عليه الصلاة والسلام، ويتهمونه بأنه تلقاه من إنسان ، فقالوا : ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ ، وكان عندهم رجل يهودي أو نصراني بمكة ، وكانوا يقولون : إنه الذي لقن محمداً هذا القرآن مع أن ذلك النصراني لم يكن عربيًا ، فقال الله تعالى : ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ يلحدون: أي يميلون إليه ، ويدّعون أنه الذي تلقى عنه محمد ﷺ هذا القرآن ، لسانه أعجمي ، وأما محمد ﷺ فلسانه عربي ، فلهذا قال : ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، فكيف يزعمون أنه تلقاه من ذلك الأعجمي ، فهذا دليل على أنه منزل من الله على قلب النبي ﷺ .

فالحاصل أن هذه الآيات دالة على فضل القرآن ، وفضل تدبره وتعقله ، ودالة على أنه منزل من الله ، ودالة على أنه مستمر على الهدى وعلى التثبيت

. . . .

وعلى البشرى للمسلمين ، ودالة على أنه مرجع وحكم لكل من اختلف في شيء من الأمور ، فإنه يجد فصل النزاع في هذا القــرآن ، ودالــة على أنه كلام الله؛ لأنه لم يذكره بالخلق ، بل ذكره بالتنزيل .



٢٦ ـ إِثْبَاتُ رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ :

[وَقَوْلُهُ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢ ، ٢٣] ، ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين : ٢٣] ، ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٣٥] ، وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللَّهِ كَثِيرٌ ، مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ] .

الشرح

هذه الآيات استدل بها المؤلف رحمه الله على مسألة النظر إلى الله ، أي النظر إلى وجه الله ، ورؤية المؤمنين لربهم في الآخرة ، وقد دل على هذه المسألة الكتاب والسنة ، واتفق عليها سلف الأمة وأئمتها ، وأنكرتها المعتزلة والجهمية ونحوهم ، وبالغوا في إنكارها .

والأدلة من القرآن ، منها ما هو صريح ، ومنها ماهو مستنبط .

• **الآية الأولى** : من سورة القيامة : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ناضرة بالضاد من النضارة وهي البهاء يعني بهيَّة مشرقة ، والثانية ناظرة بالظاء : من النظر وهو المعاينة . وأضاف أن النظر إلى الله ، فقال : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ظاهرها أنها تنظر إلى الله تعالى معاينة ، عبر بالوجوه ؛ لأنها محل النظر ، فالنظر مركب في الوجه ، كذلك قال : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ

. . . .

نَّاضِرَةٌ﴾، ولم يقل: عيون ؛ لأن بالنظر تشرق تلك الوجوه ، كما فسرت ذلك السنة .

وهذه الآية من أوضح الأدلة ولكن المعتزلة لم يجدوا بدًا من تسليط التأويلات عليها ، فقال بعضهم : ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ يعني إلى ثواب ربها ، وإلى عطاء ربها فجعلوا مقدرًا ، وهو خلاف الأصل، فالأصل أنها لا تحتاج إلى تقدير ، لا تحتاج إلى شيء خفي ، وهذا كما فعلوا في قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ قالوا: المعنى وجاء أمر ربك ، وكما فعلوا في قوله: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦] قالوا: من في السماء أمره، وهكذا فعلوا هنا في قوله : ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، قالوا: ثواب ربها ناظرة ، أو إلى نعيمه وجنته، وهذا الإضمار خلاف الأصل.

وتأول آخرون حرف الجر بأنه اسم لا حرف ، وأنه مفرد الآلاء ، فقالوا: ﴿إِلَى رَبِّهَا﴾ يعني آلاء ربها ، ناظرة ، وهذا أيضًا بعيدٌ كل البعد عن مفهوم القرآن، فالقرآن صريح في أن المراد النظر إلى ربها ، ولأن الإلى لم يرد بالمفرد لما فيه من الإيهام، وإنما ذكره الله بالجمع في قوله : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٥]، وفي قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] ولم يقل: بإلى ربك أو بإلى ربكم ، عرفنا من ذلك أن تأويلاتهم باطلة، وأن الأولى إجراؤها على ظاهرها.

● **الآية الثانية**: قوله تعالى: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣] كما في سورة المطففين ، الأرائك : جمع أريكة ، وهي ما يتكأ عليه ، يعني

. . . .

أنهم متكئون فيها على الأرائك ، ينظرون .

فُسِّر هذا النظر بأنه النظر إلى الله تعالى . فظاهر النظر في الآية أنه النظر إلى الله، وإن كانت محتملة أن المراد النظر إلى ما أعطوا من النعيم والثواب .

● **الآية الثالثة** : قوله تعالى في سورة يونس : ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ** ﴾ [يونس : ٢٦] ورد تفسير الزيادة مرفوعًا عن النبي ﷺ بأنه النظر إلى وجه الله ، كذلك فسره الصحابة كأبي بكر وغيره من الصحابة الأجلاء قالوا: للذين أحسنوا الحسنى: الجنة ، وزيادة : النظر إلى وجه الله تعالى(١) ، وإذا نظروا إلى وجه الله فلا يرهق وجوههم قتر ولاذلة ، يعني: لا يصيبهم من النظر قتر وهو الغبرة والتغير ، (**ولا ذلة**) أي مهانة.

بل الأمر بعكس ذلك ، تشرق وجوههم وتستنير بالنظر إلى الله.

● **أما الآية الرابعة** : وهو قوله تعالى : ﴿ **لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ** ﴾ [ق: ٣٥] كما في سورة ق ، قد فُسِّر المزيد بالنظر إلى وجه الله ، وفسرها بذلك جمع من السلف ، ﴿ **وَلَدَيْنَا مَزِيد** ﴾ أي نزيدهم بشيء لم يخطر على بالهم وهو النظر إلى وجه الله تعالى .

---

(١) الحديث المرفوع رواه مسلم رقم (١٨١) كتاب الإيمان، باب : «إثبات الرؤية». والترمذي رقم (٢٥٥٢) كتاب صفة الجنة، وأحمد في المسند (٤/ ٣٣٣) عن صهيب رضي الله عنه.
وآثار الصحابة ذكرها ابن كثير وابن جرير وابن أبي حاتم في تفاسيرهم [من تخريجات الشيخ ابن جبرين].

. . . .

هذه آيات أربع استدل المؤلف بها هنا .

وهناك أيضًا آيات أخرى منها قوله تعالى : ﴿ **كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ** ﴾ [المطففين: ١٥] هذه من أوضح الأدلة ؛ لأن الله ذكر أن الكفار محجوبون عن ربهم ، فدل على أن المؤمنين لا يحجبون ، فلو لم ينظروا إليه لكانوا أيضًا محجوبين عن ربهم مثل الكفار ، فلا يكون هناك فرق ، استنبط الدلالة من هذه الآية الإمام الشافعي وبعده الأئمة ، قالوا : كيف يكون الكفار محجوبين عن الله ، وكذلك المؤمنون ؟ إذن لم يكن هناك فرق .

قالوا : لما حجب هؤلاء في الغضب ، دل على أن المؤمنين لا يحجبون عنه في الرضا .

ومن الأدلة أيضًا أن بعضهم قرأ قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا** ﴾ [الإنسان: ٢٠] قرأها ﴿ **وَمَلِكًا كَبِيرًا** ﴾ ، وقال : الملك : هو الله أي أن المؤمنين ينظرون إلى الله تعالى ؛ حيث ذكر نفسه بالمُلك وبالكِبَر .

أما المعتزلة فاستدلوا على نفي الرؤية بالآية الكريمة التي في سورة الأنعام، وهو قوله تعالى : ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ** ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، قالوا : الأبصار هي الأعين ، قد أخبر الله بأنها لا تدركه ، فجعلوا ذلك دليلاً على أنها لا تراه ، ولكن أهل السنة فسروا الإدراك بأنه الإحاطة ، واستدلوا بهذه الآية على إثبات الرؤية لا على نفيها ، فقالوا : يراه المؤمنون في الجنة بأبصارهم ، ولكن الأبصار عندما تراه فإنها لا تحيط به ، لا تدركه الأبصار إذا رأته ، فدلّ على أنه يُرى رؤية بلا إحاطة : أي لا تحيط به إذا رأته ،

. . . .

ففيها إثبات الرؤية ، ونفي الإدراك الذي هو الإحاطة ، فأصبحت الآية دليلاً عليهم ، لا دليلاً لهم ، فأصبحت مثبتة للرؤية ؛ لأن فيها نفي الإدراك ، فدلَّ على أن هناك رؤية بلا إدراك .

واستدل المعتزلة على نفي الرؤية بقوله تعالى لموسى في سورة الأعراف : ﴿**لَنْ تَرَانِي**﴾ ، فقالوا : إن موسى طلب الرؤية بقوله : ﴿**قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾ [الأعراف: ١٤٣] فقال: ﴿**لَنْ تَرَانِي**﴾، فاستدلوا بقوله: ﴿**لَنْ تَرَانِي**﴾ على أن الله لايُرى ، وقالوا: إن « **لن** » للنفي المؤبد ، فدل على أنه لا يُرى . ولكن الآية دليل عليهم لا لهم ، فإن موسى عليه السلام أعلم بربه من المعتزلة، فلا يمكن أن يسأل شيئًا مستحيلاً ، وأيضًا فإن الله ما أنكر على موسى لما طلب الرؤية ،كما أنكر على نوح، لما طلب نجاة ابنه ، وقال له : ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ [هود: ٤٦] ولم ينكر على موسى، بل قال : ﴿**لن تراني**﴾ ولم يقل إني لا أُرى ، إني لست بمرئي ، إني لا تجوز رؤيتي ، إني لا تمكن رؤيتي، فدل على أن الرؤية ممكنة، وقوله: ﴿**لَنْ تَرَانِي**﴾ يعني لا تقدر على رؤيتي ، ثم إن «**لن**» لا تفيد النفي المؤبد .

يقول ابن مالك في الألفية :

ومن رأى النفي بلن مؤبدًا   فقوله اردُدْ وسواه فاعضدا

. . . .

إذن استعمال «**لن**» يكون للنفي غير المؤبد . فقوله : ﴿**لَن تَرَانِي**﴾ يعني في هذه الحياة ، وذلك بموجب بنية البشر ، فالبشر في هذه الحياة ضعيف لا يقدر على المثول أمام جلال الله وكبريائه ، ثم يدل على ذلك أن الله تعالى قال : ﴿**وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي**﴾ فعلق رؤيته على استقرار الجبل ، واستقرار الجبل ممكن ، وقد عُلِّقت عليها الرؤية ، وهي عند المعتزلة مستحيل ، والله قد علَّقَها على ممكن ، والمعلَّق على ممكنٍ ممكن .

ويدل على ذلك أن الله تجلى للجبل ، وإذا جاز أن يتجلى للجبل ، فبطريق الأولى يتجلى لعباده يوم القيامة، والمعتزلة تنكر تجلِّيه للجبل ؛ لأنهم لا يعترفون بأن الله يُرى ، ولا أنه يتمثل أمام شيء من مخلوقاته .

عرفنا بذلك أن هذه الآيات التي استدلوا بها دليل عليهم لا لهم ، إذن هذه الآيات فيها إثبات الرؤية ، وسيأتينا في الأحاديث أيضًا حديث جرير الذي فيه : « **إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر**»[1] .

هذه هي الآيات التي أوردها المؤلف مشتملة على جملة من الصفات ، ولكنه رحمه الله لم يستوف جميع الآيات ؛ لأن ذلك سيخرج به عما أراده

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٥٤) في مواقيت الصلاة ، باب : «فضل صلاة العصر» . ومسلم برقم (٦٣٣) في المساجد، باب : «فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما» . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

. . . .

من تأليف هذه العقيدة المختصرة .

■ وكذلك قال بعد ما أورد هذه الآيات : وهذا الباب في كتاب الله كثير .

يعني إنما ذكرنا أنموذجًا ، ولم نستقص .

■ ثم قال : ومن تدبر القرآن طالبًا للهدى تبين له طريق الحق . فعليك أن تتدبر القرآن ، وإذا تدبرته وأنت تريد طلب الهدى وطلب الدليل الصحيح ، فإنه يتبين لك طريق الصواب، خصوصًا إذا حسنت نيتك وأردت بذلك إظهار الحق لا المجادلة بالباطل .



فهرس الموضوعات

توزيع:
مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان
الرياض ١١٤٣١ ـ ✉ ١٤٠٥
☎ ٤٠٢٢٥٦٤ ـ فاكس: ٤٠٢٣٠٧٦